

جامعة البحرين

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية



كلية الآداب

"تُخَفَّةُ النَّظَارِ فِي غَرَائِبِ الْأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ الْأَسْفَارِ"
لأَبْنِ بَطُوطَةَ، مُقَارَبَةٌ سَرَدِيَّةٌ ثَقَافِيَّةٌ

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير
في اللغة العربية وآدابها

إعداد

دلال راشد النوادي

الرقم الجامعي: ٢٠١١٠٩٤٢

إشراف

د. ضياء عبدالله الكعبي

أستاذة السرديات والنقد الأدبي الحديث المشارك

جامعة البحرين

مملكة البحرين

٢٠٢٢ م

جامعة البحرين



قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

كلية الآداب

"تُحْفَةُ النُّظَّارِ فِي غَرَائِبِ الْأُمُصَّارِ وَعَجَائِبِ الْأَسْفَارِ"
لأَبْنِ بَطُوطَةَ، مُقَارَبَةٌ سَرَدِيَّةٌ ثَقَافِيَّةٌ

رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير
في اللغة العربية وآدابها

إعداد

دلال راشد الذواودي

الرقم الجامعي: ٢٠١١٠٩٤٢

إشراف

د. ضياء عبدالله الكعبي

أستاذة السرديات والنقد الأدبي الحديث المشارك

جامعة البحرين

مملكة البحرين

٢٠٢٢م



قرار لجنة مناقشة أطروحة

اسم الطالب:	دلال راشد الذوايدي	الرقم الجامعي:	20110942
الكلية:	كلية الآداب	القسم:	قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية
البرنامج:	الدبلوم العالي والماجستير في اللغة العربية	المعدل التراكمي:	3.82
عنوان الأطروحة: تحفة الظل في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة، مقاربة سردية ثقافية			

اجتمعت لجنة المناقشة يوم الثلاثاء الموافق 1 مارس 2022 بقاعة رقم
عبر منصة التميز وبعد مناقشة الطالب المذكور أصلاه علناً توصي لجنة المناقشة بالتالي:

يمنح الطالب تقدير: A في مقرر الأطروحة: Arab M 590

م	دون إجراء أية تعديلات على الأطروحة.
م	إجراء التعديلات المرفقة مع هذا القرار.

تصديق أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم	التوقيع
1. د/ ضياء عبدالله الكعبي	المشرف على الأطروحة
2. أ.د/ عبدالفتاح أحمد يوسف	الممتحن الداخلي
3. أ.د/ شعيب حليفي	الممتحن الخارجي

المخلص

"تُحْفَةُ النُّظَارِ فِي غَرَائِبِ الْأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ الْأَسْفَارِ"

لأَبْنِ بَطُوطَةَ، مُقَارَبَةً سَرْدِيَّةً ثَقَافِيَّةً

تَتَأَوَّلُتْ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ الْهُوِّيَّةَ وَالْغَيْرِيَّةَ فِي رِحْلَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ (تُحْفَةُ النُّظَارِ فِي غَرَائِبِ الْأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ الْأَسْفَارِ)، إِذْ تَعَدُّ رِحْلَةَ ابْنِ بَطُوطَةَ مُدَوَّنَةً سَرْدِيَّةً كُبْرَى مِنْ سَرْدِيَّاتِ الرِّحْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَقَدْ اعْتَمَدَتْ عَلَى تَحْقِيقَاتِ د. عَبْدِ الْهَادِي التَّازِي فِي تَفْصِيلَاتِ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ وَكَانَتْ تَفْسِيْمَاتُ الدِّرَاسَةِ مُوَرَّعَةً عَلَى مَبْحَثِ تَمْهِيْدِيٍّ ثَلَاثَةِ فُصُولٍ وَخَاتِمَةٍ:

الْمَبْحَثُ التَّمْهِيْدِيُّ تَتَأَوَّلُتْ فِيهِ: مَدْخُلُ الْمَفَاهِيْمِ الْمَرْكَزِيَّةِ وَالْوَعْيِ بِتَحَوُّلَاتِهَا الْمَعْرِفِيَّةِ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ عَرَضِ مَفْهُومٍ كِلَا مِنْ مَفْهُومِ التَّمَثِيْلَاتِ الثَّقَافِيَّةِ وَمَفْهُومِ الْهُوِّيَّةِ وَعِلَاقَتِهَا بِالْأَنَا وَالْآخَرِ.

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ تَتَأَوَّلُتْ أَدْبِيَّةُ خِطَابِ الرِّحْلَةِ فِي رِحْلَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ مِنْ خِلَالِ إِبْرَازِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ الرِّحْلَةِ الَّتِي مَثَلَتْ سَفَرًا عَظِيْمًا قَطَعَ فِيهِ ابْنُ بَطُوطَةَ مَا يُقَارِبُ مِنْ أَلْفَا وَمِائَةِ وَعِشْرِينَ كِيْلُو مِثْرًا وَهِيَ بِمِثَابَةِ نَصِّ مُتَعَدِّدِ الْمُسْتَوِيَّاتِ مِنْ أَعْمَاقِ الْمَاضِي وَالرَّحَالَةِ هُوَ ابْنُ بَطُوطَةَ الَّذِي أَطْلَقَ عَلَيْهِ شَيْخَ الرَّحَالَةِ وَهُوَ مُؤَرِّخٌ وَقَاضٍ وَفَقِيْهُ مَغْرِبِيٌّ فَقَدْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ لَا يُنْكَرُ فِي رَسْمِ صُورِ الْآخِرِ فِي الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ وَالْجَنُوبِ. كَمَا تَتَأَوَّلُتْ فِي هَذَا الْفَصْلِ الْعِلَاقَةُ بَيْنَ السَّرْدِ وَالْوَصْفِ وَكَذَلِكَ الْمَقَارَبَةُ السَّرْدِيَّةُ الثَّقَافِيَّةُ فِي تِلْكَ الرِّحْلَةِ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ مُعَايِنَةِ الْمَكَانِ وَتَمَثِيْلَاتِ الْخُصُورِ وَتَغْنِيَّاتِ الثَّقَافَةِ وَأَثَرِهَا فِي إِبْرَازِ الْهُوِّيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ.

الْفَصْلُ الثَّانِي تَتَأَوَّلُتْ فِيهِ تَمَثِيْلَاتُ الْهُوِّيَّةِ فِي رِحْلَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ (دِرَاسَةٌ فِي آيَّاتِ تَشْكِْلِ الْمَعْنَى وَالذَّلَالَةِ) مِنْ خِلَالِ إِبْرَازِ مَفْهُومِ الْهُوِّيَّةِ وَاشْكَالِهَا وَالْعِلَاقَةَ بَيْنَ الْذَاتِ وَالْهُوِّيَّةِ السَّرْدِيَّةِ وَأَرَاءِ الْأَدْبَاءِ فِي ذَلِكَ ثُمَّ الْهُوِّيَّةُ الْغَيْرِيَّةُ فِي الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَفِي رِحْلَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ.

الفصل الثالث تناوَلت فيه تمثيلات الغنريّة في رحلة ثُخفة النُّظَارِ في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة دراسة في آليات تشكّل المعنى والدلالة ، إذ تعدّ التمثيلات أحدّ الأليات التي يستخدِمها الرحّالة ليعبّر عن رحلته بوضوح، كما أنّ السرد بوصفه أحدّ آليات التمثيل لدى الرحّالة هدفاً في حدّ ذاته فهو طريقة نقل الثقافات التي عايشها ومرّ بها ابن بطوطة في رحلته.

وفي الختام توصّلت الى عديد من النتائج والتوصيات من أهمّها أنّ رحلة ابن بطوطة تعدّ مرجعاً ثقافياً للقرون الوسطى، فقد تجلّت عنده الميثيلات الثقافية في أبهى صورها، ويعود ذلك إلى دقّة عبارته وجمال لفظه، ودقّة الوصف الذي وُظف به لنقل هذه الثقافة، فكانت مذكراته العامل الأساسي في نقل هذه التمثيلات الثقافية آنذاك، كما جاءت التمثيلات الثقافية في رحلة ابن بطوطة انعكاساً للواقع إلى حدّ كبير، وجاء نصّ رحلة (ابن بطوطة) نصّاً قصصياً سرديّاً، يزوي الأحداث ويصور الشخصيات، مثّل السرد والوصف في رحلة (ابن بطوطة) أدب الرحلة فكانا يسيّران وفق خطّين متوازيين، وقد يتقاطعان عند نقطة محدّدة ليفسح إحداهما المجال للآخر لينطلق معتمداً على سياقات وتراكيب لغويّة محدّدة.

أحسن ابن بطوطة إبراز ميكانيزمات الإنتاج السردّي والحكائي والقصصيّ كما أولى ابن بطوطة الإنسان أهميّة كبرى في سياقات السرد والوصف المتنوّعة التي دونها أثناء رحلته، فركّز على تفاعله مع الطبيعة وظروفها، وكذلك العلاقة بينة وبين المكان، فرسم صوراً للحياة الاجتماعيّة وما كانت عليه من رقيّ ورفاهيّة ، وكذلك الفقر والعوز في حياة الشعوب.

اتخذ الوصف في رحلة ابن بطوطة صوراً وأشكالاً شتى، وفقاً لنظرة الرحّالة الراصدة ومشاهدته المستمِرة.

إهداء

إلى أمي ... الدعاء والنور، الهدى والسكينة
إلى أبي ... معلمي الأول، ملهمي وقائدي
إلى زوجي ... المؤمن بقدراتي، العقل والحب
إبني راشد ... نبض الحياة، الرشد والثبات
أخوتي (عبدالكريم، رزان، نعيمة) ...
القوة والعزيمة، الصبر والتفأؤل

إهديكم هذا العمل لما قدمتم لي من دعم لإكمال مسيرة العلم، ولأن أحقق هذا
الهدف الذي أحلم به طيلة حياتي. أسأل الله أن يجزل لهم العطاء، وأن ينفعني
وإياهم بهذا العلم في الدنيا والآخرة.

دلال راشد الذواذي

مارس 2022 م

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين على نعمه كلها، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين وأصحابه المجتبيين.

شكراً وامتناناً لعائلتي التي احتضنتني حباً ودعاءً، لمن انتظرت فرحتي وغادرت قبل ذلك ، لصديقتي التي رافقتني بأصعب أيامي وشدت على يدي وسندت ظهري لأقف وأكمل الطريق (عائشة المرباطي)، لمن يروني فخراً ويحملون لي حباً (نورة العربي ،منيرة الوزان ، لطيفة العربي ، سارة الوزان ، عائشة الشاوش)،للصحبة الصالحة التي شجعتني وساندتني ووثقت بقدراتي (شيماء الكوهجي، مروة حاجي، عائشة بهزاد)،لمن قلبها يشبهني وروحها قريبة مني (مريم المطوع)، لمن قضت بجانبني ساعات مثيرة تدعمني وتساندني دون كلل أو ملل (أ/سارة الصقر)، لمن زرعت دخلي روح الإصرار والعزيمة (أ/ أمانى الأنصاري)، لمن مدّت يد العون دون تردد مدرستي أم كلثوم الإعدادية للبنات (وعلى رأسها مديرة المدرسة أ/ نجاة الأنصاري ، أ. إيمان قرينيس أ/ إيمان خالد ، أ/ فاطمة المران ، أ/ ثاجبة الناصر) ولوزارة التربية والتعليم لإتاحة الفرصة لمنتسبيها للإبداع ، ختاماً شكراً لجميع المواقف والكلمات والعطاء الذي ساعدني على اتمام رحلتي.

كما أتقدم بخالص الشكر والعرفان إلى الدكتورة/ ضياء عبدالله الكعبي -على تشجيعها لي والوقوف بجانبني في كل الظروف وتقديم التحفيز المستمر لي طول دراستي. التي كانت خير موجه ومرشد، فلقد بذلت الكثير من وقتها وجهدها، ولم تبخل بجهد أو نصيحة لي وكانت مثلاً للعالم المتواضع فلها مني كل الامتنان والتقدير. وفي الختام أسأل الله العليّ القدير أن يمدنا بمزيد من العلم والتوفيق.

قائمة المحتويات

الصفحة	الموضوع
	الغلاف:
	الملخص
	الإهداء:
	الشكر والتقدير:
	قائمة المحتويات:
10-1	المقدمة:
22-11	المبحث التمهيدي مدخل المفاهيم المركزية في الدراسة والوعي بتحولاتها المعرفية
61-23	الفصل الأول أدبية خطاب الرحلة في رحلة (تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لابن بطوطة
25	المبحث الأول: بين الرحلة والرحالة.
28	المطلب الأول: الرحالة (ابن بطوطة).
31	المطلب الثاني: رحلة ابن بطوطة.
38	المبحث الثاني: ماهية السرد. (السرد والوصف في الرحلة)
39	المطلب الأول: مفهوم السرد
47	المطلب الثاني: السرد والوصف في الرحلة
54	المبحث الثالث: المقاربة السردية الثقافية في رحلة ابن بطوطة
78-61	الفصل الثاني تمثيلات الهوية في رحلة تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة.

63	المبحث الأول: ماهية الهوية
64	المطلب الأول : مفهوم الهوية (لغة واصطلاحاً).
69	المطلب الثاني : أنواع الهوية وأشكالها
74	المبحث الثاني: تمثيلات الهوية في رحلة ابن بطوطة
74	المطلب الأول: الهوية والغيرية في الثقافة العربية
76	المطلب الثاني: تمثيلات الهوية والغيرية في رحلة ابن بطوطة
106-81	الفصل الثالث تمثيلات الغيرية في رحلة (تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لابن بطوطة دراسة في آليات تشكّل المعنى والدلالة
84	المبحث الأول: تمثيلات الغيرية في رحلة ابن بطوطة
88	المبحث الثاني: الهوية والغيرية (الأنا والآخر)
88	المطلب الأول: الهوية (الأنا)
91	المطلب الثاني : الغيرية (الآخر)
101	المطلب الثالث: صورة الآخر (المرأة) في رحلة ابن بطوطة
107	الخاتمة العامة:
108	النتائج:
112	التوصيات:
114	المراجع والمصادر:
122	الملخص باللغة الإنجليزية

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، أَحْمَدُكَ يَا رَبِّي حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ
وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَعَلَى آلِهِ، وَصَحْبِهِ، وَالتَّابِعِينَ وَمَنِ اقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ
الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

تُعَدُّ رِحْلَةُ ابْنِ بطوطة مَصْدَرًا لِمُخْتَلَفِ النِّقَاطَاتِ، فَهِيَ بِهَذِهِ الصَّخَامَةِ تُشَكِّلُ نَرَاءً مَكُونًا بِدَاخِلِهَا
لَا يَزَالُ لَمْ يُطْرَقَ بِشَكْلٍ دَقِيقٍ وَمُفَصَّلٍ، فَالْوُصُولُ إِلَى هَذِهِ الثَّرْوَةِ يَتَطَلَّبُ مِنَّا دِرَاسَةً تُؤَدِي إِلَى فَهْمِ
مَكَانٍ تَسْمِيَّتِهَا (نُحْفَةُ النُّظَارِ)، وَهَذَا يَجْعَلُ الْمُتَلَقِّيَ يَقِفُ وَقْفَةً فُضُولٍ، يَشْعُرُ بِهَا كُلُّ مَنْ يَقْرَأُ
الْعُنْوَانَ؛ فَالْتَّسْمِيَةُ تَجْعَلُ الْقَارِئَ دَاخِلَ حَالَةٍ تَوْتِرٍ، تُثِيرُهُ وَتَجْعَلُهُ يَعِيشُ طَيِّلَةَ الرِّحْلَةِ فِي حَالَةٍ مِنْ
التَّوَجُّسِ وَالْقَلَقِ؛ لِأَنَّهُ يَنْتَظِرُ إِجَابَةَ السُّؤَالِ الْمُؤَرِّقِ لَهُ ((السِّرُّ الَّذِي يَجْعَلُ مِنَ الرِّحْلَةِ تَسْتَحِقُّ أَنْ
يُطْلَقَ عَلَيْهَا: "نُحْفَةُ النُّظَارِ فِي عَجَائِبِ الْأَسْفَارِ")).

إِنَّ دِرَاسَةَ الرِّحْلَةِ بِإِلْقَاءِ الضُّوءِ عَلَى التَّمَثِيلَاتِ النَّقَاطِيَةِ لِلْآخِرِ، وَتَعَايُشِ الْأَنَّا مَعَهُ، لَهَا بِمَتَابَةِ
الْإِمْسَاكِ بِالْخَيْطِ الْإِبْدَاعِيِّ فِيهَا ضِمْنٌ نَسِجَهَا الْمُتَرَابِطُ، وَإِنَّ مَا تُضِيْفُهُ الرِّحْلَةُ مِنْ مَعْلُومَاتٍ وَاسِعَةٍ
تَقُوقُ حُسْبَانَ الْقَارِئِ، وَتَجْعَلُهُ أَمَامَ مَدَوْنَةٍ عَظِيمَةٍ بِمَا تَشْمَلُ مِنْ أَخْبَارٍ وَغَرَائِبِ الْأُمُصَارِ، وَعَجَائِبِ
فِي الْبُلْدَانِ مَعَ كَوْنِهَا سِجْلًا تَارِيخِيًّا بِمَا تَقْدِّمُهُ مِنْ أَحْدَاثٍ، وَخَرِيطَةً جُغْرَافِيَّةً بِمَا رُسِمَ فِيهَا مِنْ طُرُقٍ
وَمَسَارَاتٍ وَمَسَالِكٍ.

وَالْخَيْطُ الْأَبْرَزُ الَّذِي نُرِيدُ أَنْ نُمْسِكَ بِهِ فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ: كَيْفَ نَقَلَ ابْنُ بطوطة لَنَا هَذِهِ النِّقَاطَاتِ
الْمُخْتَلَفَةَ عَنْ مُخْتَلَفِ الْبُلْدَانِ الَّتِي زَارَهَا؟ وَكَيْفَ سَنَرَى مُشَاهَدَاتِ ابْنِ بطوطة عَنْ طَرِيقِ هَذَا السَّرْدِ
الصَّخْمِ النَّاتِجِ عَنْ صَخَامَةِ الرِّحْلَةِ الَّتِي تَجَسَّدَتْ فِي ثَلَاثِ رَحَلَاتٍ أَطْوَلُهَا الرِّحْلَةُ الْأُولَى؟

إِنَّ الْمُتَدَوِّقَ لِهَذِهِ الرِّحْلَةِ يُدْرِكُ الْقِيَمَةَ الَّتِي تُضِيْفُهَا فِي مُخْتَلَفِ الْمَجَالَاتِ الَّتِي أَثَرَتْ فِيهَا. فَقَدْ
اخْتَرَقَ الْعَالَمَ الْإِسْلَامِيَّ، وَوَصَلَ إِلَى شَرْقِ آسِيَا وَأُورُوبَا وَوُصُولًا إِلَى مَجَاهِلِ أَفْرِيقِيَا. وَسَنَرَى بِذَلِكَ
تَأْثِيرَ مُرُورِهِ بِكُلِّ هَذِهِ الْفَضَاءَاتِ، سَوَاءً أَكَانَ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُمَاتِلِ أَمْ فِي الْبِلَادِ الْمُخْتَلِفِ
تَمَامًا عَنْهُ فِي الدِّينِ وَاللُّغَةِ وَالثَّقَافَةِ وَالتَّقَالِيدِ وَالْعَادَاتِ.

ظَهَرَتْ الدِّرَاسَاتُ النَّقَاطِيَةُ مُؤَخَّرًا؛ لِتُحَدِّثَ ثِقْلَةً كَبِيرَةً فِي عَالَمِ الدِّرَاسَاتِ عَامَةً وَالسَّرَدِيَّةِ خَاصَّةً،
وَيَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى وَضْعِهَا الْخُطُوطَ الرَّئِيسَةَ فِي تَحْدِيدِ الْهَوِيَّةِ النَّقَاطِيَّةِ (cultural Identitie) الَّتِي
تُمَثِّلُ حُدُودَ ثَقَافَةِ الْآخِرِ.

إن مصطلح الدراسات الثقافية واسع، ويشمل مجالات مختلفة ومفاهيم عدة لاسيما بعد تأسيس المصطلح بدءاً من الستينيات وانتشاره، إذ يجب الوقوف عنده وتوضيح ماهيته، إن الدراسات الثقافية يمكن فهمها أيضاً كإنشاء خطابي؛ مجموعة من الأفكار والصور والممارسات التي تُوفّر طرقاً مختلفة للحديث حول موضوع معين، كالأنشطة الاجتماعية أو المواقع المؤسساتية⁽¹⁾.

فهذه الدراسات تُصَبّ في مجال هذا البحث؛ لأنها تستهدف بشكل خاص موضوعات التمثيلات والهوية، ويمكن استنباط هدفها الأساسي، كما أشار إليه "كريس باركر" في كتابه: معجم الدراسات الثقافية. "إن الاهتمام المركزي للدراسات الثقافية يمكن أن يُفهم كاستكشاف للثقافة"⁽²⁾.

ويُعدُّ النثر القديم أبرز تطبيق يوضح دور الدراسات الثقافية في إخراج ما في باطن المرويات من مقاصد ودقة في التحليل الثقافي، وأخص في تحديد مكان ثروة النصوص الرحلية، فالرحلة هي معاينة للمكان وفق خلفية ثقافية معينة.

لقد قدّم الرحالة القدماء في نصوصهم أروع التمثيلات للآخر، مبرزين بذلك هوية الذات عن طريق رصد المشاهدات والمعاينات المختلفة في الفضاءات المكانية المختلفة، وتقدم النصوص رسداً لتمثيلات ثقافية للهوية وللآخر، وكشفاً مباشراً أو غير مباشر لثقافات وعادات وتقاليده.

ولذلك ارتأيت دراسة السرد الأدبي القديم المتمثل في اختيار رحلة "ابن بطوطة"؛ لتطبيقه على التمثيلات الثقافية للهوية والغربة فيها، لخصوبة الرحلة بما تحويه من تمثيلات يمكن تحديدها كما يُعدُّ ابن بطوطة واحداً من مؤسسي أدب الرحلة العربية، وتمتاز رحلته الواقعة في فترة زمنية طويلة على الوصول إلى فضاءات مكانية واسعة ومتعددة، وقد وقعت في عصر إحتك فيه العالم الإسلامي مباشرة مع الآخر، وهو القرن الرابع عشر الميلادي (القرن الثامن الهجري)، فهي ثروة في عالم السرد الأدبي القديم تحديداً، وفي عالم أدب الرحلات الذي شاع وانتشر في الثقافة العربية آنذاك.

فمن خلال الوصف والتمثيلات في المدونة لا نفهم الآخر فقط، إنّما نتعرف على طريقها أكثر على هوية ذات ابن بطوطة، فهل نستطيع إدراك السبب والدافع وراء خوض هذه التجربة العظيمة؟ إنّ خطاب الرحلة وسردها مُعتمد على إطلاق أحكام على الآخر الذي يواجهه الرحالة، وهذا الحكم يختلف من رحلة إلى آخر باختلاف المرجعية التي ينطلق منها في كتاب معرفة الغير يُذكر ((الحكم الصائب يجب أن تكون الآن أكثر إطمئناناً وصفاً))⁽³⁾.

1 - كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، ترجمة: جمال بلقاسم، الطبعة الأولى، 2018م، ص 195.

2 - المصدر نفسه، ص 195.

3 - ريمون كرابانتييه، معرفة الغير، ترجمة نسيم نصر، جامعة الملك فهد، الرياض، 1984، ص 138.

أولاً- أهمية البحث:

يُعدُّ أدبُ الرِّحْلةِ من أطرفِ الفنونِ النَّثْريَّةِ في أدبنا العَرَبِيِّ لَمَّا يَحْمِلُهُ مِنْ قِيَمَةٍ عِلْمِيَّةٍ وَمَعْرِفِيَّةٍ إِنَّ رِحْلَةَ ابْنِ بَطُوْطَةَ لَمْ تَكُنْ رِحْلَةً فِي الْفَضَاءِ الزَّمَانِيِّ وَالْمَكَانِيِّ فَحَسْبُ، بَلْ هِيَ رِحْلَةٌ إِلَى الْآخِرِ وَاسْتِجْلَاءٌ كَثِيرٌ مِنَ الصُّوَرِ التَّمْثِيلِيَّةِ السَّرْدِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ. فَمَفْهُومُ التَّمْثِيلِ يُشِيرُ إِلَى تَحْوِيلِ الْوَقَائِعِ الْخَارِجِيَّةِ إِلَى لُغَةٍ أَدْبِيَّةٍ فِي الْمُدَوَّنَةِ.

كَمَا يَسْتَدْعِي الْبَحْثُ أَفَاقًا مَعْرِفِيَّةً جَدِيدَةً تَقْتَضِي مَعْرِفَةَ خِطَابِ الرِّحْلَةِ وَمَخْرَجَاتِ الْفِكْرِيَّةِ، كَمَا نَطْلُبُ دِرَاسَةً تَمَثِيلَاتٍ مُوْضُوعَ الْهُويَّةِ وَالْغَيْرِيَّةِ وَغَايَا جَدِيدًا بِمَا هِيَ خِطَابُ الرِّحْلَةِ الْمَعْرِفِيَّةِ وَالْمَفَاهِيمِيَّةِ.

إِنَّ دِرَاسَةَ خِطَابِ الرِّحْلَةِ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ حَطَّتْ حُطُوتًا وَاسِعَةً نَحْوِ تَوْسِعِ زَوَايَا تَجَاةِ الْآخِرِ الْمُخْتَلِفِ، وَقِرَاءَةِ الْأَبْعَادِ الْمَعْرِفِيَّةِ وَالْحَضَارِيَّةِ سَوَاءً فِي الْإِتِّجَاهِ نَفْسُهُ أَوْ فِي إِتِّجَاهِ آخِرٍ يَتَجَاوَزُ الْأَطْرُ الْمَعْيَارِيَّةَ فِي تَحْلِيلِ هَذَا الْخِطَابِ، تَحْلِيلًا يَتَجَاوَزُ التَّصْنِيفَ الشِّكْلَانِيَّ وَالْمَوْضُوعَاتِيَّ لِإِبْسَاطِ النَّشَاطِ الْمَعْرِفِيِّ فِي هَذَا النَّوعِ مِنَ الْخِطَابِ فِي تَجَادُبِهِ مَعَ الْآخِرِ أَحْيَانًا وَفِي ثَقُورِهِ مِنْهُ أحياناً آخَرَى. كَذَلِكَ يَجِبُ الْوَعْيُ بِقُدْرَةِ الذَّاتِ السَّارِدِ فِي هَذَا الْخِطَابِ عَلَى انْتِاجِ مَعْرِفَةٍ تَتَجَلَّى بِمَفَاهِيمِ جَدِيدَةٍ تُخْرِجُ بِالْفِكْرِ الْمَحَلِّيِّ عَنْ قَوْلِهِ الْجَاهِرَةِ وَأَتَسَاقَهُ الْمَعْيَارِيَّةَ.

لَا يُخْفَى الدَّورُ الْهَامُّ لِلسَّرْدِ الَّذِي يَلْوَرُ الرِّحْلَةَ بِشَكْلِ تَامٍ، فَاتِّسَاعُ الرِّقْعَةِ الْمَكَانِيَّةِ لِلرِّحْلَةِ بِوَصُولِ الْقِصَّةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَوْثِرَ فِي مَتَقَبَلِ النِّصِّ سَلْبًا أَوْ إِيْجَابًا، وَيَرْتَكِزُ السَّرْدُ عَلَى ثَلَاثَةِ عُنَاوِينَ أَسَاسِيَّةٍ هِيَ (الرَّوَايَةُ وَالرِّسَالَةُ وَالْمَتَقَبَلُ).

لِذَا يَطْمَحُ الْبَحْثُ إِلَى دِرَاسَةِ رِحْلَةِ (تُحْفَةِ النُّظَارِ فِي غَرَائِبِ الْأُمُصَارِ وَعَجَائِبِ الْأُسْفَارِ) لِابْنِ بَطُوْطَةَ فِي سِيَاقِ أَفْقٍ ثِقَافِيٍّ يَتَجَاوَزُ الْبُنْيَةَ وَالْوَصْفَ إِلَى التَّأْوِيلِ، أَيَّ تَأْوِيلِ التَّمْثِيلِ السَّرْدِيِّ فِي ضَوْءِ نَظَرِيَّةِ النَّقْدِ الثَّقَافِيِّ ؛ وَمَنْ ثُمَّ دِرَاسَةَ الْخِطَابِ السَّرْدِيِّ بِوَضْفِهِ مُغَامَرَةَ الذَّاتِ فِي الْإِسْتِكْشَافِ وَالْمَعْرِفَةِ. فَمِنْ خِلَالِ الْوَصْفِ وَالتَّمَثِيلَاتِ فِي الْمُدَوَّنَةِ لَا نَفْهَمُ الْآخِرَ فَقَطْ، إِنَّمَا نَتَعَرَّفُ عَلَى طَرِيقِهَا أَكْثَرَ عَلَى هُويَّةِ ذَاتِ ابْنِ بَطُوْطَةَ، لِنَسْتَطِيعَ إِدْرَاكَ السَّبَبِ وَالذَّافِعِ وَرَاءَ حَوْضِ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ الْعَظِيمَةِ

ثانياً- منطلقات البحث:

ينطلق البحث من خلال الآتي:

1- اعتبار مدونة ابن بطوطة وثيقة دالة على مرجعيات ثقافية وحضارية؛ ومن ثم دراسة

أثر هذه المرجعيات في تشكّل أدبيّة هذا الخطاب.

- 2- اعتبار مفاهيم: التمثيل، والهوية، والغيرية تشتغل في خطاب الرحلة على نحو خاص؛ ومن ثمة بحث فاعليتها في الكشف عن جملة من التمثيلات الذهنية الخاصة للذات المبدعة عن الأشياء خارج الخطاب، بما يؤدي بالدارس إلى فهم هذا العالم وتأويله على نحو خاص في الخطاب.
- 3- النظر في مدونة البحث بوصفها نظاماً إبداعياً ذا طابع استكشافي/ معرفي/ جمالي. تتداخل فيه أجناس أدبية متعددة لتشكيل المعنى.

ثالثاً- أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الآتي:

- 1- الكشف عن فكر ابن بطوطة ونفسيته من خلال بنية النص السردي وتركيبه وترتيب الأحداث، والانسجام بين كلماته وجمله ومعانيه، والطاقة التعبيرية الناجمة عن الألفاظ اللغوية.
- 2- الكشف عن الطابع الإشكالي لمفاهيم: التمثيل، والهوية، والغيرية، وآليات اشتغالها في رحلة: تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لابن بطوطة.
- 3- مناقشة الأبعاد الثقافية لمفهوم التمثيل وآليات اشتغاله في رحلة: تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لابن بطوطة.
- 4- مناقشة أشكال الهوية وتحولاتها في رحلة (تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لابن بطوطة.
- 5- تحليل أشكال التمثيل الأدبي للهوية والغيرية في رحلة: تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لابن بطوطة.
- 6- الكشف عن الأبعاد المعرفية والجمالية في رحلة: تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لابن بطوطة.

رابعاً- إشكالية البحث:

إن الناظر في مدونة ابن بطوطة يجد أنها تكشف عن إشكاليات كثيرة للمتلقي، وتثير فضولهُ وفي هذا البحث ظلت أسئلة حائرة تحاصرني، واستفهامات تقدح في ذهني، وإشكالات تستوقفني وأنا أغوص في أعماق هذه الدراسة، فجعلت منها منطلقاً في رحلة الكشف عن الجواب ذات الصلة

بهذا الشأن واستجلاء كل ما من شأنه قد يكون سبباً في عميّه الفكرة أو غموضها، وأهم تلك الإشكاليات هي:

1- ما الأبعاد المعرفيّة والجماليّة في رحلة: تحفة النُّظَار في غرائب الأمصار وعجائب

الأسفار) لابن بطوطة؟

2- ما المقصود بكل من المفاهيم الآتية (التمثيل، والهوية، والغيرية) وما آليات اشتغالها في

رحلة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار؟

3- ما الأبعاد الثقافيّة لمفهوم التمثيل وآليات اشتغاله في رحلة (تحفة النُّظَار في غرائب

الأمصار وعجائب الأسفار) لابن بطوطة؟

4- ما أشكال الهوية وتحولاتها في رحلة (تحفة النُّظَار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)

لابن بطوطة؟

5- ما أشكال التمثيل الأدبي للهويّة والغيريّة في رحلة (تحفة النُّظَار في غرائب الأمصار

وعجائب الأسفار) لابن بطوطة؟

6- هل تعد مدوّنة ابن بطوطة وثيقة دالة على مرجعيّات ثقافيّة وحضاريّة؟ وهل لهذه

المرجعيّات أثر في تشكّل أدبيّة هذا الخطاب؟

إلى غير ذلك من الأسئلة والأفكار التي نطمح الخوض فيها، اتكاءً على نص المدونة السردية

والذي جاء جاملاً لبعض هموم هذه الإشكالية.

خامساً- منهجية البحث:

اعتمدت في هذه الدراسة على مناهج بحثية متعددة؛ (مناهج البحث العلمي)، وذلك لأن طبيعة

البحث والدراسة تقتضي إتباع هذه المناهج، إذ اقتضت طبيعة هذه الدراسة تطبيق آليات إجرائية

تقوم على المنهج البنوي التكويني (الأنثروبولوجي) في استقراء واستقصاء صور الآخر انطلاقاً

من الأنا من منظور ابن بطوطة كما اعتمد الباحث على المنهج التحليلي السردية لرصد وتحليل

تمثيلات الهوية والغيرية في الرحلة. وكذلك الاستعانة بالمنهج الاستقرائي في بعض جوانب البحث.

سادساً- الدراسات السابقة:

أصبحت (تحفة النُّظَار في عجائب الأسفار) لابن بطوطة مَطْمَعاً للدراسة، فَوُجِدَتْ دِرَاسَاتٌ

كثيرة تطرقت لها بِمُسَمًى (أدب الرحلات) إلا أنَّ أغلب الدِّراسَاتِ - كانت دراسةً مُجْمَلَةً لِعِدِيدٍ مِنْ

الرِّحَالَتِ، وَقَدْ حَظِيَ ابن بطوطة باهتمام الكثير مِنْ البَاحِثِينَ . فالدراسات المطولة التي تتناول

"الرحلة " بالتحليل، اقتفى أصحابها آثار ابن بطوطة وتنقلاته في بلدان العالم القديم ووقفوا عند الكثير من الفوائد الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية شأن كل من الدكتور شاكر خصباك في كتابه "ابن بطوطة ورحلته" (1). والدكتور محمود الشرقاوي في مؤلفه " رحلة ابن بطوطة من طنجة إلى الصين والأندلس وإفريقيا (2).

فيما يلي بعض تلك الدراسات التي تناولها أصحابها منها ما تشابه جزئياً مع دراستي، ومنها ما اختلف عنها.

➤ الدراسة الأولى: كتاب (الحكايات العجيبة في رحلة ابن بطوطة) للدكتور حمادي المسعودي (3)

تناول هذا الكتاب جملة من المحاور -المقدمة وفيها التقديم للبحث من حيث البناء والمنهجية والتعريف بابن بطوطة ورحلته، وقسم الكتاب إلى خمسة فصول على النحو الآتي:

الفصل الأول تحدث فيه الكاتب عن الحكايات العجيبة في الرحلة أما الفصل الثاني ذكر فيه الكاتب هيكل الحكاية من حيث (الحجم والبنية والزمان والمكان والأشخاص).

أما الفصل الثالث فتناول فيه الكاتب الأسلوب والذي اشتمل على (السرود والوصف واللغة والصور البلاغية والخيال والواقع) وخصص الكاتب الفصل الرابع (الدلالات) وذكر فيها دلالة الحكاية العجيبة والبعد الاجتماعي والفكري، والطبيعة والثقافية، والبعد الحضاري. كما خصص الكاتب الفصل الخامس لمصادر الحكايات العجيبة وأصولها.

➤ الدراسة الثانية: كتاب (الذات والآخر في الخطاب الجغرافي العربي القديم) للدكتور لطفي دببش (4)

قد خلص في دراسته إلى الأسس التي بنى عليها الجغرافيون والرحالون خطابهم والتي تمثلت في -المملكة الموحدة- تكامل الإقليم، فكل إقليم خصائص، وما نقص في هذا الإقليم يوجد في إقليم آخر. وتبنت موضوعات الكتاب العناصر الآتية:

- بناء صور الآخر انطلاقاً من الذات. - ربط علاقات تجارية مع البلاد الأخرى.

1 - شاكر خصباك، ابن بطوطة ورحلته، مطبعة الآداب، النجف، العراق، 1971، ص297.

2 - محمود الشرقاوي، رحلة ابن بطوطة من طنجة إلى الصين والأندلس وإفريقيا، مطبعة الأنجلو المصرية 1968، ص410.

3 - 11- حمادي المسعودي، الحكايات العجيبة في رحلة ابن بطوطة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، تونس، 2001، ص119.

4 - لطفي دببش، الذات والآخر في الخطاب الجغرافي العربي القديم، حويلات المعهد العالي للغات بتونس، جامعة نوفمبر بقرطاج، عدد9، 2001م، ص8.

- الإحاطة بما وراء حدود المملكة الإسلامية، ضماناً لأمنها الداخلي في كل الظروف.

➤ الدراسة الثالثة: العجائبية في أدب الرحلات ⁽¹⁾ رسالة ماجستير للطالبة "علاوي الخامسة" جاءت الدراسة في مقدّمة ومدخل بعنوان (أدب الرحلات وإشكالية التجنيس) في ثلاثة فصول على النحو الآتي: الفصل الأول بعنوان الأدب العجائبي "مفاهيم نظرية" تم تقسيمه إلى عدة مباحث وهي (العجيب في المعاجم العربية، العجيب في المعاجم الفرنسية، والعجيب في التراث العربي العجائبي في الثقافة الغربية). أمّا الفصل الثاني بعنوان العجائبية في أدب الرحلات، وقد تناول المباحث التالية (تمظهرت العجائبي في النصوص الدراسية القديمة، البنية السردية في أدب الرحلات). وكان الفصل الثالث بعنوان العجائبية في رحلة ابن فضلان وقد اشتمل على المباحث التالية (الرحلة والرحالة، خصائص عصر الرحالة ودواعي السرد العجائبيين الدراسة التحليلية لرحلة ابن فضلان (الوصف العجائبي من وظائف السرد العجائبي) ثم الخاتمة والنتائج.

➤ الدراسة الرابعة: الأنا والآخر في أدب الرحالة ⁽²⁾ - مكي سعد الله-

اشتملت الرسالة على مقدمة ومدخل تمهيدي وأربعة فصول على النحو الآتي: الفصل الأول بعنوان: الرحلة-جدلية المفهوم والتجنيس وآليات الكتابة. الفصل الثاني جاء تحت عنوان: الآخر في مرآة العمران والنقدية. أمّا الفصل الثالث فكان بعنوان: الآخر في مرآة الآداب والفنون. والفصل الرابع والأخير جاء بعنوان: صورة الآخر في مرآة الغيرية. ثم ختمت الرسالة بجملة من النتائج.

➤ الدراسة الخامسة بعنوان "الآخر في أدب الرحلة من القرن الثالث حتى القرن الثامن" ⁽³⁾

رسالة دكتوراه للباحث وائل بن يوسف العريني.

اشتملت الرسالة على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول كل فصل يتكون من عدة مباحث على النحو الآتي: الفصل الأول: بعنوان "حضور الآخر في النقد السياسي، والفصل الثاني: حضور الآخر في النقد الاجتماعي، والفصل الثالث: حضور الآخر في النقد الأدبي، الفصل الرابع: أثر الآخر في الأنا، الفصل الخامس: وجهات النظر من خلال حضور الآخر ثم الخاتمة العامة:

¹ - علاوي الخامسة، العجائبية في أدب الرحلات، رسالة ماجستير جامعة منثوري-قسنطينية -الجزائر 2005،

² - مكي سعد الله: الأنا والآخر في أدب الرحالة. رسالة دكتوراه. جامعة باتنة -الجزائر 2017م.

³ - وائل بن يوسف العريني، الآخر في أدب الرحلة من القرن الثالث حتى القرن الثامن، رسالة دكتوراه جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية -المملكة العربية السعودية 1439هـ-2017م.

➤ الدراسة السادسة بعنوان "الأنا والآخر في رحلة ابن بطوطة" ⁽¹⁾، رسالة ماجستير

للباحث (على حسين عبد الرحمن المد واسي).

اشتملت خطة الدراسة على: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة

- الفصل الأول: وقد تناول فيه الباحث السرد والوصف في رحلة ابن بطوطة. الفصل الثاني وقد تحدث فيه بدايته عن مفهوم ودلالة الأنا والآخر بنوعيهما الفردي والجمعي، ثم تناول المقارنة والموازنة بين أنا (الرحالة ابن بطوطة)، والآخر المختلف حسب مدونته. أما الفصل الثالث تناول فيه الباحث المقارنة والموازنة بين أنا الرحالة ابن بطوطة، والآخر المختلف حسب مدونته.

➤ استفاد الباحث من هذه الدراسات والرسائل منهجياً وتفيد البحث بصورة جزئية في أفكار

محددة، ومن هذا المنطلق سيكون الجهد مكثفاً لبيان تمثيلات الهوية والغيرية في (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لابن بطوطة مقارنة سردية ثقافية وذلك بحسب هيكل البحث وتقسيماته.

➤ من الملاحظ أن معظم الدراسات الأكاديمية في الجامعات العربية تتجاهل حركة المفاهيم

في قراءة الخطاب الإبداعي . وهذا التجاهل طمس كثيراً من معالم الخطاب الإبداعي العربي أو المدونة العربية.

¹ - على حسين عبد الرحمن المدواسي، الأنا والآخر في رحلة ابن بطوطة، رسالة ماجستير. جامعة ام القرى المملكة العربية ال سعودية 1438-2018م،

-محتوى الدراسة:

تتطلق هذه الدراسة من مقارنة سردية ثقافية للتعرف إلى تمثيلات الهوية والغيرية في سياقتها المعرفية، والتطورات التي طرأت عليها نتيجة ارتحالها من مجال معرفي إلى آخر، أو بفعل حركة العقل الإنساني في خطاب رحلة ابن بطوطة.

فالبحث موجه لدراسة أدبية خطاب الرحلة في رحلة: تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة. والبحث عن عناصر السرد الأدبي في المدونة. وذلك من خلال المبحث التمهيدي والذي يذكر فيه الباحث على مدخل المفاهيم المركزية في الدراسة والفصل الأول. أما تمثيلات الهوية في رحلة: تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة دراسة في آليات تشكّل المعنى والدلالة. أبحث في هذا الفصل عن الهوية بوصفها موضوعاً أدبياً نستطيع من خلاله فهم العوالم الجديدة التي يكشف عنها الخطاب).

أما الفصل الثالث أقوم فيه بدراسة آليات تشكّل المعنى والدلالة وذلك من خلال تمثيلات الغيرية في رحلة: تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة.

المبحث التمهيدي

مدخل المفاهيم المركزيّة في الدراسة والوعي بتحوّلاتها المعرفية

اهتمَّ الفلاسفةُ بِدِرَاسَةِ المَفاهِيمِ لَمَّا لَهَا مِنْ أَثَرٍ بَالِغٍ فِي فَهْمِ الوجودِ وَالوَعْيِ بِحَرَكَةِ العَقلِ الإنسانيِّ، حَيْثُ طَوَّرَتِ مَدْرَسَةُ فِرَانْكَفُورْتِ مَفْهُومَ التَّوَاصُلِ (Hermath) كَمَا طَوَّرَتِ أَيْضًا مَفْهُومَ العُنْفِ الرَّمْزِيِّ وَطَوَّرَتِ المَناهِدَ النَّصِيَّةَ مَفْهُومَ النَّسَقِ وَحَلَّ مَحَلَّ المُوَلِّفِ فِي المَناهِجِ. تُعَدُّ رِخْلَةُ ابْنِ بَطُوطَةَ " تُخْفَةُ النُّظَّارِ فِي غَرَائِبِ الأُمُصَارِ وَعَجَائِبِ الأَسْفَارِ " مُدَوَّنَةً سَرْدِيَّةً كُتِبَتْ مِنْ سَرَدِيَّاتِ الرِّخْلَةِ العَرَبِيَّةِ الإِسْلامِيَّةِ ؛ وَهِيَ مُدَوَّنَةٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَتَجَاوَزَ تَحْلِيلَهَا ثَقَافِيًّا نَظْرًا لِمَا تَقَدَّمَهُ هَذِهِ الرِّخْلَةُ الاسْتِثْنَائِيَّةُ مِنْ تَمَثُّلَاتٍ ثَقَافِيَّةٍ لِلهُوِيَّةِ وَالغَيْرِيَّةِ . وَهِيَ تَمَثُّلَاتٌ تَنْدَرِجُ فِي خِطَابِ هَذِهِ الرِّخْلَةِ السَّرْدِيِّ وَالثَّقَافِيِّ . وَسَنَقِفُ فِي هَذَا المُنَبِّحِ التَّمْهِيدِيِّ عِنْدَ المَفاهِيمِ المَرَكِّزِيَّةِ التَّأْسِيسِيَّةِ لِهَذِهِ الدِّرَاسَةِ وَهِيَ : " التَّمَثُّلَاتُ الثَّقَافِيَّةُ " و " الهُوِيَّةُ " و " الغَيْرِيَّةُ " .

مَفْهُومُ التَّمَثُّلِ ((Representation)) :

يَعْنِي التَّمَثُّلُ بِأَنَّهُ تِلْكَ المَعَارِفُ العَامِيَّةُ العَادِيَّةُ الَّتِي يَكْتَسِبُهَا الفَرْدُ، وَهُوَ يَتَكَيَّفُ مَعَ الطَّبِيعَةِ وَيَتَأَقْلَمُ مَعَهَا لِلتَّعَلُّمِ مِنْهَا. وَمِنْ هَذَا المُنْطَلَقِ نُعْرِجُ إِلَى التَّعْرِيفِ اللُّغَوِيِّ وَالِإِصْطِلَاحِيِّ. التَّمَثُّلُ لُغَةً: تَمَثُّلٌ أَوْ نَصُورُ الشَّيْءِ: تَوَهَّمُ صُورَتَهُ وَتَحْيَلُهُ وَاسْتَحْضَرَهُ فِي ذَهْنِهِ. لَقَدْ أَوْرَدَ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي لِسَانِ العَرَبِ تَعْرِيفَ المِثْلِ بِقَوْلِهِ المِثْلُ: " الشَّبَهُ يُقَالُ مِثْلٌ وَمِثْلٌ وَشَبَهُ وَشَبَهُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ.

كَمَا نَعْلَمُ أَنَّ التَّمَثُّلَ يَعُدُّ مِنَ المَفاهِيمِ الَّتِي يَصْغُبُ تَحْدِيدُهَا نَظْرًا لِإِشْتِرَاكِ فُرُوعِ مَعْرِفِيَّةٍ كَثِيرَةٍ فِيهِ، وَقَدْ شَاعَ اسْتِخْدَامُهُ فِي عَصْرِنَا فِي مَجَالِ الفُنُونِ التَّشْكِيلِيَّةِ وَالدِّرَامِيَّةِ ، وَلَكِنَّ لِمُصْطَلَحِ التَّمَثُّلِ بَاعًا طَوِيلًا فِي الدِّرَاسَاتِ الأدبية والنقدية ، فَقَدْ تَنَاقَلَتِ الفلاسفةُ وَدَارِسُو الأَدَبِ مِنْذُ القَدِيمِ فَالتَّمَثُّلِ الأَدَبِيِّ يُصَاغُ وَفُقُ ثَنَائِيَّةِ الأَدَبِ وَالوَقَاعِ (طَبِيعِيًّا ، وَحَسِيًّا ، وَرَمْزِيًّا) وَرِخْلَةُ ابْنِ بَطُوطَةَ مَلِيبَةً بِالتَّمَثُّلَاتِ الأدبية وَمِنْ هُنَا يُمَكِّنُنَا تَوْضِيحُ مَفْهُومِ التَّمَثُّلِ عِنْدَ الأَدبَاءِ وَالمُفَكِّرِينَ عَلَى النُّحُوِّ الآتِي. يُعَدُّ التَّمَثُّلُ (representation) بِالنِّسْبَةِ لِلدِّرَاسَاتِ الثَّقَافِيَّةِ أَثَرًا تَمَثُّلِيًّا لِلوَقَاعِ وَلَيْسَ مُجَرَّدَ انْعِكَاسٍ فِي شَكْلِ رَمْزِيٍّ لِأَشْيَاءِ الوَقَاعِ ؛ إِذْ تَتَجَلَّى سُلْطَةُ التَّمَثُّلِ فِي تَمَكِّينِ بَعْضِ أَنْوَاعِ المَعْرِفَةِ مِنَ التَّوَالُجِدِ مَعَ اسْتِتْبَاعِ طُرُقٍ أُخْرَى مِنَ التَّفْكِيرِ ، فَعَلَى سَبِيلِ المِثَالِ هُوِيَّةُ الرَّجُلِ الأَسْوَدِ لَا تَعَكِّسُ بِالصَّرُورَةِ حَالَهُ جَوْهَرِيَّةً لِلوجودِ وَإِنَّمَا حَالَهُ مُمَثَّلَةً وَمَقْرُوءَةً (1)

1- كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، بتصرف، ترجمة جمال بلقاسم، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1-2018، ص131.

فَالْتَمَثِيلُ لَيْسَ إِنْعِكَاسًا مُحَايِدًا لِلْوَاقِعِ، بَلْ هُوَ إِنْشَاءٌ ثَقَافِيٌّ تُخَالِفُ مَا قَدْ يَبْدُو لَنَا، وَتَتَجَلَّى سُلْطَةُ التَّمَثِيلِ فِي تَمَكُّنِ بَعْضِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْمَعْرِفَةِ مِنَ التَّوَاجُدِ مَعَ اسْتِبْعَادِ طُرُقٍ أُخْرَى مِنَ التَّفْكِيرِ.⁽¹⁾

لَقَدْ اُخْتَلَفَ مَفْهُومُ التَّمَثِيلِ بَيْنَ الْفَلَسَفَةِ حَيْثُ يَعِدُّ أَرِسْطُو وَسِيلَةً لِلِاسْتِزْلَالِ وَكَثِيرًا مَا اعْتَبَرَهُ وَسِيلَةً لِلْبُرْهَانِ وَقَدْ تَطَوَّرَتْ نَظَرِيَّةُ التَّمَثِيلِ عِنْدَ (تُومَاسِ الْإِكُوِينِي) الَّذِي تَتَّأَوَّلُ مَفْهُومُ التَّمَثِيلِ فِي سِيَاقِ اعْتِمَادِهِ عَلَى اللُّغَةِ الدِّيْنِيَّةِ، وَهِيَ لُغَةُ الْمَجَازِ وَلَيْسَتْ الْحَقِيقَةُ.

بِمَعْنَى أَنَّ الْكَلِمَاتِ الدِّيْنِيَّةِ تَحْمِلُ مَعَانِيًا غَيْرَ الْمُعْتَادَةِ فِي اللُّغَةِ السَّادَةِ (فَكَلِمَةُ الْخَيْرِ عِنْدَ اللَّهِ غَيْرَهَا عِنْدَ الْبَشَرِ)، وَعَلَى هَذَا فَإِنَّ مَبْدَأَ التَّمَثِيلِ - فِي فَلْسَفَةِ تُوْمَا الْإِكُوِينِي - لَا يُوَصِّلُنَا إِلَى الْمَعْرِفَةِ الْحَقِيقِيَّةِ لِلصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، لَكِنَّهُ فَقَطْ يُشِيرُ إِلَى الْعَلَاَقَةِ بَيْنَ الْمَعَانِي الْمُخْتَلَفَةِ، وَعَلِيَّةَ فَالْتَّمَثِيلِ عِنْدَهُ لَيْسَ أَدَاةٌ بَحْثٍ أَوْ اسْتِكْشَافٍ، بَلْ هُوَ تَفْسِيرٌ لِلطَّرِيقَةِ الَّتِي تَسْتَعْمِلُ فِيهَا التَّعْبِيرَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْإِلَهِ. فَاسْتُخْدِمَ ثَلَاثَةُ أَنْمَاطٍ لِلتَّمَثِيلِ وَمِنْهَا الَّذِي يَسْتَجِيبُ لِبَنَةِ رِيَاضِيَّةٍ مُنْطَقِيَّةٍ، أَمَّا (كَانُط) فَقَدْ جَعَلَ لِلتَّمَثِيلِ مَكَانَةً مُتَمَيِّزَةً، فَيَرَى أَنَّهُ مِنَ الْإِسْتِزْلَالَاتِ الَّتِي لَا تُوصِّلُ إِلَّا إِلَى تَحْمِينَاتٍ وَلَكِنَّهَا ضَرُورِيَّةٌ لِتَوْسِيعِ نِطَاقِ مَعْرِفَتِنَا، وَقَدْ لَجَأَ أَفْلَاطُونُ إِلَى الْأَنْمُودَجِ (التَّمَثِيلِ) فِي مُحَاوَرَاتِهِ وَأُسْنِدُ إِلَيْهِ دَوْرًا مَهْمًا فِي دِرَاسَةِ الْوَاقِعِ وَفَهْمِهِ.⁽²⁾

فَالْمِثَالُ : أَوِ الْأَنْمُودَجِ هُوَ حَدَثٌ وَاقِعِيٌّ أَوْ خَيَالِيٌّ يَسْمَحُ لِصَاحِبِهِ بِالِاسْتِزْلَالِ عَنْ طَرِيقِ التَّمَثِيلِ وَيَرَى أَفْلَاطُونُ أَنَّنَا نَلْجَأُ إِلَى التَّمَثِيلِ عِنْدَمَا نُرِيدُ أَنْ نَفْهَمَ شَيْئًا مِنْ أَشْيَاءِ الْوَاقِعِ⁽³⁾

وَالْتَّمَثِيلُ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ أَرِسْطُو : "يَهْتَمُّ بِتَنْظِيمِ الْأَفْعَالِ، فَهُوَ لَيْسَ نُسخَةً مِنَ الْوَاقِعِ وَلَا تَقْلِيدًا لَهُ بَلْ هُوَ إِعَادَةٌ عَرْضٍ، وَبِالضَّرُورَةِ تَغْيِيرٌ وَتَحْوِيلٌ، إِنَّهُ مَسْخُ يُنْقَلُ الْأَشْيَاءُ مِنَ طَبِيعَةِ الْعَالَمِ الْمَادِّيِّ إِلَى الطَّبِيعَةِ اللَّامَادِيَّةِ لِلْكَلِمَاتِ".⁽⁴⁾

وَلَقَدْ أَكَّدَ سْتِيوارْت هُول (Stuart Hall) أَنَّ سِيَاسَاتِ التَّمَثِيلِ يَجِبُ أَنْ تَسْجُلَ اعْتِبَاطِيَّةَ الدَّلَالَةِ وَتُولِّدَ الرِّغْبَةَ فِي الْعَيْشِ تَحْتَ ظِلِّ الْإِخْتِلَافِ.⁽⁵⁾

وَلَا أَرَى أَنَّ التَّمَثِيلَ يُمَثِّلُ اعْتِبَاطِيَّةَ الدَّلَالَةِ بَلْ، إِنَّ الدَّلَالَاتِ تَنْشَأُ نَتِيجَةً لِهَذَا التَّمَثِيلِ، أَمَّا أَنَّ الرِّغْبَةَ فِي الْعَيْشِ تُولَّدُ تَحْتَ ظِلِّ الْإِخْتِلَافِ فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ السَّبَبُ الْوَحِيدُ بَلْ إِنَّ

¹ - المرجع نفسه، ص 131 .

² - الطاهر عزيز، المناهج الفلسفية، المركز الثقافي العربي، بيروت ط1، 1990 من ص 48 : 53.

³ - كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، نفس المرجع السابق، ص 54

⁴ - أرسطو، فن الشعر، ترجمة وتعليق وتقديم د. إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو المصرية - ط1، القاهرة 1982،

ص 62.

⁵ - كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، المرجع السابق ص 132

الرَّغْبَةُ فِي الْعَيْشِ فَطَرِيَّةٌ فَأَلْأَنْسَانَ بِطَبْعِهِ إِجْتِمَاعِي يُمِيلُ إِلَى التَّأَلُّفِ وَالْإِجْتِمَاعِ سَوَاءً كَانَ هَذَا
الْإِجْتِمَاعُ ذَا اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ كَمَا فِي الْمَجْتَمَعَاتِ الْمُعَلَّقَةِ ، أَوْ ذَاتُ اتِّجَاهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَمُتَنَوِّعَةٍ كَمَا هُوَ
فِي مُعْظَمِ السِّيَاقَاتِ الْمُنْفَتِحَةِ .

أما التَّمثِيلُ عِنْدَ مِيْشال فوكو (Mache Foucault) فَقَدْ اِزْتَبَطَ بِالتَّشَابُه، وَالْإِشَارَةِ، وَمَعَهُمَا
تَتَعَقَّدُ عِلَاقَاتٌ جَدِيدَةٌ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ. فَالْخِطَابُ الْإِنْدَاعِيُّ يُحوِّلُ الْوَاقِعَ إِلَى إِشَارَاتٍ لُغَوِيَّةٍ، وَهِيَ أَشَارَاتٌ
نَائِمَةٌ تَحْتَاجُ مَنْ يُوقِظُهَا. لَكِنَّ هُنَاكَ مِلَاحِظَةً يَجِبُ وَضْعُهَا فِي الْإِعْتِبَارِ أَنَّهُ تَتَاوَلُ مَفْهُومُ التَّمثِيلِ
فِي الْعَصْرِ الْكِلَاسِيكِيِّ فَقَطُ. (1)

ويرى نادر كاظم أَنَّ الْحَضَارَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ " لَمَّا كَانَتْ فِي الْمَاضِي قُوَّةً وَتَمْتَلِكُ عَنَاصِرَ
الْقُوَّةِ وَالْهَيْمَنَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَالْثَّقَافِيَّةِ اتَّسَعَ حُجْمُ تَمَثِيلِهَا الْآخِرِ، وَيُظْهَرُ ذَلِكَ وَاضِحًا مِنْ جُمْلَةٍ مَا كُتِبَ
عَنْهُمْ مِنْ طَرَفِ الرَّحَالَةِ وَالْمُنْجَمِينَ وَالرُّوَاةِ وَالشُّعْرَاءِ مِنْ أَجْلِ إِثْبَاتِ الصُّورَةِ الَّتِي وَضَعَتْهَا لِلآخِرِينَ
وَمُدَى تَرْسِيخِهَا " (2)

إِنَّ تَمَثِيلَ الْآخِرِ يَتَشَكَّلُ نَتِيجَةً مُرَاقِبَةً وَمُعَيَّنَةً الْآخِرِ؛ وَذَلِكَ لِإِنْتِاجِ مَعْرِفَةٍ عَنْ هَذَا الْآخِرِ
وَكَيْفُونَتِهِ وَهُوِيَّتِهِ، وَذَلِكَ بِنَاءً عَلَى مُعْطِيَّاتٍ وَاقِعِيَّةٍ، وَقَدْ يَكُونُ كَذَلِكَ وَفْقَ مَعَايِيرَ خَاصَّةٍ تَتَّبِعُ مِنْ
إِعْتِقَادٍ أَوْ فِكْرٍ الطَّرْفِ الْمُقَابِلِ لِلْآخِرِ (الْأَنَا). (3)

- التَّمثِيلَاتُ الثَّقَافِيَّةُ : cultural Representations .

تَدُورُ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ حَوْلَ مُصْطَلَحِ (التَّمثِيلَاتُ الْعَرَبِيَّةُ الثَّقَافِيَّةُ) لِلْغَيْرِ عِنْدَ ابْنِ بَطُوطَةَ إِذْ تُعَدُّ
الرَّحْلَةُ مَادَّةً خَصَبَةً لِاسْتِنْبَاطِهَا ، وَلَا سِيَّما أَنَّ أَدَبَ الرُّحَلَاتِ يَرْخُرُ بِكَثِيرٍ مِنْ هَذِهِ التَّمثِيلَاتِ الثَّقَافِيَّةِ
الَّتِي تُعَدُّ الِهْدَفَ الْأَسَاسِيَّ لِهَذِهِ الدِّرَاسَةِ .

فَالْتَمَثِيلَاتُ لُغَةً: (مَثَل) بِفُلَانٍ (التَّشْدِيدُ لِلْمُبَالَغَةِ)؛ فَالْتَمَثِيلَاتُ لُغَةً: (مَثَل) بِفُلَانٍ (التَّشْدِيدُ
لِلْمُبَالَغَةِ)؛ فَبِاللِّسَانِ لِابْنِ مَنْطُورٍ: " وَيَكُونُ تَمَثِيلُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ تَشْبِيْهًُا بِهِ وَاسْمٌ ذَلِكَ الْمَثَلُ

1- ميشال فوكو: الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع الصفدي وآخرون، مركز الإنماء القومي، بيروت 1990 م .
ص 83-113.

2- نادر كاظم، تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، بيروت، 2004م، ص 59.

3- . أدريس الخضراوي، المتخيل والتمثيل الثقافي للآخر، قراءة في كتاب تمثيلات الآخر، مجلة العلوم الإنسانية
عدد 12، الدار البيضاء 2006. ص 350.

تَمَثَّالٌ وَأَمَّا التَّمَثَالُ بِفَتْحِ التَّاءِ فَهُوَ مَصْدَرٌ مَثَّلَتْ تَمَثِيلًا وَتَمَثَالًا وَيُقَالُ إِمْتَثَلْتُ مِثَالًا فَلَانٌ إِحْتَدَيْتِ حَدْوَهُ وَسَلَكْتَلِ طَرِيقَتَهُ ابْنُ سَيِّدِهِ وَإِمْتَثَلْتُ طَرِيقَتَهُ تَبِعَهَا فَلَمْ يَعْذُهَا وَمَثَلُ الشَّيْءِ يَمَثُلُ مَثُولًا⁽¹⁾.

وَفِي الْوَسِيطِ قَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ أَنَّ: "الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ تَمَثِيلًا وَتَمَثَالًا شَبَهَهُ بِهِ وَقَدَرَهُ عَلَى قَدَرِهِ وَ - الشَّيْءُ لِفُلَانٍ صَوْرُهُ لَهُ بِكِتَابَةٍ أَوْ غَيْرِهَا حَتَّى كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ⁽²⁾ فَالتَّمَثِيلُ يَمْنَحُ الْأَشْيَاءَ وَالْمُمَارِسَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْمَعْنَى وَالْوُضُوحَ ، فَعَمَلِيَّةُ التَّمَثِيلِ هِيَ الَّتِي تُعْطِي لِلْمُمَارِسَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمَعْرِى وَالذَّلَالَةَ . وَيَعْنِي عِنْدَ مَعْرِفَةِ الْغَيْرِ ((إِبْجَادُ الصِّفِّ أَوْ الْفَتْةِ أَوْ النَّوْعِ أَوْ الْجِنْسِ أَوْ التَّشْكِيلَةِ الَّتِي يَنْتَسِبُ إِلَيْهَا أَوْ إِلَيْهِ الْمَوْضُوعِ الْمُمَثَّلِ وَإِقَامَةِ الْبُرْهَانِ عَلَى وُجُودِ الْمُمَثَّلَةِ الَّتِي ادَّعَيْتَاهَا))⁽³⁾.
إِنَّ التَّمَثِيلَ هُوَ إِعْطَاءُ صُورَةٍ كَامِلَةٍ حَوْلَ الْمَوْضُوعِ ، لِشُعْرٍ وَكَأَنَّهُ مُتَمَثِّلٌ أَمَامَنَا بِجَمِيعِ تَفَاصِيلِهِ ، فَيُمْكِنُ أَنْ نَتَخَيَّلَهُ وَاقِعًا مِنْ خِلَالِ مَا نَقْرَأُ عَنْهُ فَقَدْ ذَكَرَ (إِنَّ خُطَابَ التَّمَثِيلِ وَفَقًا لِيَوَّلَ ريكور Paul Ricoeur) ((إِنَّمَا يَتَوَصَّلُ إِلَى إِقْنَاعِ الْمُتَمَثِّلِينَ بِدُونِ تَهْمٍ وَإِبْهَامِ الذَّاتِ بِتَقْوَقِهَا))⁽⁴⁾

وَيُوصَفُ مُصْطَلَحُ (التَّمَثِيلِ) بِأَنَّهُ عَمَلِيَّةٌ تَتَطَلَّبُ ثِقَةً الذَّاتِ حَتَّى تَتِمَّكَ مِنَ التَّعْبِيرِ عَنِ الْآخَرِينَ مُنْطَلَقَةً مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرِهَا الْخَاصَّةِ وَمِنْ مُنْطَلَقَاتِهَا (الْعَقَائِدِيَّةُ - الدِّينِيَّةُ - الثَّقَافِيَّةُ) فَالتَّمَثِيلُ يَنْطَلِقُ عَادَةً مِنْ قُوَّةِ الذَّاتِ وَتَقْنَتِهَا بِنَفْسِهَا، لِتَجِدَ أَنَّهَا بِكُلِّ سُهولةٍ قَادِرَةٌ عَلَى تَمَثِيلِ الْآخَرِينَ، لِذَا يَصِفُ د. إدريس الخضراوي هَذِهِ الْعَمَلِيَّةَ: (تَمَثِيلُ الْآخَرِينَ لَيْسَتْ عَمَلِيَّةٌ بَرِيئَةٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ فِعْلٌ مَسْكُونٌ بِرَغْبَةٍ كَبِيرَةٍ فِي التَّعْرِفِ عَلَى هَؤُلَاءِ الْآخَرِينَ مِنْ أَجْلِ الْهَيْمَنَةِ عَلَيْهِمْ وَإِخْصَاعِهِمْ)⁽⁵⁾.

لَقَدْ أَرْدَاهُ أَدَبُ الرُّحُلَاتِ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى حَتَّى صَارَ أَرْضًا خَصْبَةً لِدِرَاسَةِ التَّمَثِيلَاتِ الثَّقَافِيَّةِ، لِأَنَّ الذَّاتَ عِنْدَمَا خَرَجَتْ مِنْ نِطَاقِهَا لِتَتَعَرَّفَ عَلَى الْغَيْرِ، حَاوَلَتْ نَقْلَ صُورَتِهِ كَمَا شَاهَدَتْهُ عَيْنُهَا، وَمِثْلَتُهُ كَمَا انْطَلَقَتْ مِنْهُ رُؤْيَتُهَا، وَلَئِنْ ابْنُ بَطُوطَةَ تَنَقَّلَ بَيْنَ فُضَاءَاتٍ مَكَانِيَّةٍ وَاسِعَةٍ ، فَإِنَّ رِخْلَتَهُ تَزْخَرُ بِهَذِهِ التَّمَثِيلَاتِ . كَمَا تُعَدُّ الْكِتَابَةُ مِنْ أَهَمِّ وَسَائِلِ التَّمَثِيلِ⁽⁶⁾

1- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، معجم لسان العرب، دار صادر، بيروت 2011، ص 610.

2- إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، وآخرون، المعجم الوسيط، الناشر مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية القاهرة، 2004، ص. 853.

3- ريمون كاربانتنيه، معرفة الغير، ترجمة نسيم نصر، منشورات عويدان، بيروت. 1987، ص 87.

4- نادر كاظم، تمثيلات الآخر المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2009، ص 176

5- إدريس خضراوي، المتخيل والتمثيل للآخر قراءة في كتاب تمثيلات الآخر، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 12 2006، ص 350.

6- أسماء أبوبكر محمد، كتاب الرجل والرحالة، ط 1 ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، 1992م. ص 38.

وَتَتَفَاوَتْ التَّمَثِيلَاتُ الثَّقَافِيَّةُ فِي نَقْلِ النِّقَاصِيلِ ف (لِتَمَثِيلِ بِالْخَبَرِ السَّرْدِيِّ دَرَجَاتُهُ فَالْحِكَايَةُ يُمَكِّنُهَا أَنْ تُزَوِّدَ الْقَارِئَ بِمَا قَلَّ أَوْ جَلَّ مِنَ النِّقَاصِيلِ) وَيَعُودُ ذَلِكَ إِلَى دِقَّةِ الْعِبَارَاتِ وَدِقَّةِ الْوَصْفِ وَطَرِيقَةِ الْتِقَاطِ الصُّورَةِ وَالتَّعْبِيرِ عَنْهَا .

وَالْحَدِيثُ يَنْقُلُنَا لِتَتَأَوَّلَ مُصْطَلَحٍ آخَرَ اسْتُخْدِمَ بِنَفْسِ الْمَعْنَى وَهُوَ (عِلْمُ الصُّورَةِ) **pictur flag** حَيْثُ تَرَدَّدَ كَثِيرًا هَذَا الْمُصْطَلَحُ " الَّذِي مَا فَتَى يَتَوَسَّعُ وَيَخْتَرِقُ عِدَّةَ حُقُولٍ مُكْتَشِفًا قُدْرَتَهُ عَلَى خَلْقِ أَشْكَالٍ مِنَ التَّوَاصُلِ " (1) ، فَالصُّورَةُ فِي النَّصِّ الرَّحْلِيِّ : هِيَ (اِكْتِشَافُ الْآخِرِ) ، وَأَهْدَافُهَا الْتِقَاطُ عَنَاصِرٍ عِدَّةٍ مِنَ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ حَوْلَ الدَّاتِ وَتَقَاعِلِهَا ، فَالرَّأْيُ فِي رِحْلَتِهِ يُمَاتِلُ الْمُصَوِّرَ الْعَصْرَ الرَّاهِنَ ((فَكَلَّمَا قَطَعَ الرَّحَالَةَ مِنَ الْمَرَاجِلِ انْتَقَطَتِ الذَّاكِرَةُ عَبْرَ الْحَوَاسِ مَجْمُوعَةً مِنَ الصُّورِ وَالْوَقَائِعِ)) (2) ، فَهُوَ مُلْتَقِطٌ لِهَذِهِ الْأَوْصَافِ ، فَيَقْدِمُ لَنَا صُورَةً شَامِلَةً بِتَفَاصِيلِهَا عَنِ الْآخِرِ ، وَهَذِهِ الصُّورَةُ (تَعْمَلُ عَلَى تَوْجِيهِهِ وَتَأْثِيرِ التَّمَثِيلَاتِ لِلصُّورَةِ الَّتِي تَرْتَبِطُ سَوَاءً بِالدَّاتِ وَالْآخِرِ) (3) ، وَهَذِهِ الصُّورَةُ تَتَشَكَّلُ وَفْقَ خَلْفِيَةِ الرَّحَالَةِ ، يَلْتَقِطُهَا بِحَسَبِ الزَّائِيَةِ الَّتِي يَنْظُرُ إِلَيْهَا مِنْ مَنْظُورٍ (دِينِيٍّ / عِلْمِيٍّ / مُعْرِفِيٍّ) ، يَلْتَقِطُهَا بِحَسَبِ مَا يَرَاهُ ، بِحَسَبِ مَا يَرَاهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُنْقَلَ ، أَوْ مَا يَعْكُسُ حَالَتَهُ الْاِنْثِقَالِيَّةِ (الْوُجْدَانِيَّةِ) (4) أَوْ مَا يَشِدُّهُ مِنْ عَجَائِبِ وَغَرَائِبِ .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ صُورَةِ الْآخِرِ وَتَمَثِيلَاتِ الْآخِرِ أَنَّ الصُّورَةَ هِيَ الْتِقَاطُ خَارِجِيٍّ لِلْغَيْرِ ، أَمَّا تَمَثِيلَاتُ الْآخِرِ فَهُوَ الدُّخُولُ الْعَمِيقُ لَهُ وَتَمَثِيلُهُ مِنْ نَاحِيَةِ ثَقَافَتِهِ وَأَنْطِبَاعَاتِهِ وَعَادَاتِهِ وَتَقَالِيدِهِ ، وَهَذَا يُمَكِّنُ تَمَثِيلَهُ مِنْ خِلَالِ الْإِخْتِكَافِ بِهِ وَنَقْلِ الْحَوَارَاتِ وَالْقَصَصِ عَنْهُ . إِذَا بِالْمَنْهَجِ الثَّقَافِيِّ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَصِلَ إِلَى عُمُقِ التَّمَثِيلَاتِ الثَّقَافِيَّةِ الَّتِي ضَجَّتْ بِهَا الرِّحْلَةُ وَتَشَكَّلَ الصُّورَةُ الْمُتَكَامِلَةُ الشَّامِلَةُ بِتَفَاصِيلِهَا الدَّقِيقَةِ حَوْلَ مُخْتَلَفِ هَذِهِ الْجَوَانِبِ الْفِكْرِيَّةِ (الْمَعْرِفِيَّةِ / الدِّينِيَّةِ) لِصُورَةِ الْآخِرِ فِي الْقُرُونِ الْوُسْطَى " فَإِنَّ بَطُوطَةَ لَهُ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ فِي الْتِقَاطِ صُورَتِهِ ، فَقَدْ أَسَّسَ لِهَذَا الْجَانِبِ ، وَتَعَدُّ رِحْلَتَهُ مَرْجَعًا لِهَذِهِ الْقُرُونِ " .

1- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي (التجنس. آليات الكتابة. الخطاب المتخيل)، الطبعة الأولى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة 2006، ص 327.

2- نفس المرجع ، ص 282.

3- سعيد جبار، خطاب الرحلة (الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة)، الطبعة الأولى، رؤية للنشر والتوزيع القاهرة 2017، ص 39.

4- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، نفس المرجع السابق، ص 283.

إِنَّ الرَّحَالَةَ أَرَادُوا أَنْ يُعْبَرُوا عَنْ تَجَرِبَتِهِمْ مِنْ زَاوِيَةٍ ((تَكُونِ الصُّورَةُ))، وَذَلِكَ أَيْضًا شَأْنُ
 الْمَصُورِ الْفُوتُوغَرَفِيِّ فِي التَّقَاطُ صُورَةً لِلْأَشْيَاءِ وَعَلَى نَحْوِ مَا هِيَ عَلَيْهِ تَمَامًا.⁽¹⁾
 وَعِنْدَمَا تَنْطَلِقُ ذَاتُ الرَّحَالَةِ ، وَقَبْلَ الْإِحْتِكَالِ بِالْآخِرِ ، تَتَكُونُ لَدَى الرَّحَالَةِ صُورَةٌ أُولَيَّةٌ ، هِيَ
 الَّتِي تَكُونُ قَبْلَ انْطِلَاقِ الرِّحْلَةِ ، أَيْ قَبْلَ لَحْظَةِ الْمُوَاجَهَةِ الْحَقِيقِيَّةِ وَالْمُبَاشِرَةِ ، وَتَكُونُ عَادَةً الصُّورَةُ
 فِيهَا لَا مَأْلُوفَةً (غَرَابِيَّةٌ) ، أَمَّا الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ فَهِيَ صُورَةٌ فِعْلِيَّةٌ ، تَتَشَكَّلُ بَعْدَ هَذِهِ الْمُوَاجَهَةِ فَتَكُونُ
 صُورَةً مُعَدَّلَةً مَعَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى آثَارِ الصُّورَةِ الْأُولَى.⁽²⁾

اتَّفَقَ مَعَ هَذِهِ الْمَقُولَةِ إِلَى حَدِّ مَا ، وَلَكِنْ لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى إِطْلَاقِهِ خَاصَّةً إِذَا كَانَ الْأَمْرُ يَتَعَلَّقُ
 بِإِبْنِ بَطُّوطَةَ ، فَهُوَ فِي الْأَسَاسِ قَاضٍ ، وَالْقَاضِي مِنْ صِفَاتِهِ التَّجَرُّدُ فِي الْحُكْمِ ، وَإِلَّا صَارَتْ أَحْكَامُهُ
 اتَّفَقَ مَعَ هَذِهِ الْمَقُولَةِ إِلَى حَدِّ مَا ، وَلَكِنْ لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى إِطْلَاقِهِ خَاصَّةً إِذَا كَانَ الْأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِإِبْنِ
 بَطُّوطَةَ ، فَهُوَ فِي الْأَسَاسِ قَاضٍ ، وَالْقَاضِي مِنْ صِفَاتِهِ التَّجَرُّدُ فِي الْحُكْمِ ، وَإِلَّا صَارَتْ أَحْكَامُهُ
 بَعِيدَةً عَنِ الْعَدْلِ الْمُنْشُودِ ، كَذَلِكَ إِذَا أُطْلِقْنَا الْحُكْمَ عَلَى عُوانِهِ صَارَتْ الرِّحْلَةُ فِي النِّهَايَةِ صُورَةً
 لِشَخْصِيَّةِ الرَّحَالَةِ وَتَقَافَتِهِ ، وَلَيْسَتْ نَقْلًا لِنَقَافَاتِ شُعُوبٍ مُخْتَلَفَةٍ مَرَّ بِهَا الرَّحَالَةُ ، فَلَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى
 إِطْلَاقِهِ ، وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ فِي الرِّحْلَةِ تَصَوُّرٌ أُولَيٌّ ثُمَّ تَصَوُّرٌ آخِرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى التَّصَوُّرِ الْأُولِيِّ
 مَا رَأَيْنَا هَذَا التَّنَوُّعَ الَّذِي وَرَدَ فِي رِحْلَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ فِي نَقْلِهِ لِنَقَافَاتِ وَعَادَاتِ شُعُوبٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَمُنْبَإِيَّةٍ
مَفْهُومُ الْهُوِيَّةِ بَيْنَ الثَّبَاتِ وَالتَّحْوِيلِ :

قَبْلَ الْبَدْءِ فِي تَعْرِيفِ مَفْهُومِ الْهُوِيَّةِ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِ الْمُفَكِّرِينَ وَالْأَدْبَاءِ نَذَكُرُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْمَفْهُومِ
 التَّقْلِيدِيِّ لِلْهُوِيَّةِ وَالْمَفْهُومِ الْحَدِيثِ.

- الْمَفْهُومُ التَّقْلِيدِيُّ لِلْهُوِيَّةِ :

لَقَدْ طَوَّرَتْ نَظَرِيَّاتٌ مَابَعْدَ الْحَدَاثَةِ مَوْضُوعَ دِرَاسَةِ الْهُوِيَّةِ. إِذْ كَانَتْ تَرْتَكِزُ الْهُوِيَّةُ فِي مَرَحَلَةِ
 مَاقِبِلِ الْحَدَاثَةِ عَلَى الْهَيَاكِلِ التَّقْلِيدِيَّةِ الْخَاصَّةِ الْمُزْتَبِطَةِ بِالْدِّينِ وَالثَّقَافَةِ وَالْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ، فَفِي
 الْمُجْتَمَعَاتِ الَّتِي لَا تَعْرِفُ التَّحَوُّلَاتِ السَّرِيعَةَ تَتَحَدَّدُ هُوِيَّةُ الْفَرْدِ بِانْتِمَائِهِ لِجَمَاعَاتٍ وَبِأَدْوَارِهِ
 الْاجْتِمَاعِيَّةِ.

وَفِي هَذَا السِّبَاقِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ الْهُوِيَّةُ غَيْرَ الْخُصُوعِ لِلسُّلْطَةِ.

1- عمرو عبد العزيز، أشهر الرحلات القريبة من الأسطورة إلى الفضاء، الطبعة الأولى، دار طيبة للطباعة
 الجزائر. 2010. ص 48.

2- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي (التجنس). آليات الكتابة. الخطاب المتخيل، الطبعة الأولى، رؤية للنشر
 والتوزيع، القاهرة 2006، ص 321.

المفهوم الحديث للهوية:

تَغَيَّرَتْ فِي عَصْرِ الحَدِثَةِ دَلَالَةُ مَفْهُومِ الْهُويَّةِ مَا بَيْنَ (16-18) وَاكْتَسَبَ هَذَا الْمَفْهُومُ دَلَالَةً جَدِيدَةً، عِنْدَمَا ارْتَبَطَ بِتَصَوُّرَاتٍ دِيكَارَتِ وَأَفْكَارُهُ وَفَتَحَ الْمَجَالِ أَمَامَ الْحَدِيثِ عَنِ الْهُويَّةِ الْفَرْدِيَّةِ وَالْهُويَّةِ الْجَمَاعِيَّةِ.

وَتَحَدَّثَ هُويَّةُ الْفَرْدِ بِارْتِبَاطِهِ بِعَضُوبِيَّةٍ فِي طَبَقَةِ رَأْسَالٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ مِهْنَةٍ مُحَدَّدَةٍ. وَفِي مَرْحَلَةٍ مَابَعْدَ الْحَدَاثَةِ تَمَيَّزَتِ الْهُويَّةُ بِتَعَدُّدِهَا، فَالنَّاسُ لَمْ يَعْذُ فِي وَسْعِهِمْ اِمْتِلَاكَ فِكْرَةٍ مُوَحَّدَةٍ عَنْ هُويَّتِهِمْ وَإِنَّمَا يَمْتَلِكُونَ الْعَدِيدَ مِنَ الْهُويَّاتِ سَوَاءً كَانَتْ (هُويَّةً اِجْتِمَاعِيَّةً، أَوْ مُرَدَّوَجَةً، أَوْ فَرْدِيَّةً، أَوْ هُويَّةً عِرْقِيَّةً)

آراء المفكرين والأدباء حول مفهوم الهوية:-

يُنَاقِشُ أَمِينٌ مَعْلُوفٌ مَفْهُومَ الْهُويَّةِ بِقَوْلِهِ: "تَتَشَكَّلُ هُويَّةُ كُلِّ شَخْصٍ مِنْ جَمْعٍ مِنَ الْعُنَاصِرِ لَا تَقْتَصِرُ بِالطَّبَعِ عَلَى تِلْكَ الْمُدَوَّنَةِ فِي السَّجَلَاتِ الرَّسْمِيَّةِ ، هُنَاكَ بِالتَّأَكِيدِ بِالنِّسْبَةِ لِلْعَالِيَةِ الْعَظْمَى مِنَ النَّاسِ الْإِنْتِمَاءُ إِلَى تَقْلِيدٍ دِينِيٍّ أَوْ جِنْسِيَّةٍ وَأَحْيَانًا جِنْسِيَّتَيْنِ ، وَإِلَى مَجْمُوعَةٍ اِثْنِيَّةٍ أَوْ لُغَوِيَّةٍ وَإِلَى عَائِلَةٍ أَكْثَرُ أَوْ أَقَلِّ اِتِسَاعًا وَإِلَى مِهْنَةٍ وَمُؤَسَّسَةٍ وَوَسْطٍ اِجْتِمَاعِيٍّ مَا ، وَلَكِنَّ الْقَائِمَةَ أَطْوَلَ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا وَيَقْتَرِضُ أَنَّهَا غَيْرُ مَحْدُودَةٍ بِالتَّأَكِيدِ لَيْسَ لِكُلِّ هَذِهِ الْإِنْتِمَاءَاتِ الْأَهْمِيَّةُ ذَاتَهَا وَلَكِنَّ أَيًّا مِنْهَا لَيْسَ خَالِيًا مِنَ الْمَعْنَى تَمَامًا ، أَنَّهَا الْعُنَاصِرُ الْمَكُونَةُ لِلشَّخْصِيَّةِ ، وَنَسْتَطِيعُ تَقْرِيْبًا أَنْ نَقُولَ إِنَّهَا مَوْرُوثَاتٌ شَرْطٌ أَنْ نُوضِّحَ أَنَّ مُعْظَمَهَا لَيْسَ فِطْرِيًّا . " (1)

يَسْتَوْفِقُنِي رَأْيُ أَمِينٍ مَعْلُوفٍ فِي الْهُويَّةِ إِذْ يَرَى أَنَّ الْفَهْمَ الْخَاطِئَ لِلْهُويَّةِ يُعَدُّ أَسَاسَ النِّزَاعَاتِ فِي الْعَالَمِ ، فَبِهَا تَقُومُ الْحُرُوبُ ، وَبِهَا يَتِمُّ الْفَصْلُ بَيْنَ الطَّوَائِفِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَيَرَى أَنَّهُ لَوْ تَمَّ فَهْمُ الْهُويَّةِ فَهْمًا صَحِيحًا عَلَى أَسَاسِ تَعَدُّدِ الْهُويَّاتِ لَدَى الشَّخْصِ الْوَاحِدِ بِحَسَبِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا لَكِنَّ هَذَا أَجْدَى فِي تَأَلُّفِ الطَّوَائِفِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي بَيْئَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ لِإِنْدِمَاجِ الْمُهَاجِرِينَ فِي أَهْلِ الْبِلَادِ الَّتِي هَاجَرُوا إِلَيْهَا ، وَارَى أَنَّهُ تَأَثَّرَ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ فِيمَا مَرَّ بِهِ حَيْثُ نَشَأَ فِي لُبْنَانَ وَشَهِدَ الْحَرْبَ الطَّائِفِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ سَبَبًا فِي هِجْرَةِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِهَا ، فَلَا يَدُّ لِلْهُويَّةِ أَنْ تُغَيَّرَ عَنْ ذَاتِ الْإِنْسَانِ وَمَعَ الْمَوْرُوثِ الثَّقَافِيِّ الَّذِي نَشَأَ وَتُرَبَّى عَلَيْهِ فِي غَيْرِ تَعَدِّي عَلَى حُقُوقِ الْآخَرِينَ . وَقَدْ يَتَّفِقُ مَعِيَ فِي جُزْءٍ مِنْ هَذَا وَهُوَ اِخْتِرَافُ حُقُوقِ الْآخَرِينَ أَيَّا كَانَتْ هُويَّتُهُ ، يَقُولُ: "بِالْعَكْسِ مَا أَنَّ نَتَصَوَّرَ هُويَّتَنَا بِوَصْفِهَا بِوَصْفِهَا مَكُونَةٍ مِنَ اِنْتِمَاءَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ بَعْضُهَا يَرْتَبِطُ بِمَوْرُوثٍ دِينِيٍّ وَبَعْضُهَا لَا ، مَا إِنْ نَرَى ذَاتَنَا

1- أمين معلوف، الهويات القاتلة، ترجمة / نبيل محسن، دار ورد للطباعة والنشر، سورية، ط1، سنة 1999، ص75.

وَفِي أُصُولِنَا وَفِي مَسَارِنَا تَقَاطَعَاتٍ وَمُسَاهِمَاتٍ وَتَهْجِيئَاتٍ وَمُؤَثِّرَاتٍ مُتَنَوِّعَةً وَدَقِيقَةً وَمُتَنَاقِضَةً حَتَّى تَتَوَلَّدَ لَدَيْنَا عِلَاقَةٌ مُخْتَلِفَةٌ.

- يرى جدنز (Anthony Giddens) " أَنَّ الْهُويَّةَ الدَّائِيَّةَ تَنْشَأُ مِنْ خِلَالِ الْقُدْرَةِ عَلَى بِنَاءِ إِحْسَاسٍ مُنْسَجَمٍ بِالسَّيْرَةِ الدَّائِيَّةِ مُسْتَمِرٍّ خِلَالَ قِصَصِ الْهُويَّةِ الَّتِي تُحَاوِلُ الْإِجَابَةَ عَنِ الْأَسْئَلَةِ النَّقْدِيَّةِ ... وَمِنْ ثَمَّ يُحَاوِلُ الْأَفْرَادُ إِنْشَاءَ سَرْدٍ مُتَمَاسِكٍ لِلْهُويَّةِ مِنْ خِلَالِ تَشَكُّلِ النَّفْسِ مَسَارًا لِلتَّطَوُّرِ مِنَ الْمَاضِي إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ الْمَتَوَقَّعِ " (1)

- وَلَا يَخْرُجُ مَفْهُومُ (الْهُويَّةِ) فِي مَذَلُولَاتِهِ الْحَدِيثَةِ عَنِ التَّشْخِصِ وَالشَّخْصِيَّةِ وَهُوَ مَا قَالَ بِهِ إِبْنُ حَرَمٍ فِي " الْفَصْلِ " حَدَّهُ أَنَّهُ : " هُوَ أَنَّ كُلَّ مَا لَمْ يَكُنْ غَيْرَ الشَّيْءِ فَهُوَ هُوَ بَعِيْنِهِ ؛ إِذْ لَيْسَ بَيْنَ الْهُويَّةِ وَالْغَيْرِيَّةِ وَسِيطَةٌ يَفْعُلُهَا أَحَدُ الْبَيِّنَةِ ، فَمَا خَرَجَ عَنْ أَحَدِهِمَا دَخَلَ فِي الْآخِرِ " (2). وَهُوَ مَا أَلْمَسَهُ بَارَكُرَّ حِينَ عُرِفَهَا بِأَنَّهَا " الْمُمَيِّزُ عَنِ الْأَغْيَارِ " (3). وَهِيَ تَسْتَخْدِمُ بِمَعْنَى الْهَيْئَةِ وَالْأَوْصَافِ الظَّاهِرَةِ ، وَيَأْتِي مُقَابِلًا لَهَا الْأَوْصَافُ النَّفْسِيَّةُ وَالْجَوْهَرُ . وَفِي اتِّجَاهِ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْغَيْرِيَّةِ حَدَّدَهَا الدُّكْتُورُ جَمِيلُ صَلِيْبًا بِتَحْدِيدِهَا عَلَى أَنَّهَا " الْمُمَيِّزُ عَنِ الْأَغْيَارِ " .

وَلَكِنْ بَعِيدًا عَنِ التَّصَوُّرِ اللَّغَوِيِّ وَالتَّقْلِيدِيِّ الَّذِي غَلَبَ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْمَفْهُومِ فِي عُلُومِ اللَّغَةِ وَالْفِقْهِ - مُقَابِلًا لِلْهَيْئَةِ - أَوْ الْهُويَّةِ فِي بَحْثِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ " (4)، حُمِلَ مَفْهُومُ الْهُويَّةِ مَضَامِينُ أُخْرَى وَإِنْ اِزْتَبَطَ بِمَعْنَاهِ الثَّقَافِي ، جَعَلَتْهُ يَمْتَدُّ وَيُوكِّدُ عَلَى اِكْتِشَافِ أَمْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ :

- 1- - عَنَاصِرُ التَّمْيِيزِ لِلْجَمَاعَةِ عَنِ الْآخَرِينَ ، وَهِيَ عَوَامِلُ الثَّبَاتِ فِيهَا.
- 2- تَصَوُّرَاتُ الْجَمَاعَةِ لِلْآخَرِينَ وَعَنَاصِرُ الْإِنْدِمَاجِ مَعَهُمْ ، وَفَقَّ مَوْقِعُ الذَّاتِ الَّذِي يُحَدِّدُهُ الْعُنْصَرُ الْأَوَّلُ ، وَهِيَ فَعَلُّ الثَّبَاتِ فِي التَّارِيخِ وَمُمَكِّنَاتِهِ.

1- كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، ترجمة جمال بلقاسم- ط 1 رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة. 2018 ص384.

2- ابن حزم: ، الفصل بين الملل والنحل، في قسم الكلام عن التوحيد وفي التشبيه، الجزء الأول، تحقيق محمد سيد كيلاني/ دار صادر بيروت 1404 هـ. ص421.

3- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، مادة هوية، ط دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت سنة 1994. ص184.

4- مثل هذا التطور المفاهيمي نجده في عديد من المفاهيم القديمة شأن مفهوم الأدب الذي يعني الثقافة الآن بعموم، ومفهوم الثقافة الذي لم يكن موجودا بمعناه في تراثنا حيث كان مرادفا للتأدب، أو مفهوم التسامح والتساهل.. هذه المفاهيم التي حملت مدلولات إضافية في تطور الفكر والتاريخ.

وَقَدْ دَاعَ مَفْهُومُ (الْهُويَّةُ) عَالَمِيًّا وَعَرَبِيًّا مُنْذُ سِتِّينِيَّاتِ الْقُرْنِ الْمُنْصَرِمِ ، وَمَعَ الصُّعُودِ الْقَوْمِيِّ وَالثَّوْرِيِّ فِي مِثْلَتِنَا ، نَتِيجَةُ حَمَاةِ الصِّرَاحِ الدَّوْلِيِّ أَوْ الثَّقَافِيِّ مُنْذُ هَذَا التَّارِيخِ وَاهْتِمَامِ الْعَدِيدِ مِنَ الْمَجَالَاتِ الْعِلْمِيَّةِ بِدِرَاسَتِهِ ، حَتَّى يَصِحُّ فِي ذَلِكَ قَوْلُ الْمُؤَرِّخِ أَلْفَرِدِ كُروسِر (Alfred Grosser) يَقُولُ : الْقَلِيلُ مِنَ الْمَفَاهِيمِ هِيَ الَّتِي حَظِيَّتْ بِالتَّصَحُّمِ وَالْإِهْتِمَامِ الَّذِي عَرَفَهُ مَفْهُومُ الْهُويَّةِ ، حَيْثُ أَصْبَحَتْ الْهُويَّةُ شِعَارًا وَأَصْبَحَ بَدِيهِيًّا أَنْ يَجُلُ كُلُّ الْإِشْكَالِيَّاتِ الْمَطْرُوحَةِ ، فَصَرْنَا نَسْمَعُ عَنْ خِطَابِ الْهُويَّةِ ، أَيْ تِلْكَ الْخِطَابَاتِ الَّتِي تَقُومُ فِي أُسُسِهَا الْفِكْرِيَّةُ عَلَى تَصَوُّرٍ خَاصٍّ لِلْهُويَّةِ ، يُمَكِّنُ التَّمَثِيلَ لَهَا بِالنِّتَائِرَاتِ الْقَطْرِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ وَالْوَحْدَوِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ ، كَمَا نَسْمَعُ عَنْ سِيَاسَاتِ الْهُويَّةِ أَيْ السِّيَاسَاتِ الَّتِي تُمَثِّلُ الْهُويَّةَ مُصَدِّرًا لِشُرْعِيَّتِهَا وَسَنَدًا لَهَا كَحَقُوقِ الْأَقْلِيَّاتِ فِي تَقْرِيرِ مَصِيرِهَا أَوْ الصِّرَاعَاتِ الْأَهْلِيَّةِ وَسُلْطَاتِ الْحُكْمِ الدَّائِي ... إلخ. (1)

وَتَتَحَقَّقُ الْهُويَّةُ فِي مَجَالِ الْإِتِّصَالِ بِالْآخَرِينَ ، حَتَّى يَصِحُّ الْقَوْلُ إِنَّ هُويَّةَ الْفَرْدِ الْوَاحِدِ تَتَبَدَّلُ حَسَبَ إِتِّصَالَاتِهِ وَمَوَاقِفِهِ وَمَوَاقِعُهُ الْمُخْتَلِفَةِ ؛ فَالْهُويَّةُ مُعْطَى مِنَ الْآخَرِينَ وَإِنْعِكَاسُ ظَاهِرٍ وَكَامِنٍ لِمَوَاقِفِنَا مِنْهُمْ وَرُدُودُ فِعْلِنَا عَلَيْهِمْ (2)، فَهِيَ رَغْمُ ثَبَاتِهَا فَإِنَّهَا صَانِرَةٌ فِي التَّارِيخِ كَذَلِكَ ، فَقَدْ يَعْيشُ الْإِنْسَانُ فِي بَيْئَةٍ لَفْتَةٍ مِنَ الزَّمَانِ فَتَتَحَدَّدُ هُويَّتُهُ بِنَاءٍ عَلَى هَذَا الْمَكَانِ وَالثَّقَافَةِ السَّائِدَةِ فِيهِ ، فَإِذَا انْتَقَلَ إِلَى بَيْئَةٍ أُخْرَى قَدْ تَتَبَدَّلَ هُويَّتُهُ إِذَا أَرَادَ ذَلِكَ ، بِحَسَبِ طَبِيعَتِهِ وَقَابِلِيَّتِهِ لِذَلِكَ .

وَيَتَنَاوَلُ مَفْهُومُ الْهُويَّةِ التَّصَاعُدَ مَعَ الْإِسْتِقْطَابِ الْحَضَارِيِّ بَيْنَ الْغَرْبِ وَآخِرِهِ ، فِي ظِلِّ الْحَرْبِ عَلَى الْإِرْهَابِ وَإِنْتِشَارِ دَعَاوَى الْحَوَارِ الْحَضَارِيِّ ، حَيْثُ تَتَرَادَفُ الْهُويَّةُ فِيهِ مَعَ الثَّقَافَةِ بِوُصْفِهَا مَنظُورًا وَرُؤْيَا لِلْعَالَمِ >

- (الْهُويَّةُ وَ الْغَيْرِيَّةُ) الْآنَا وَالْآخِرُ :

مِنَ الْمَقَاصِدِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي تَنَاوُلِ الدِّرَاسَةِ التَّعَرُّضُ لِهُويَّةِ الدَّاتِ وَالْآخِرِ فَتَتَعَرَّفُ عَلَى الدَّاتِ مِنْ رَدَّةِ الْفِعْلِ تَجَاهَ الْآخِرِ ، فَرِحْلَةُ ابْنِ بَطُوطَةَ الَّتِي جَابَ فِيهَا أَرْجَاءَ الْمَغْمُورَةِ ، وَتَشْكِيلُ عِلَاقَةٍ قَائِمَةٍ عَلَى التَّقَاعُلِ بَيْنَ الْآنَا وَالْآخِرِ هُوَ الْأَسَاسُ الَّذِي أُنْتَجَ هَذِهِ الْمُدُونَةُ ، فَقَدْ كَانَ الْوُصُولُ إِلَى

1- محمد صخري، نشأة إشكالية الهوية وتزايد دورها الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية، ، أغسطس 2021. ص48.

2- An introduction of the Concept of Identity , Martin Rost Independent Centre of Privacy Protection (ICPP , 2003

هذه البلاد أحد الأسباب التي أدت إلى إثراء المدونات العربية بالخلفية الثقافية عن هذه البلاد والشعوب ((كل الدراسات إلى أوروبا بتحديد صورة الآخر))⁽¹⁾.

ونتيجة للترحال والتنقل ، فإن من أبرز ما ينتج عن ذلك : هو الاحتكاك المباشر بالآخر، ونجد إن هذا الاحتكاك يولد علاقة بين الأنا والآخر ، فإما تكون علاقة اضطدام وصراع وإما تكون علاقة تعايش وأنسجام ، وغالباً ما يتمثل الصراع في (العقيدة / المعرفة) من ناحية ، ومن ناحية أخرى في العادات والتقاليد . فالآخر غالباً ما يكون مختلفاً عن الذات ، لذلك نجد صورته تكون نابعة من نظرة تعجب وإنبهار وأحياناً نظرة يغتر بها الاستصغار .

وسأقف في دراستي هذه عند مضطلحي (الأنا) و (الآخر) مفصلاً القول فيها ، ولتقريب الصورة عليك أن تتخيل " صورة الأب يختلف ابنه عنه ، وهو منذ البدء يباشر هوية الابن " ⁽²⁾

فيرجع وجود الأنا والآخر إلى الاختلاف بين الفئات البشرية وتعدد الثقافات لفئة معينة في مكان ما، وقد طرح هذا الخلاف تودوروف (Tzvetan Todorova) (خلافت حول التنوع البشري في تعدد الأصول والقيم) ⁽³⁾ ، فيظهر الآخر نتيجة الاختلاف بين الجنس البشري من خلال اختلاف واضح في العادات والتقاليد ، الثقافة اللغة الدين ، والأصل .

ولاختلاف الفضاءات بالنسبة للرحالة، فإن الرحالة يتعرف على ثقافات متعددة للآخر وفقاً للرفعة المكانية التي قام بزيارتها، فالمعلومات عند الرحالة تختلف حسب (حسبما) ما وصل إليه من موقع، فهناك (من زار الأراضي غير العربية، وتعرف على الآخر المختلف) ⁽⁴⁾ وكذلك لا يمكن تحديد مفهوم الآخر إلا في ضوء الآخر ، فالآخر هو : فرد أو جماعة لا يمكن تحديدهم إلا في ضوء مرجع هو (الأنا) فإذا حددنا هوية الأنا كان الآخر فرداً أو جماعة يخكم علاقته بالأنا عامل التمايز وهو تمايز أطر الهوية أحياناً والإجراء في أحيان أخرى ⁽⁵⁾ .

وغالباً يقصد بالآخر هو صورته التي في الخيال؛ ولذلك فهي قد لا تمثل الآخر بقدر ما تمثل الأنا ، فهي الصورة التي رسمها الأنا لنفسه عن هذا الآخر . ويرتبط مفهوم الآخر كذلك بشكل

1- سعيد جبارة : خطاب الرحلة ، مرجع سابق ص152.

2- سيلفيان أغاساتسكي، ترجمة ، منذر عياشي، نقد المركزية (حدث الآخر) ، الطبعة الأولى 2014م، طوى للثقافة والنشر والإعلام، لندن. ص142.

3- تود وروف: نحن والآخرين ، ترجمة د. ربي حمود ، الناشر مدى، الطبعة الأولى، 1998م. ص73.

4- شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق ، ص20

5- مصلح النجار وآخرون: الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية، الأهلية، الأردن، ط1، 2008، ص51.

وَتَبْقَى بِالهُوِيَّةِ، إِذْ إِنَّ الْهُوِيَّةَ مُحَدَّدَةٌ فِي جُزْءٍ مِنْهَا كَاخْتِلَافٍ عَنِ الْآخَرِ، "وَيُعَدُّ الْمَصْدَرُ النَّظَرِيُّ لِهَذِهِ النَّظَرِيَّةِ هِيَ ثَنَائِيَّةُ السَّيِّدِ وَالْعَبْدُ الَّتِي قَدَّمَهَا الْفِيلْسُوفُ الْأَلْمَانِي هِيْجِلٌّ، بَيْنَمَا الْمَصْدَرُ الثَّانِي هُوَ النَّفْكَائِيُّ الَّذِي قَدَّمَهُ دَرِيْدَا لِثَنَائِيَّاتِ الْفَلَسَفَةِ الْغُرَبِيَّةِ " (1).

خاتمة المبحث التمهيدي:

المبحث التمهيدي تناولت فيه: مدخل المفاهيم المركزية والوعي بتحولاتها المعرفية وذلك من خلال عرض مفهوم كلاً من مفهوم التمثيلات الثقافية ومفهوم الهوية بين الثبات والتحول وعلاقتها بالآنا والآخر.

حيث تُعَدُّ رَحْلَةُ ابْنِ بَطُوطَةَ " نُحْفَةُ النَّظَارِ فِي غَرَائِبِ الْأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ الْأَسْفَارِ " مُدَوَّنَةً سَرْدِيَّةً كُبْرَى مِنْ سَرْدِيَّاتِ الرِّحْلَةِ الْغُرَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ؛ وَهِيَ مُدَوَّنَةٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ نَتَجَاوَرَ تَحْلِيلَهَا ثَقَافِيًّا نَظَرًا لِمَا تَقَدَّمَهُ هَذِهِ الرِّحْلَةُ الْاسْتِثْنَائِيَّةُ مِنْ تَمَثُّلَاتٍ ثَقَافِيَّةٍ لِلْهُوِيَّةِ وَالْغَيْرِيَّةِ ، وَهِيَ تَمَثُّلَاتٌ تَنْدَرُجُ فِي خُطَابِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ السَّرْدِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ ، لِذَا وَقَفْنَا فِي هَذَا الْمَبْحَثِ التَّمْهِيدِيِّ عِنْدَ الْمَفَاهِيمِ الْمَرْكَزِيَّةِ التَّأْسِيسِيَّةِ لِهَذِهِ الدِّرَاسَةِ وَهِيَ : " التَّمَثُّلَاتُ الثَّقَافِيَّةُ " و " الْهُوِيَّةُ " و " الْغَيْرِيَّةُ " .

وفي الفصل القادم سوف نتناول بحول الله وقوته أدبية خطاب الرحلة في رحلة ابن بطوطة من خلال إبراز العلاقة بين الرحلة والرحالة والعلاقة بين السرد والوصف في رحلة ابن بطوطة والمقاربة السردية في تلك الرحلة.

1- كرييس باركر، معجم الدراسات الثقافية، مرجع سابق، ص 53 .

الفصل الأول
أدبيّة خطاب الرحلة في رحلة
(تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)
لابن بطوطة.

تمهيد:

المبحث الأول: بين الرحلة والرحالة.

المبحث الثاني: ماهيّة السرد. (السرد والوصف في الرحلة).

المبحث الثالث: المقاربة السردية الثقافية في رحلة ابن بطوطة.

تمهيد:

قَدَّمَ الرَّحَالَةُ الْقَدَمَاءُ فِي نُصُوصِهِمْ أَرْوَغَ التَّمَثِيلَاتِ لِلْآخِرِ، مُبْرِزين بِذَلِكَ هَوِيَّةَ الذَّاتِ عَنْ طَرِيقِ رَصْدِ الْمَشَاهِدَاتِ وَالْمُعَايِنَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي الْقَضَاءَاتِ الْمَكَانِيَةِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَتَقَدَّمَ النُّصُوصُ رَصْدًا لِتَمَثِيلَاتِ تَقَاْفِيَةِ لِلْهَوِيَّةِ وَلِلْآخِرِ، وَكَشَفًا مُبَاشِرًا أَوْ غَيْرَ مُبَاشِرٍ لِتَقَاْفِيَةِ وَعَادَاتِ وَتَقَالِيدِ⁽¹⁾.

إِنَّ مُتَلَقِّي أدبِ الرِّحْلَةِ ولأشهرُ رُمُوزَها في مُخْتَلِفِ القُرُونِ يَظِلُّ مُشْدُودًا لِتَفَاصِيلِ أَحْدَاثِهَا وَذَلِكَ لَمَّا تَحْمِلُهُ مِنْ مَعْرِفَةٍ وَإِثَارَةٍ وَتَشْوِيقٍ؛ لَذا يُدْرِكُ حَجمُ الجُهدِ الَّذِي يَقْدِمُهُ هَؤُلَاءِ الرَّحَّالُونَ وَالْمُتَمَثِّلُ فِي كَمِّ المَعْلُومَاتِ الَّتِي تَسَاعِدُهُ عَلَى اكْتِشَافِهِ لِمَظَاهِرِ الحَضَارَةِ فِي المُجْتَمَعَاتِ البَشَرِيَّةِ. فَالعَلاقَةُ وَطَيْدَةٌ بَيْنَ خِطَابِ الرِّحْلَةِ وَالذَّاكِرَةِ بوصفها تُعيدُ تَشْكِيلَ وَقَائِعِ المَاضِي، وَتَلْعَبُ دَوْرًا أَساسِيًّا فِي نَقْلِهَا مِنْ وَاقِعٍ فِعْلِيٍّ تَجْرِبِيٍّ إِلَى صُورٍ يُمَثِّلُهَا الرِّحَالَةُ، وَيُعِيدُ إِنْتاجَها لِعَوْنِا، لَكِنَّ صَدَقِيَّةَ الوَقَائِعِ الَّتِي تَسْتَحْضِرُهَا الذَّاكِرَةُ رَهِيْنَةً بِالمُقْصِدِيَّةِ الَّتِي يُوَجِّهُ بِهَا الرِّحَالَةُ رِحْلَتَهُ وَهُوَ يَنْقُلُ الوَقَائِعَ خِطَابِيًّا⁽²⁾ كَمَا يُعَدُّ السَّرْدُ جِزءً مَهْمًا مِنْ تَرَاثِي المَعْرِفِي، فَهُوَ بِمَثَابَةِ الذَّاكِرَةِ الجَمَاعِيَّةِ بِكُلِّ آمَالِهَا وَأَلَمِهَا وَمُخْتَلِياتِهَا فَهُوَ قَدِيمٌ قَدَمُ الْإِنْسَانِ الْعَرَبِيِّ، فَقَدْ مَارَسَ الْعَرَبُ السَّرْدَ بِصُورٍ وَأَشْكَالٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَتَرَكَ لَنَا هَذَا التُّرَاثَ المُلْهَمَ الَّذِي نُنْهَلُ مِنْهُ حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا. كَمَا يَدُلُّ السَّرْدُ عَلَى سَبْكِ الحَدِيثِ تَرْيِينَهُ، وَيُحَدِّدُ السَّرْدُ فِي المَهَارَةِ البَشَرِيَّةِ فِي حُبِّكَ الكَلَامِ عَامَّةً سِوَاءَ كَانَ المَسْرَدُ صَحِيحًا أَوْ مَكْذُوبًا مُخْتَلِفًا⁽³⁾.

يَقُولُ بُولُ رِيكُور (Paul Ricopur) يُمَثِّلُ التَّرْكِيزُ عَلَى حَرَكَةِ الحُبِّكَ مُشْكَلَةً العَلاقَةَ بَيْنَ الزَّمَانِ وَالسَّرْدِ، وَلَحُلِّ تِلْكَ المُشْكَلَةِ يَنْبَغِي تَقْيِيمُ الدَّورِ التَّوَسُّطِيِّ لِلْحُبِّكَ بَيْنَ مَرَحَلَةِ التَّجْرِبَةِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تَسْبِقُهَا وَالْمَرَحَلَةَ الَّتِي تَتْبَعُهَا، بِهَذَا المَعْنَى يَتَشَكَّلُ مَا أَذْهَبَ إِلَيْهِ مِنْ بِنَاءِ الوَسَاطَةِ بَيْنَ الزَّمَانِ وَالسَّرْدِ بِإِظْهَارِ الدَّورِ التَّوَسُّطِيِّ لِلْحُبِّكَ فِي عَمَلِيَّةِ المَحَاكَاةِ⁽⁴⁾. فِي هَذَا الفَصْلِ أَعْرَضُ لِالعَلاقَةِ بَيْنَ الرِّحْلَةِ وَالرِّحَالَةِ، وَالعَلاقَةَ بَيْنَ السَّرْدِ وَالْوَصْفِ فِي رِحْلَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ وَالمُقَارَبَةِ السَّرْدِيَّةِ فِي تِلْكَ الرِّحْلَةِ وَذَلِكَ عَلَى النُّحْوِ الْآتِي: المَبْحَثُ الْأَوَّلُ: بَيْنَ الرِّحْلَةِ وَالرِّحَالَةِ.

المَبْحَثُ الثَّانِي: مَا هِيَ السَّرْدُ.

1- معجم الدراسات الثقافية، ترجمة: جمال بلقاسم، كريس باركر، الطبعة الأولى، 2018م، ص 195
2- سعيد جبار، خطاب الرحلة، رؤية في الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة، دار رؤية للنشر والتوزيع ط1 2017 القاهرة، مصر، ص18.
3- عبدالرحيم كردي، البنية السردية للقصة القصيرة، دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة (دط) ص15
4- بول ريكور، الزمان والسرد، (الحبكة والسرد التاريخي) ج1 ترجمة سعيد الغانمي، وفلاح رحيم، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 2006. ص97.

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ

بَيْنَ الرِّحْلَةِ وَالرَّحَالَةِ

عُرِفَ الْإِنْسَانُ الرِّحْلَةَ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ ، وَغَدَتْ الرِّحْلَةُ مَظْهَرًا مِنْ مَظَاهِرِ الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ فِي مُخْتَلَفِ الْعُصُورِ . قَدِّمَ الرَّحَالَةُ (ابْنُ بَطُوطَةَ) مُسَاهِمَاتٍ وَاضِحَةً لِثَرَاثِ الْبَشَرِيَّةِ مِنْ خِلَالِ مَا رَصَدَهُ مِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي شَتَّى جَوَانِبِ الْحَيَاةِ وَمَا وَصَفَهُ بِعَيْنِ الْبَصِيرَةِ ، فَقَدْ جُسِدَتْ حَجَمُ التَّوَاصُلِ بَيْنَ ثَقَافَاتِ الشُّعُوبِ الْمُتَعَدِّدَةِ ، الْأَمْرُ الَّذِي أَتَّاحَ لَهُ أَنْ يُسَجِّلَ انْطِبَاعَاتِهِ، وَيَصِفُ مَشَاهِدَاتُهُ وَيَنْقُلُ ذَلِكَ كُلَّهُ لِلنَّاسِ بِصُورٍ حَيَّةٍ .

إِلَّا أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ يَرَى أَنَّ الْمُرُويَاتِ الثَّقَافِيَّةِ الَّتِي وَصَلَتْهَا مِنَ الْقُرُونِ الْوَسْطَى أَتَتْجَبَتْ لَنَا تَصَوُّرَاتٍ شَبَّهَ ثَابِتَةً لِأَعْرَاقِ وَثَقَافَاتٍ وَعَقَائِدَ جُعِلَتْ مِنَ الْآخِرِ صُورَةً مُشَوَّشَةً ، وَرُكْبَةً بِدَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ التَّشْوِيهِ الَّذِي يَحِيلُ عَلَى أَنَّ الْمَخِيَالَ الْإِسْلَامِيَّ الْمُعْتَبَرُ رَمْزِيًّا وَتَمَثِيلِيًّا عَنْ تَصَوُّرِ الْمُسْلِمِينَ لِلْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ (الْآخِرُ) قَدْ انْتَجَتْ صُورًا تَبْخِيسِيَّةً لِلْآخِرِ ، هَذَا التَّصَوُّرُ التَّقْلِيدِيُّ يُقِيمُ مَعْرِفَةَ تَحْلِيلِيَّةٍ مُلْتَبِسَةٍ مَعَ نَفْسِهَا يَتِمُّ تَعْمِيمُهَا وَفَرْضُهَا اسْتِنَادًا عَلَى السَّجَالِ، وَلَيْسَ التَّجْرِبَةُ وَالْمُشَاهَدَةُ وَالْاِكْتِشَافُ الْمُبَاشِرُ ... فَالْأَنَا مُفَعَّمَةٌ بِقِيمٍ سَامِيَّةٍ ، وَالْآخِرُ يَفْتَقِرُ إِلَيْهَا، الْأَنَا قَاعِلٌ ، وَالْآخِرُ مُنْفَعِلٌ. (1)

وَقَدْ اتَّفَقَ مَعَ الْكَاتِبِ فِي جَانِبٍ مِنْ رَأْيِهِ عَنْ هَذِهِ الرُّحَلَاتِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ أَنَّ هَذِهِ الْمُرُويَاتِ قَدْ تَنْظُرُ إِلَى الْآخِرِ فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ مِنْ خِلَالِ وَجْهَةٍ نَظَرُ سَابِقَةٍ عَلَى بَدَايَةِ الرِّحْلَةِ ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ مَا قَرَأَهُ الرَّحَالَةُ وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ عَنِ الْأَمَاكِينِ الَّتِي زَارَهَا فِيمَا بَعْدَ ، إِلَّا أَنَّ رِحْلَةَ ابْنِ بَطُوطَةَ تَخْتَلِفُ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الرُّحَلَاتِ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ ، وَهُوَ مَا أَقْرَهُ عَبْدَ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ فِي كِتَابِهِ (عَالَمُ الْقُرُونِ الْوَسْطَى فِي أَعْيُنِ الْمُسْلِمِينَ)؛ ذَلِكَ لِأَنَّ ابْنَ بَطُوطَةَ اعْتَمَدَ عَلَى الْمُشَاهَدَةِ وَالْمُعَايَنَةِ فِيمَا دَوَّنَهُ عَنِ الشُّعُوبِ وَالْأَمَاكِينِ الَّتِي زَارَهَا وَمَرَّ بِهَا ، وَكَذَلِكَ لِأَنَّ ابْنَ بَطُوطَةَ بِحُكْمِ عَمَلِهِ قَاضِيًا لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ كَانَ يَتَحَرَّى الدِّقَّةَ فِيمَا يَنْقُلُهُ عَنْ هَذِهِ الشُّعُوبِ وَثَقَافَاتِهَا وَعَادَاتِهَا إِلَى جَانِبِ انْتِسَابِ ابْنِ بَطُوطَةَ إِلَى بَيْتِ عِلْمٍ وَفَقْهِ وَحَدِيثٍ وَإِجَازَتِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِ عَشْرَةِ إِجَازَةٍ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ وَحَدَّهَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى دِقَّتِهِ وَتَجَرُّدِهِ إِلَى حَدِّ مَا فِي نَفْلِهِ لَمَّا يَمُرُّ بِهِ ، وَمِمَّا يُؤْخَذُ عَلَيْهِ عَمَرُهُ لِبَعْضِ الرَّحَالَةِ بِبَعْضِ النَّهْمِ دُونَ التَّحْقُّقِ مِنْ ذَلِكَ .

1- عبد الله إبراهيم، المركزية الإسلامية، ط 1 ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب سنة 2001، م ص 99.

وتُعَدُّ الرُّحَلَاتِ أَحَدَ مُصَادِرِ الثَّقَافَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ؛ لِأَنَّهَا تَصَوِّرُ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ مَلَاحِجَ حَضَارَةِ الْعَصْرِ الَّذِي عَاشَ فِيهِ الرَّحَّالَةُ وَثَقَافَةُ الْبِلَادِ الَّتِي زَارَهَا وَأَحْوَالُ الشُّعُوبِ الَّتِي اخْتَلَطَ بِهَا إِلَى حَدِّ مَا مَعَ الرُّجُوعِ إِلَى تَحْقِيقِ مَا كَتَبَهُ الرَّحَّالَةُ أَوْ مُقَارَنَتَهُ بِغَيْرِهِ مِنَ الْمُرُويَاتِ اللَّاحِقَةِ وَالسَّابِقَةِ لَهُ ، أَوْ غَيْرَهَا مِنَ الْمُصَادِرِ الْأُخْرَى . وَهَذَا مَا أَكَّدَهُ (عبد الهادي التازي) فِي تَحْقِيقِهِ لِرِحْلَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ مِنْ مُصَدِّاقِيَةِ الرِّحْلَةِ وَأَهْمِيَّتِهَا، " فَلَمْ يَكُنْ قَرَارُ السُّلْطَانِ أَبُو عَنَانَ بِالْإِعْلَانِ عَنْ مُصَدِّاقِيَةِ الرِّحْلَةِ وَأَهْمِيَّتِهَا قَرَارٍ ارْتِجَالِيًّا أَوْ عَاطِفِيًّا ، وَلَكِنَّهُ كَانَ وَلِيدٌ اسْتِمْرَاجِ آرَاءِ الْمَجْلِسِ الْعِلْمِيِّ الَّذِي اعْتَادَ السُّلْطَانُ أَنْ يَرِكُنَ إِلَيْهِ كُلُّ مَطْلَعٍ شَمْسٍ " .⁽¹⁾

وَفِي هَذَا الْمَبْحَثِ أُسْلِطَ الضُّوءُ عَلَى ابْنِ بَطُوطَةَ وَرِحْلَتِهِ مُتَجَاوِزًا حَالَةَ الشَّكِّ وَالنَّقْدِ الَّتِي أُثِيرَتْ حَوْلَ رِحْلَتِهِ ؛ كَوَضْعِهِ لِلْقُسْطَانِطِينِيَّةِ وَحِكَايَاتِهِ عَنِ الصِّينِ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَثَارَهُ أَوَّلًا مُحَرَّرُ رِحْلَتِهِ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيِّ الْكَلْبِيِّ (693هـ - 741هـ)⁽²⁾ فِي خَاتِمَةِ مُقَدِّمَتِهِ " وَرَبَّمَا أَوْرَدْتُ لَفْظَةً عَلَى وَضْعٍ فَلَمْ أَخِلْ بِأَصْلِهِ وَلَا فَرْعُهُ ، وَأَوْرَدْتُ جَمِيعَ مَا أَوْرَدْتُهُ مِنَ الْحِكَايَاتِ وَالْأَخْبَارِ ، وَلَمْ أُتَعَرِّضْ لِلْبَحْثِ عَنْ حَقِيقَةِ ذَلِكَ وَلَا لِيُخْتَبَرَهُ ، عَلَى أَنَّهُ سَلَكَ فِي إِسْنَادِ صَحَابِهَا أَقْوَمَ الْمَسَالِكِ وَخَرَجَ عَنْ عَهْدَةِ سَائِرِهَا بِمَا يُشْعِرُ مِنَ الْأَلْفَافِ بِذَلِكَ ... وَشَرَحْتُ مَا أَمْكِنُنِي شَرْحُهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْعَجَمِيَّةِ لِأَنَّهَا تُلْبِسُ بِعُجْمَتِهَا عَلَى النَّاسِ وَيُخْطِئُ فِي فَكِّ مَعْنَاهَا مَعْهُودَ الْقِيَاسِ " .⁽³⁾

مِمَّا سَبَقَ ذِكْرُهُ نَجِدُ أَنَّ ابْنَ جُزَيِّ يُلَمِّحُ إِلَى مَا لَدَيْهِ مِنَ الشَّكِّ الَّذِي قَيَّدَ جَمِيعَ مَا أَوْرَدَهُ ابْنُ بَطُوطَةَ دُونَ تَنْبِيْثِ لِحَقِيقَةِ وَصْفِهِ مَا قَصَّه ، وَمَا حَكَاهُ فِي رِحْلَتِهِ الَّتِي شَارَفَتْ عَلَى الثَّلَاثِينَ عَامًا وَكَذَلِكَ التَّدْخُلِ الْمُبَاشِرِ مِنْ قَبْلِ هَذَا الْكَاتِبِ فِي بَيَانِ كُلِّ مَا أَحَاطَ بِهِ الْإِشْكَالُ وَأُكْتِنِفَهُ الْعُمُوضُ . وَمِنْ خِلَالِ النَّصِّ الَّذِي صَدَّرَ عَنْ مُحَرَّرِ رِحْلَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّحَّالَةَ لَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوفِيَ مَعَانِيَهُ لِلْمَقَاصِدِ الَّتِي قَصَّدهَا ، وَلَا أَنْ يُوضِحَ الْمَنَاحِي الَّتِي اعْتَمَدَهَا ، وَمِنْ هُنَا كَانَتْ حُرِّيَّةُ ابْنِ جُزَيِّ فِي النَّصْرِفِ وَالشَّرْحِ دُونَ إِخْلَالِ بِأَصْلٍ أَوْ فَرْعٍ .

لَقَدْ حُطِّي ابْنُ بَطُوطَةَ بِاهْتِمَامٍ وَعِنَايَةٍ أَخَذُ مُلُوكُ الْعَهْدِ الْمَرِينِيِّ الَّذِينَ كَانُوا وَرَثَةَ الْخَضَارَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ وَهُوَ أَبُو عَنَانَ الْمَرِينِيُّ⁽⁴⁾ (1285 - 1341) حَيْثُ أُعْجِبَ الْمَلِكُ بِمَا كَانَ يَقْصُهُ ابْنُ

1- رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي ، أكاديمية المملكة المغربية ط1 ، 1997م ج1 ص 83 .

2- محمد بن أحمد بن عبد الله ابن جزي الكلبلي أبو القاسم، فقيه من العلماء بالأصول واللغة، من أهل غرناطة، من كتبة " القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية، وتقريب الوصول إلى على الأصول، والفوائد العامة في لحن العامة" وهو من شيوخ لسان الدين ابن الطيب.

3- عبد الله إبراهيم، المركزية الإسلامية، المرجع السابق ، ص99.

4- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م، ج4، ص230.

بَطُوطَةٍ مِنْ أَحَادِيثٍ فِي أَسْفَارِهِ ، فَأَمَرَ كَاتِبُهُ مُحَمَّدُ ابْنُ جُزَيِّ الْكَلْبِيِّ أَنْ يَدُونَ مَا يُمْلِيهِ عَلَيْهِ ابْنُ
بَطُوطَةٍ ، فَتَوَلَّى رَوَاتِبَهَا وَتَلْخِصُهَا ، وَتَرْتِيبُهَا ، وَإِضَافَةَ بَعْضِ الْأَشْعَارِ إِلَيْهَا مُسْتَعِينًا بِكُتُبِ
الرُّحَالِ الْمَعْرُوفَةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ ، وَلَا سِوَا رِحْلَةِ ابْنِ جُبَيْرٍ ، ثُمَّ أَسَمَّاها (تَخْفَةُ النُّظَارِ فِي غَرَائِبِ
الْأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ الْأَسْفَارِ) وَفَرَّغَ مِنْهَا سَنَةَ 757 هـ .

وَقَدْ قُسِّمَتْ هَذَا الْمَبْحَثُ إِلَى مَطْلَبَيْنِ هُمَا :

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ : الرَّحَالَةُ (ابْنُ بَطُوطَةٍ) .

الْمَطْلَبُ الثَّانِي : رِحْلَةُ ابْنِ بَطُوطَةٍ .

المطلب الأول

الرحالة (ابن بطوطة)

يعد ابن بطوطة من أعظم الرحالة العرب المسلمين الذي أثرى الأدب والثقافة الرحلية ، فقد ترك لنا إرثاً أدبياً في سرده لرحلاته المتعددة وعلاقته بالآخر والمكان وقبل أن نتحدث عن الرحلة والرحالة لا بد من تعريف الرحالة ابن بطوطة .

هُوَ عَبْدُ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَوْسُفَ اللَّوَاتِي الطَّنْجِي ، الْمُلَقَّبُ فِي الْمَشْرِقِ بِشَمْسِ الدِّينِ ، وَالْمَكْنَى عِنْدِي بِأَبِي أَحْمَدَ لَوْجُودٍ وَلَدٌ لَهُ يَحْمِلُ هَذَا الْإِسْمَ ، وَاللَّقَبُ الَّذِي أَشْهُرَ بِهَا ابْنُ بَطُوطَةَ لَيْسَ خَاصًّا بِهِ ، بَلْ كَانَتْ تُلَقَّبُ بِهِ أَسْرَتُهُ ، وَلُقِبَ عِنْدَ جَمْعِيَةِ كَمْبَرْدَج فِي كُتُبِهَا بِأَمِيرِ الرَّحَّالِينَ (1)

وُلِدَ فِي طَنْجَةِ فِي الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ فِي (24 فِينَايِرَ 1304 - 1377 م) (703 - 779 هـ) بَطْنَجَةٍ وَأَسْتَكْمَلَ دِرَاسَتَهُ فِي الْفِقْهِ وَالْأَدَبِ وَالْقَضَاءِ جَرِيًّا عَلَى تَقَالِيدِ الْأُسْرَةِ . وَكَانَتْ أُسْرَةُ ابْنِ بَطُوطَةَ تَنْتَمِي إِلَى (قَبِيلَةِ بَنُو مَرِين : بَنُو مَرِينِ سَلَالَةٍ مِنَ الْبَرْبَرِ ، حَكَمَتْ مَرَاكِشَ مِنْ سَنَةِ 592 هـ (1195 م) إِلَى سَنَةِ 874 هـ (1468 م) ، وَقَدْ قَامَتْ دَوْلَتُهُمْ عَلَى انْقَاضِ دَوْلَةِ الْمُوحِدِينَ) (2) هُوَ رَحَّالَةٌ وَمُؤَرِّخٌ وَقَاضٍ وَفَقِيهٌ مَغْرِبِي لَقِبَ بِأَمِيرِ الرَّحَّالِينَ الْمُسْلِمِينَ . خَرَجَ مِنْ طَنْجَةِ سَنَةِ 725 هـ فَطَافَ بِلَادِ الْمَغْرِبِ ، وَمِصْرَ ، وَالسُّودَانِ ، وَالشَّامِ ، وَالْحِجَازِ ، وَتِهَامَةَ وَنَجْدَ ، وَالْعِرَاقَ وَفَارِسَ ، وَالْيَمَنَ ، وَعَمَانَ ، وَالْبَحْرَيْنَ ، وَتُرْكِمَنَاتَ ، وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، وَبَعْضَ الْهِنْدِ ، وَالصِّينِ الْجَاوَةِ وَبِلَادَ التَّتَارِ ، وَأَوَاسِطَ أَفْرِيقَا . وَاتَّصَلَ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ فَمَذَحَهُمْ ، وَكَانَ يَنْظِمُ الشِّعْرَ وَاسْتَعَانَ بِهَيَاتِهِمْ عَلَى أَسْفَارِهِ .

أَشْهُرُ كِتَابُهُ (تَحْقِيقُ النُّطَارِ فِي عَجَائِبِ الْأَسْفَارِ) الْخَاصُّ بِهَذِهِ الرِّحْلَةِ الَّتِي بَدَأَتْ يَوْمَ الْخَمِيسِ الثَّانِي مِنْ رَجَبِ عَامِ 725 هـ ، وَانْتَهَتْ بِالْوُصُولِ إِلَى مَدِينَةِ فَاسِ عَاصِمَةِ السُّلْطَانِ أَبِي عَتَّانِ الْمَرِينِيِّ فِي أَوَّلِ ذِي الْحِجَّةِ عَامِ 754 هـ . طَافَ فِيهَا قَارَةَ أَفْرِيقَا وَأَسِيَا وَجَزْءَ مِنْ قَارَةِ أُوْرُوبَا (3)

1- رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية ط1، 1997م ج1 ص 80 ، الأعلام ،خير الدين الزركلي ،دار العلم للملايين، ط15 ، ج1 ، ص 236 ، البيان والإعراب عما بأرض مصر من أعراب للمقريزي .

2 - المرجع السابق ج1، ص 80 وما بعدها .

3- رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي ، المصدر السابق ص 84.

- شَيْخُ الرِّحَالَةِ الْمُسْلِمِينَ .

يَعْتَبِرُ ابْنُ بَطُوطَةَ شَيْخَ الرِّحَالَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَقَدْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ لَا يُنْكَرُ فِي رَسْمِ صُورِ الْآخِرِ فِي الشَّامِ وَالشَّرْقِ وَالْجَنُوبِ ، إِنْ رَحَلَتْهُ إِلَى الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَالْجَزَرِ الْمُتَاخِمَةِ لَهُمَا تَعْتَبِرُ وَثِيقَةً ثَمِينَةً فِي مَعْرِفَةِ الْأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ فِي النَّصَفِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقُرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ، كَمَا حَظِيَ الرِّحَالَةُ ابْنُ بَطُوطَةَ بِاهْتِمَامٍ كَبِيرٍ مِنْ مُخْتَلَفِ الدَّارِسِينَ ؛ فَقَدْ أَفْرَدَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ مُلْحَقًا إِسْتِثْنَائِيًّا (1) خَاصَّ بِهِ بَعْدَ قِسْمِ (الشَّرْقُ فِي أَعْيُنِ الْمُسْلِمِينَ) ، وَذَلِكَ يَعودُ إِلَى الْمَكَانَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي كَانَ يَحْظَاهَا ابْنُ بَطُوطَةَ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ رِحَالَةِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى الَّذِي أوردَ ذِكْرَهُمْ الْآخِرِ فِي كِتَابِهِ ، وَهَذَا يَدْعُمُ اخْتِيَارَنَا لِرِحَالَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ بِالتَّحْلِيلِ فِي هَذَا الْبَحْثِ.

وَعَلَى بِالرَّغْمِ مِنْ تَشَكُّكِكَ عَبْدُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ فِي موثوقية مَا نَقَلْتَهُ الْمُرَوِّاتِ الثَّقَافِيَّةِ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى وَاعْتِقَادَهُ أَنَّ مَا نَقَلْتَهُ هَذِهِ الرِّحَالَاتِ مَا هُوَ إِلَّا صُورَةٌ لِحُكْمٍ مُسَبَّقٍ بِنَاءً عَلَى مَا عَمِلَهُ الرِّحَالَةُ مِنْ مَعْلُومَاتٍ وَمَعَارِفٍ حَوْلَ الشُّعُوبِ وَالْأَمَاكِنِ الَّتِي زَارَهَا وَغَمَزَهَا لِابْنِ بَطُوطَةَ فِي كِتَابِهِ الْمَرْكَزِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَمَا أُوضِحْتَ سَابِقًا ، إِلَّا أَنَّهُ فِي كِتَابِهِ الْقُرُونِ الْوَسْطَى فِي أَعْيُنِ الْعَرَبِ يَخُصُّ ابْنُ بَطُوطَةَ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الرِّحَالَةِ بِمَكَانَةٍ عَالِيَةٍ ، فَهُوَ فِي نَظَرِهِ مَنْ يَسْتَحِقُّ لَقَبَ الرِّحَالَةِ دُونَ غَيْرِهِ لِقُدْرَتِهِ عَلَى طَوْلِ التَّرَحُّالِ يَقُولُ : " وَنَصِلَ إِلَى الرِّحَالَةِ الْكَبِيرِ ابْنِ بَطُوطَةَ الَّذِي مُخَرَّ الْعَالَمِ مِنَ الشَّامِ إِلَى الْجَنُوبِ وَمِنْ الشَّرْقِ إِلَى الْعَرَبِ ... إِنْ رَحَلْتَهُ إِلَى هَذِهِ الْبِلَادِ ثُبُنُ الثَّنَوَعِ الطَّبِيعِيِّ وَالْدِّينِيِّ وَالثَّقَافِيِّ لَمَّا يُسَمَّى الْآنَ بِشَرْقِ أَوْرُوبَا وَأَسِيَا فَرِحَلْتَهُ تَتَبَّأُ الْمَكَانَةَ الْأُولَى بَيْنَ الرِّحَالَاتِ الَّتِي قَامَ بِهَا رِحَالَةُ مُسْلِمُونَ ، فَإِنَّ بَطُوطَةَ أَكْثَرُ قُدْرَةً مِنْ غَيْرِهِ عَلَى الصَّبْرِ وَالْمُطَاوَلَةِ فِي الْإِزْتِحَالِ وَهُوَ الَّذِي يُنْطَبِقُ عَلَيْهِ مُصْطَلَحُ الرِّحَالَةِ تَمَامَ الْإِنْطِبَاقِ ، وَرَحَلْتَهُ إِلَى بَعْضِ الْبِلَادِ الشَّمَالِيَّةِ تَضَعُ أَهَمِّيَّتَهَا الْإِتْنُوغَرَفِيَّةَ لِإِشَارَةِ الْخَتَامِ الْمُنَاسِبَةِ لِلْحَدِيثِ عَنْ بِلَادِ الشَّامِ " . (2) وَيَتَّضِحُ مِنْ ذَلِكَ أَفْضَلِيَّةُ ابْنِ بَطُوطَةَ إِلَى كَوْنِهِ لَهُ الْفَضْلُ فِي رَسْمِ صُورَةِ الْآخِرِ فِي الشَّامِ وَالشَّرْقِ وَالْجَنُوبِ ، وَهَذَا يَعودُ إِلَى سَبَبِ رَأْيِهِ ، إِذْ إِنَّ ابْنَ بَطُوطَةَ تُمْكِنَ مِنَ التَّعَايُشِ مَعَ مُخْتَلَفِ الْأَجْنَاسِ ، وَلَمْ تَحُولْ صَدْمَتُهُ أَوْ عَقِيدَتُهُ مِنَ الْإِخْتِلَاطِ بِالْآخِرِ ، وَكَتَشَّافُهُ وَنَقْلُ صُورَتِهِ كَمَا عَايَنَهَا . فَقَدْ مَارَسَ الْحَيَاةَ مَعَ الْآخِرِ الْمُغَايِرِ (3) ، مُفْصَلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَ (يَتَعَلَّمُ وَيَعْمَلُ وَ يَتَزَوَّجُ وَيُؤَاصِلُ تَرَحَالَهُ الدَّائِمَ وَيُشَارِكُ فِي

1 - عبد الله إبراهيم، القرون الوسطى في أعين المسلمين، ط1، ج1، 2001م، المجمع الثقافي ، أبو ظبي، ص522.

2- المرجع نفسه، ص. 522.

3 - المرجع نفسه ص 553 .

الْحَيَاةَ وَلَا يَتَوَجَّسُ مِنَ الْآخِرِ (1)، فَالْمُتَلَقِّي لِلرَّحْلَةِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْتَشِفَ ذَلِكَ بِسُهُولَةٍ لِصَخَامَةِ الْمَتْنِ مِنْ جَانِبٍ ، وَلِتَنَوُّعِ مَادَّةِ الرَّحْلَةِ بَيْنَ (مَادَّةٍ دِينِيَّةٍ - عِلْمِيَّةٍ - ثَقَافِيَّةٍ) تَمَثِّلُ بِشَكْلِ وَاضِحٍ حَالِ الشُّعُوبِ آنَ ذَاكَ ، وَتُعْطِي مَعْلُومَاتٍ هَائِلَةٍ حَوْلَ الْحَيَاةِ فِيهَا . مُضِيْعًا أَنَّ (رِحْلَتَهُ إِلَى الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَالْجَزْرِ الْمُتَاخِمَةِ لَهُمَا ، تُعْتَبَرُ وَثِيقَةً ثَمِينَةً فِي مَعْرِفَةِ الْأَحْوَالِ الْبَشَرِيَّةِ فِي عَصْرِهِ) (2)، فَالْمِسَاحَةُ الْمَكَانِيَّةُ الَّتِي اجْتَازَهَا ابْنُ بَطُوطَةَ مِسَاحَةٌ وَاسِعَةٌ زَارَ فِيهَا مُجْتَمَعَاتٍ عِدَّةَ لَمْ يَسْبِقْهُ رَحَالَةً إِلَيْهَا بِالإِضَافَةِ إِلَّا أَنَّهُ قَدَّمَ لِهَذِهِ الْمِسَاحَةِ صُورَةً مُفَصَّلَةً لِلْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ بِهَا وَكَذَلِكَ الْحَيَاةَ الْمِهْنِيَّةَ وَالطَّعَامَ وَالْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدَ تَجَاوَزَتْ دَهْشَتَهُ وَإِعْجَابُهُ نَقَلَ صُورَةً وَاضِحَةً حَوْلَ جَمِيعِ أَوْجِهَةِ الْحَيَاةِ فِيهَا ، وَهَذَا يُعْطِيهِ أَسْتَقْيَّةً عَنِ الرَّحَالَةِ مُعَاصِرِيهِ خُصُوصًا (وَفِي وَقْتٍ كَانَ فِيهِ مَارْكُو بُولُو قَدْ شُغِلَ بِالْمُتَاجَرَةِ الَّتِي اسْتَأْثَرَتْ عَلَى مَا سَوَّاهَا بِإِهْتِمَامِهِ ، فَإِنَّ رَجَالَتَنَا شُغِلَ بِكُلِّ شَيْءٍ) (3) . وَتَدْوِينُ هَذِهِ الْمُلَاحَظَاتِ بِالْمَذْكُورَةِ بِتَفَاصِيلِهَا كَمَا أَشَارَ إِلَيْهَا فِي الْمُدَوْنَةِ هِيَ مَا يُعْطِي رِحْلَتَهُ الْمِصْدَاقِيَّةَ فِي النَّقْلِ ، وَيَسْمَحُ لِلْمُتَلَقِّي أَنْ يَسْلِمَ لِدِقَّةِ ملاحظاته وَلِصِدْقِ النَّجْرَةِ ، لِأَنَّ الْكِتَابَةَ مَصْدَرُ إِطْمِئْنَانٍ وَتَوْثِيقٍ تُعْطِي هَذَا الشُّعُورَ الصَّادِقَ لِلْمُتَلَقِّي خَاصَّةً عِنْدَمَا تَتَكَرَّرُ الْإِشَارَةُ لِعَامِلِ (الْمَذْكُورَاتِ) فِي مَتْنِ الْمُدَوْنَةِ .

1 - المرجع السابق ص 554.

2- عبد الله إبراهيم ،عالم القرون الوسطى في أعين المسلمين ،المصدر السابق ص 555.

3- نفس المرجع ص 556 .

المطلب الثاني رحلة ابن بطوطة

تمثل هذه الرحلة سفرًا عظيمًا قطع فيه الرجل ما يقارب ألفًا ومائة وعشرين كيلومترًا وهو رقم قياسي بالمعايير كلها في زمن كان فيه السفر الطويل مستحيلًا بسبب وسائل النقل البدائية، وتباعد الدول والأمصار التي تفصلها البحور والصحاري والجبال؛ غير أن ابن بطوطة خرق المعتاد وقضى ما يقرب من سبع وعشرين سنة (1325 - 1352 م) في الترحال .

تتبنق رحلة ابن بطوطة بوصفها نصاً متعَدّد المستويات من أعماق الماضي لتذكر بالقوة الهائلة للإنسان ، الذي بمقدار ما يتصف بالجلد والمطولة في التعاش والارتحال، فهو يتميز بأنه مصاب بداء لا شفاء منه : السفر الدائم والمصحوب بحنين أُنْدي إلى المجهول والغامض، والتعلق المبطن بحب الاكتشاف ، فلم يستطع ابن بطوطة أبداً التخلص من هذه التوازع المتقاطعة .

إن اتجاهه إلى الشرق في رحلة تقترب من ربع قرن كان يقوده باستمرار إلى حنين جاريف صوب الغرب (1)

مفهوم الرحلة:

إن الرحلة هي السفر والانتقال من مكانٍ لآخر " والأسم الرحلة، بالضم، والكسر، يقال: إنّه لنو رحلة إلى الملوك ورحلة، حكاة الحَياني، أي ارتحال. والرحلة بالكسر: الارتحال للمسير ويقال: مكّة رُحلتِي، أي وجهي الذي أريد أن أرتحل إليه ... والرحلة أيضاً: السفرة الواحدة، عن ابن سيده. والرحيل، كأمير: اسم ارتحال القوم، من رحل يرحل مَرْتَحِلَ البعير: موضع رحله . ورحل فلان فلاناً، وارتحله: علا ظهره، وركبه ... والارتحال: الأشخاص والأزجاج . ورجل رحول، ورحال ورحالة: كثير الرحلة، وقوم رحل: يرتحلون كثيراً. وارتحل فلان أمراً ما يطيعه ورحل فلان صاحبه بما يكره، واسترحل الناس نفسه: أدلّها لهم ، فهم يركبونها بالأذى (2)

1 - د: عبدالله ابراهيم، المركزية الإسلامية، (صورة الآخر في الخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى) ط1، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب، سنة 2001م ، ص195.

2 - الزبيدي، تاج العروس (63/29) ت. 1205 هـ، دار الهداية ط2 ، الفيروز آبادي (محمد بن يعقوب بن السراج) : القاموس المحيط، المكتبة المصرية ، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت نص585. ، المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده دار الكتب العلمية بيروت ط1 ، 1421 هـ ، 301/3

وَتُعْنِي الرِّحْلَةُ : الْإِنْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ لِتَحْقِيقِ هَدَفٍ مُعَيَّنٍ مَادِيًّا كَانَ أَمْ مَعْنَوِيًّا ... وَأَمَّا الْحَرَكَةُ خِلَالِ الرِّحْلَةِ فِي الْفَضَاءِ بَيْنَ الْمَكَانِي وَالزَّمَانِي ، فَهِيَ السَّفَرُ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الْمُنْتَعَةِ وَالْمَشَقَّةِ وَالْمُعَانَاةِ .

يَقُولُ الْإِمَامُ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ (505 هـ) فِي تَعْرِيفِ السَّفَرِ وَالرَّحْلَةِ " نَوْعٌ مِنَ الْحَرَكَةِ وَالْمَخَالِطَةِ وَهِيَ وَسِيلَةٌ إِلَى الْخِلَاصِ عَنْ مَهْرُوبٍ عَنْهُ ، أَوْ الْوُصُولِ إِلَى مَطْلُوبٍ وَمَرْغُوبٍ فِيهِ " .⁽¹⁾ فَالرَّحْلَةُ نَشَاطٌ بَشَرِيٌّ فُطْرِيٌّ يَشْتَمِلُ عَلَى عِدَّةٍ مَسَارَاتٍ ، وَبِتَنَازُعِهَا عِدَّةٌ حُقُولٍ مَعْرِفِيَّةٍ جُغْرَافِيَّةٍ وَتَارِيخِيَّةٍ وَأَدَبِيَّةٍ وَالْأَثَارِ وَالْأَنْثُرُوبُولُوجِيَا .

كَمَا عَرَّفَهَا أَحْمَدُ عَبْدُ الْمَجِيدِ هَرِيدِي بِأَنَّهَا " ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ النَّشَاطِ الْبَشَرِيِّ تَمْتَدُّ جُذُورَهَا إِلَى بَدَايَاتِ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ ⁽²⁾ وَيُشِيرُ هَذَا التَّعْرِيفُ إِلَى الرِّحْلَةِ بِوصْفِهَا نَشَاطًا إِنْسَانِيًّا بِدُنْيَا حَرَكِيًّا عَبْرَ الْأَمَاكِينِ ، وَلَا يُشِيرُ إِلَى أَيِّ بَعْدٍ أَدَبِي . أَمَّا عِمَادُ الدِّينِ خَلِيلٌ فَيَعْرِفُ الرِّحْلَةَ بِأَنَّهَا : حَرَكَةٌ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ . تَجَوَّلَ فِي جُغْرَافِيَّةِ الْأَمَاكِينِ وَالظُّوَاهِرِ وَالْأَشْيَاءِ ... وَابْتَغَالَ فِي النَّبْضِ الَّذِي كَادَ يَغِيبُ عَنِ الْعِيَانِ ⁽³⁾

مَكَانَةُ رِحْلَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ مِنْ أَدَبِ الرُّحَلَاتِ :

يُلَاحِظُ فِي الْمُوَلَّفَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَخَاصَّةً الَّتِي تَتَّصِلُ بِالْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ أَنَّ رِحْلَةَ ابْنِ بَطُوطَةَ مِنْ أَكْثَرِ الرُّحَلَاتِ شُمُولًا وَأَوْقَرُ فَضَاءٍ مِنَ الرُّحَلَاتِ الْآخَرِي فِي تِلْكَ الْحِقْبَةِ الزَّمْنِيَّةِ وَهَذَا مَا يُسَمَّى بِالرِّحْلَةِ الْعَامَّةِ ، فَقَدْ غَادَرَ ابْنُ بَطُوطَةَ بِلَادَةَ عَامِ 725 بِقَصْدِ الْحَجِّ لَكِنَّ بِسَبَبِ تَعَدُّرِ الْحَجِّ تِلْكَ السَّنَةِ اضْطُرَّ لِلإِنْتِظَارِ سَنَةً كَامِلَةً لِحُضُورِ مَوْسِمِ الْحَجِّ عَامَ 726 ، وَهَذَا أَثْنَاءَ الْفَرَاغِ نَمَتْ فِيهِ الرَّغْبَةُ لِلْقِيَامِ بِحُضُورِ مَجَالِسِ الدِّرَاسَةِ وَالْقِيَامِ بِالزِّيَارَاتِ السِّيَاحِيَّةِ الْهَامَةِ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ عَبَرَ الدُّنْيَا وَارْتَادَ الْأَمَاكِينَ الْبُعِيدَةَ . وَهَذَا يَنْبَغِي أَنْ نَتَعَرَّفَ إِلَى الْمَسَارَاتِ الَّتِي مَرَّ بِهَا لِئَجِدَ أَنَّ ابْنَ بَطُوطَةَ كَانَتْ تَتِمَّتِلُ فِيهِ وَتَنْطَبِقُ عَلَيْهِ صِفَاتُ كُلِّ أُولَئِكَ الرَّحَّالَةِ . فَهُوَ حَاجٌّ، وَدَارِسٌ، وَسَفِيرٌ، وَسَائِحٌ وَمُكْتَشَفٌ، وَزَائِرٌ، وَدَاعِيَّةٌ، وَهُوَ تَاجِرٌ أَيْضًا.⁽⁴⁾

1- الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد- المتوفى عام 1111 م)، إحياء علوم الدين، المجلد الثاني، الطبعة الرابعة، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1997م / ص349.
2- عبد الغني بن إسماعيل النابلسي، مقدمة الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام والحجاز، (توفي 1243هـ)، تقديم وإعداد د. أحمد عبد المجيد هريدي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، 1986م، ص5.
3- عماد الدين خليل، من أدب الرحلات، ط، دار بن كثير، القاهرة 2005م، ص6.
4- شمس الدين الطنجي، رحلة ابن بطوطة، (المسماة بتحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) تحقيق عبد الهادي التازي، ج1، أكاديمية المملكة المغربية، 1997م، ص146.

رُحَلَاتُ ابْنِ بَطُوطَةَ :

تَتَشَكَّلُ الرِّحْلَةُ فِي مِعمَارِيَّةٍ مُتَمَيِّزَةٍ تَرْتَبِطُ بِدَائِمَتِهَا بِنَهَائِيَّتِهَا ، " فَعَلَى الْمُسْتَوَى الزَّمَنِيِّ التَّزَمِ الرِّحَالَةُ بِمَوْشَرَاتٍ زَمَنِيَّةٍ مَرْجِعِيَّةٍ تَسْمَحُ لِلْقَارِئِ الْمُتَلَقِّي بِتَأْطِيرِ الرِّحْلَةِ فِي مَسَارَاتِهَا الْعَامَّةِ ، وَتَحْدِيدِ الْمُدَى الزَّمَنِيِّ الَّذِي أُسْتُغْرِفَتْهُ الرِّحْلَةُ بَيْنَ الْإِنْطِلَاقِ وَالْعُودَةِ . وَعَلَى الْمُسْتَوَى الْمَكَانِيِّ كَانَ السَّارِدُ حَرِيصًا عَلَى وَصْفِ الْأَمْكِنَةِ الَّتِي يَزْنَادُهَا "

كَانَ ابْنُ بَطُوطَةَ مَذْفُوعًا يُحِبُّ السَّفَرَ وَالْإِزْتِحَالَ ، فَقَضَى سِنَيْنِ مِنْ عُمَرِهِ مُتَجُولًا بَيْنَ مُدُنِ الْعَالَمِ مُحْتَمِلًا الْمَشَقَّةَ وَالصَّعَابَ ، فَكَانَتْ أَوَّلُ رِحْلَتِهِ يَوْمَ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ رَجَبِ عَامِ 725 هـ قَالَ الرَّحَّالَةُ (ابْنُ بَطُوطَةَ) " كَانَ خُرُوجِي مِنْ طَنْجَةِ مَسْقِطِ رَأْسِي قَاصِدًا حُجَّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَزِيَارَةً قَبْرِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ، لِبَاعِثٍ عَلَى النَّفْسِ شَدِيدُ الْعَزَائِمِ ، وَشَوْقٍ إِلَى تِلْكَ الْأَمَاكِنِ ، فَخُزِمْتُ أَمْرِي عَلَى هَجْرِ الْأَخْبَابِ وَفَارَقْتُ وَطَنِي مُفَارَقَةً الطُّيُورِ لِلوُكُورِ ، وَكَانَ وَالِدِي بِقَيْدِ الْحَيَاةِ فَتَحَمَّلْتُ لِبَعْدَهُمَا وَصَبًا وَلَقِيْتُ مِنَ الْفِرَاقِ نُصَبًا وَسَنِي يَوْمَيْنِ ثَنَانٍ عَشْرُونَ سَنَةً " (1) .

لَقَدْ تَشَكَّلَتْ مَلَامِحُ رِحْلَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ مِنَ الْبِدَايَةِ بَعْضُ النَّظَرِ عَنْ أَهْدَافِهَا ، فَاتَّصَلَ بِالْعَالَمِ مِنْ حَوْلِهِ وَإِثْرُ التَّوَسُّعِ السِّيَاسِيِّ ، فَكَانَ لِهَذَا التَّوَسُّعِ أَثَرٌ بَالِغٌ فِي السِّيَاحَةِ وَإِتِّخَاذِهَا وَسِيلَةً لِلْوُقُوفِ عَلَى مَا فِي تِلْكَ الْأَمَاكِنِ مِنْ مَظَاهِيرَ وَجَوَانِبِ مُخْتَلِفَةٍ وَمِنْ عَجَائِبِ وَغَرَائِبِ ، فَقَدْ جَعَلَتْ مِنَ الْأَقْدَارِ جُغْرَافِيًّا عَلَى الرَّغْمِ مِنْهُ - إِنَّ صُحَّ التَّعْبِيرِ - وَصُنِعَتْ مِنْهُ لُونًا مِنَ الرِّحَالَةِ نَادِرًا عِنْدَ الْعَرَبِ ، فَذَلِكَ هُوَ الرِّحَالَةُ الَّذِي يَسْتَهْدَفُ الرِّحْلَةَ لِدَائِمَتِهَا ، وَيَضْرِبُ فِي مَجَاهِلِ الْأَرْضِ اسْتِجَابَةً لِعَاطِفَةٍ لَا تَقَاوِمُ وَرَغْبَةً جَارِفَةً لِلتَّعَرُّفِ عَلَى الْأَقْطَارِ وَالشُّعُوبِ . (2)

كَانَ ابْنُ بَطُوطَةَ أَثْنَاءَ رِحْلَتِهِ حَرِيصًا عَلَى الْإِتِّصَالِ بِأَعْيَانِ الْبِلَادِ الَّتِي يَجِلُّ بِهَا . وَكَانَ يَلْتَقِي عَادَةً بِالْعُلَمَاءِ وَالْفُضَاةِ وَالشُّيُوخِ الصَّالِحِينَ مِنْ رُهَادٍ وَصُوفِيَّةٍ وَفُقَهَاءَ . وَكَانَ يَلْتَقِي أَيْضًا بِرُجَالِ السُّلْطَةِ السِّيَاسِيَّةِ مِنْ سَلَاطِينٍ وَمُلُوكٍ وَأَمْرَاءَ وَوُزَرَءَ ، مِمَّا يُدْلِنَا عَلَى مَكَانَةِ هَذَا الرَّجُلِ فِي كُلِّ مَكَانٍ كَانَ يَقْصُدُهُ . (3)

1- شمس الدين الطنجي، رحلة ابن بطوطة، (المسماة بتحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) تحقيق عبد الهادي التازي، مرجع سابق، ص 153 .

2- اغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ط2، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1987م، ص469.

3- حمادي المسعودي، الحكايات العجيبة في رحلة ابن بطوطة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، تونس 2001. ص28.

الرَّحْلَةُ الْأُولَى :

وَهِيَ الرَّحْلَةُ الْهَامَةُ فِي حَيَاتِهِ ، وَذَلِكَ لِطُولِ مُدَّتْهَا ، فَكَانَتْ بِدَايَةِ الرَّحْلَةِ الْأُولَى لِابْنِ بَطُوطَةَ سَنَةَ 1325م وَإِنْتَهَتْ عَامَ 1349م فَدَامَتْ خُمُسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً تَقْرِيبًا زَارَ خِلَالَهَا مِصْرَ وَبِلَادَ الشَّامِ وَالْحِجَازَ وَبِلَادَ الْبَحْرَيْنِ وَعَمَّانَ وَحَضْرَمَوْتَ وَالْيَمَنَ كَمَا طَافَ أَرْجَاءَ الْعِرَاقِ وَسَاحِلَ أَفْرِيقَا الشَّرْقِيَّ وَتَجَوَّلَ فِي بِلَادِ فَارِسِ وَالْأَنَاضُولِ وَأَوَاسِطِ آسِيَا وَتُرْكِيَسْتَانَ وَالْحَوْضِ الْأَدْنَى لِلنَّهْرِ الْفُولِغَا ، ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَى أَقْطَارِ الشَّرْقِ الْأَقْصَى فَقَامَ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ زَمْنًا ، ثُمَّ تَجَوَّلَ بَيْنَ جَزْرِ السَّاحِلِ الْجَنُوبِيِّ الْغَرْبِيِّ لِلْهِنْدِ ، وَمَكِثَ مُدَّةً فِي جَزْرِ الْمَالِدِيفِ ، ثُمَّ تَنَقَّلَ بَيْنَ جَزْرِ الْهِنْدِ الشَّرْقِيَّةِ ، ثُمَّ رَحَلَ إِلَى جَنُوبِ الصِّينِ ، ثُمَّ عَادَ مِنْ جَدِيدٍ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ لِيَعُودَ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ الْمَشْرِقِ الْعَرَبِيِّ ، وَمِنْ هُنَاكَ رَجَعَ إِلَى الْمَغْرِبِ ، فَسَكَنَ لِحَيْنٍ ثُمَّ شَدَّ الرَّحَالَ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ⁽¹⁾.

وَالْمَلَا حِظُ عَلَى هَذِهِ الرَّحْلَةِ أَنَّهَا رُبَّمَا لَمْ تَكُنْ مُنَظَّمَةً ؛ لِأَنَّ ابْنَ بَطُوطَةَ كَثِيرًا مَا يَعُودُ إِلَى نَفْسِ الْبَلَدِ الَّتِي مَرَّ عَلَيْهَا ، وَرُبَّمَا يَشْكُلُ التَّذَكُّرُ دَوْرَهُ فِي مَسَارِ هَذِهِ الرَّحْلَةِ ، فَرُبَّمَا نَسِيَ ابْنُ بَطُوطَةَ شَيْئًا عَنِ الْبَلَدِ الَّتِي زَارَهَا ثُمَّ تَذَكَّرَهَا ، فَارْجَعَ إِلَى تِلْكَ الْبَلَدَةِ مَرَّةً أُخْرَى أَثْنَاءَ سَرْدِهَا عَلَى ابْنِ جُزِي لِيُذَوِّنَهَا فَيَتَخَيَّلَ الْمُسْتَمِعُ أَوْ الْقَارِئُ أَنَّهُ رِيمًا زَارَهَا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ . فَتَبَرَّرُ هُنَا إِشْكَالِيَّةُ التَّذَوِينِ ، حَيْثُ كَانَ ابْنُ بَطُوطَةَ يُمْلِي الرَّحْلَةَ عَلَى ابْنِ جُنِّي مِنْ ذَاكِرَتِهِ بَعْدَمَا ضَاعَتْ أَوْرَاقُهُ الَّتِي دُونَ فِيهَا رَحْلَتُهُ .

الرَّحْلَةُ الثَّانِيَّةُ

فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ : عِنْدَمَا اسْتَقَرَّ ابْنُ بَطُوطَةَ فِي مَدِينَةِ فَاسٍ فَكَّرَ فِي رَحْلَةٍ أُخْرَى ؛ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ أَلْفَ التَّنَقُّلِ وَالتَّرَحُّالِ ، وَكَانَ شَغُوفًا بِرُؤْيَا الْعَجَائِبِ وَالْغَرَائِبِ ، وَإِنَّ لَمْ تَتَبَعْدُ بِهِ الرَّحْلَةُ هَذِهِ الْمَرَّةَ عَنْ وَطَنِهِ كَثِيرًا فَإِنْتَقَلَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، حَيْثُ عَبَّرَ الْبَحْرَ إِلَى مَدِينَةِ (رَنْدَةَ)⁽²⁾ الَّتِي وَضَفَهَا بِأَنَّهَا مِنْ أَمْنَعِ مَعَاقِلِ الْمُسْلِمِينَ وَأَجْمَلِهَا وَضْعًا .

لَقَدْ كَانَ ابْنُ بَطُوطَةَ أَثْنَاءَ رَحْلَتِهِ الثَّانِيَّةِ يُحَدِّثُ النَّاسَ عَنْ رَحْلَتِهِ الْأُولَى بِمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبٍ وَغَرَائِبٍ . وَلَمْ تَدُمْ هَذِهِ الرَّحْلَةُ مُدَّةً طَوِيلَةً إِقْتَصَرَ فِيهَا ابْنُ بَطُوطَةَ عَلَى زِيَارَةِ بَعْضِ الْمُدُنِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ مِثْلَ : مَدِينَةِ رَنْدَةَ ، وَمَرَبْلَةَ ، وَمَالَقَةَ ، وَبَلَشَ ، وَغَرْنَاطَةَ ثُمَّ عَادَ بَعْدَهَا إِلَى مَدِينَةِ فَاسٍ الَّتِي وَدَّعَ بِهَا السُّلْطَانُ أَبَا عَنَازٍ ، وَتَوَجَّهَ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ فِي رَحْلَتِهِ الثَّالِثَةِ .

1 - المرجع نفسه ص33.

2- هي مدينة قديمة على نهر جازو بها زرع واسع وهي حصن إشبيلية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد الثالث، ص13.

- الرِّحْلَةُ الثَّالِثَةُ :

كَانَتْ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ (الْمَقْصُودُ بِهَا بِلَادُ إفْرِيقِيَّةِ الْوَسْطَى) مِنْ (1352م إِلَى 1353م) فَتَوَعَّلَ فِي مَجَاهِلِهَا وَتَعَرَّفَ عَلَى غَرَائِبِهَا ، وَرَضَّدَ كَثِيرًا مِنْ سُبُلِ الْمَعَاشِ فِيهَا وَكُلُّ مَا يَنْصِلُ بِالْعَادَاتِ وَالْتِقَالِيدِ وَالطَّبَائِعِ لِتِلْكَ الْبِلَادِ ، وَلَمْ تَدُمْ هَذِهِ الرِّحْلَةُ هِيَ الْآخَرَى طَوِيلًا ، وَقَدْ حَلَّ ابْنُ بَطُوطَةَ أَثْنَاءَ زِيَارَتِهِ لِهَذِهِ الْبِلَادِ بِمَدِينَةِ إِيُولَاتِن ، وَبِلَادُ مَالِي لِيَخْتِمَ زِيَارَتَهُ بِمَدِينَةِ (تَكْدَا) فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ الْحَادِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ شَعْبَانَ عَامِ (754هـ) بَعْدَمَا تَلَقَّى الْأَمْرَ الْكَرِيمَ مِنْ أَبِي عَنَانِ الْمَرْيَنِيِّ ، بِضَرُورَةِ الْعُودَةِ إِلَى فَاسٍ ، لِيَضْمَهُ إِلَى الْمَجْلِسِ الْعِلْمِيِّ، وَيَسْتَفِيدَ مِنْ خِبْرَتِهِ .

أَشَارَ ابْنُ بَطُوطَةَ إِلَى هَذِهِ الرُّحَلَاتِ الثَّلَاثِ فِي ثَنَائِهَا رِحْلَتِهِ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا التَقَى فِي مَدِينَةِ بَرْصَا ⁽¹⁾ فِي بِلَادِ الرُّومِ بِأَحَدِ السَّائِحِينَ الْمِصْرِيِّينَ الَّذِي أَلْفَ التَّجَوُّالِ.

هَذِهِ هِيَ الْمَرَاكِحُ وَالْمَنَازِلُ الَّتِي سَلَكَتِهَا الرُّحَلَاتُ الثَّلَاثُ، وَهِيَ تَتَّسِعُ لَتَشْمَلَ مَنَاطِقَ كَثِيرَةً فِي قَارَاتِ آسِيَا، وَأَرْوْبَا، وَإِفْرِيقِيَّا، حَيْثُ قَضَى ابْنُ بَطُوطَةَ فِي هَذِهِ الرُّحَلَاتِ مَا يُقَارِبُ مِنْ ثَلَاثِينَ عَامًا.

عِلَاقَةُ الرِّحْلَةِ بِالْأَدَبِ :

إِذَا تَجَاوَزْنَا التَّعْرِيفَ اللُّغَوِيَّ لِكَلِمَةِ (ر ح ل) الَّتِي تَحِيلُ إِلَى السَّفَرِ وَالْإِنْتِقَالِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ أَوْ أَمَاكُنْ أُخْرَى، فَالرِّحْلَةُ تَضُمُّ عِدَّةَ مَسَارَاتٍ ، وَتَتَنَازَعُهَا عِدَّةُ حُقُولٍ مَعْرِفِيَّةٍ : الْجُغَرَاْفِيَا التَّارِيخِي، الْأَسْفَارُ، الْأَنْثُوجَرَاْفِيَا، إلخ ... لِذَلِكَ تُمَّ تَصْنِيفُ الرُّحَلَاتِ فِي عِدَّةِ مَعَارِفٍ ، وَأُخْتُلِفَتْ نَتِيجَةُ ذَلِكَ تَعْرِيفَاتُهَا . إِلَّا أَنَّ الْقَضِيَّةَ الْأَسَاسِيَّةَ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَدَبِ وَتَارِيخِهِ وَالنَّقْدِ الْأَدَبِيِّ هِيَ قَضِيَّةُ تَجَنُّيسِ الرِّحْلَةِ وَطَبِيعَةِ دِرَاسَتِهَا وَتَحْدِيدِ عَنَاصِرِهَا الَّتِي تُجْعَلُ مِنْهَا أَدَبًا .

إِنِ الرِّحْلَةُ بِوَصْفِهَا أَدَبًا تَقَعُ بَيْنَ فِعْلَيْنِ هُمَا : " فَعَلَ الرِّحْلَةَ هُوَ فَعَلَ وَاقِعِي تَلْقَائِي يَتَحَقَّقُ مِنْ خِلَالِ التَّنَقُّلِ فِي الْفَضَاءَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ عَنَرِ أَرْمَنَةِ مُتَلَاحِقَةٍ ... أَمَّا الْفِعْلُ الثَّانِي فَهُوَ تَمَثُّلُ الرِّحْلَةِ وَتَخْطِيبِهَا فَهُوَ فِعْلٌ يَتَحَقَّقُ بَعْدَ انْتِهَاءِ الرِّحْلَةِ حَيْثُ يَتَحَقَّقُ عَنَرِ الْإِدْرَاكِ الدَّائِي الَّذِي تُنْتِجُهُ ذَاكِرَةُ الرَّحَّالَةِ حَيْثُ يَسْتَعِيدُ أَحْدَاثُهَا وَوَقَائِعُهَا " ⁽²⁾ . فَكُلَّمَا قُطِعَ الرَّحَّالَةُ مَرْحَلَةٌ مِنَ الْمَرَاكِحِ الَّتِي تُقَطَّبُ الذَّاكِرَةُ عَنَرِ الْحَوَاسِّ مَجْمُوعَةً مِنَ الصُّوَرِ وَالْوَقَائِعِ وَعَمِلَتْ عَلَى اسْتِحْضَارِهَا عَنَرِ الذَّاكِرَةِ فِي أَرْمَنَةِ لَاحِقَةٍ

1- هي مدينة تركية هامة في شمال غرب الجانب الآسيوي من تركيا وعلى بعد حوالي (20 كم) من شواطئ بحر مرمرة وقد دخلها العثمانيون عام 3117م .

2- سعيد جبار، خطاب الرحلة الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة، رؤية للنشر والتوزيع ط1 القاهرة، 2017 ص 13،

إنَّ البَاحِثَ فِي أدبِ الرِّحْلَةِ يَجِدُ صُغُوبَ آثِ كَثِيرَةٍ فِي تَعْرِيفِهِ، وَقَدْ أُرْجِعَ، شُعَيْبُ حَلِيفِي هَذِهِ الصُّغُوبَاتِ إِلَى عَدِيدٍ مِنَ الْعَوَامِلِ مِنْهَا " غِيَابُ تَعْرِيفَاتٍ دَقِيقَةٍ لَدَى الْبَاحِثِينَ، وَتَعَدُّدُ نُصُوصِ الرِّحْلَةِ وَاخْتِلَافُ أَسَالِيِبِهَا، الْأَمْرُ الَّذِي يَصْغُبُ مَعَهُ تَحْدِيدُ مَفْهُومِ جَامِعٍ تَلْتَقِي حَوْلَهُ كُلُّ الْأَنْوَاعِ الرِّحْلِيَّةِ " (1)

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُحَدِّدَ بِشَكْلِ قَاطِعٍ عِلَاقَةَ الرِّحْلَةِ بِالْأَدَبِ وَأَجْنَاسِهِ، عَلَيْنَا أَنْ نَتَوَجَّهَ بِالنَّظَرِ إِلَى النُّبْعِ الَّذِي يُمَثِّلُ مَحْوَرَ الرِّحْلَةِ وَلِبِهَا، فَالرِّحْلَةُ تَضُمُّ بُعْدَيْنِ مُهِمَّيْنِ.

- النُّبْعُ الْأَوَّلُ: هُوَ الْحَدَثُ الْمَادِّي لِلرِّحْلَةِ بِوَصْفِهَا تَتَقَلًّا وَارْتِحَالًا فِي الْأَمْكِنَةِ وَالْفَضَاءِ.

- النُّبْعُ الثَّانِي: مَا يَتَعَلَّقُ بِالصِّيَاغَةِ اللَّغَوِيَّةِ لِلرِّحْلَةِ، أَيْ الْخِطَابِ بِوَصْفَةِ كِتَابَةٍ عَنْ ذَلِكَ الْحَدَثِ الَّذِي صَارَ فِي الْمَاضِي.

وَهَذَا مَا يُهِمُّ الْحَقْلُ الْأَدَبِي طَرِيقَةً صِيَاغَةً بَنِيَّةَ الرِّحْلَةِ وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامٍ نَقْدِيَّةٍ لَا تَقِفُ عِنْدَ خُدُودِ الشَّكْلِ وَالْمَضْمُونِ فَقَطْ ، وَإِنَّمَا تَنْظُرُ إِلَى كَيْفِيَّةِ قَوْلِ الْمُعْتَى الَّذِي يَجْعَلُ مِنْهُ فَنًا يَنْتَمِي إِلَى أُدْبِيَّةِ الرِّحْلَةِ الْمُؤَسَّوَةِ بِسِمَاتِ أُسْلُوبِيَّةٍ تَمَيِّزُهَا عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْأَشْكَالِ التَّعْبِيرِيَّةِ ، وَأَمَّا الْمَضَامِينُ وَالْقِيَمُ مَا هِيَ إِلَّا نَتِيجَةٌ لِهَذِهِ الصِّيَغِ وَالِاخْتِيَارَاتِ الْأُسْلُوبِيَّةِ .

وَهَذَا مَا عَنَاهُ سَعِيدُ جَبَّارٍ بِقَوْلِهِ: " فَالرَّحَالَةُ السَّارِدُ يَتَأَرَّجَحُ بَيْنَ الذَّاتِ وَالتَّعْبِيرِ عَنْ هَوَاجِسِهَا وَانْفِعَالَاتِهَا خِلَالَ مَسَارِ الرِّحْلَةِ، وَبَيْنَ الْوَصْفِ الْمَوْضُوعِيِّ لِمَا شَاهَدَهُ أَوْ عَاشَهُ خِلَالَ رِحْلَتِهِ " (2) يَقُولُ (شُعَيْبُ حَلِيفِي): " لِذَلِكَ فَرَبَطَهَا بِالْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ هِيَ رِبْطٌ لِلصَّرُورَةِ بِحُكْمِ أَنَّ الْأَدَبَ الْعَرَبِيَّ هُوَ نَسَقٌ عَامٌ شُهِدَ انْصِهَارُ الْخِطَابَاتِ الرِّحْلِيَّةِ ، وَهِيَ نَصٌ يَنْتَمِي لِلنَّسَقِ الثَّقَافِيِّ بِكَافَّةِ خُفُولِهِ لَكِنَّهُ رَغْمَ امْتِدَادِهِ يَظِلُّ مَشْدُودًا إِلَى دَائِرَةِ الْأَدَبِ " (3)

مِنْ هُنَا إِنَّ رِحْلَةَ ابْنِ بَطُّوطَةَ (الْإِنْتَا ج) وَالَّتِي هِيَ حِكَايَةُ يَسْرُدُهَا رَاوٍ بِصِيغَةٍ وَأُسْلُوبٍ مُحَدَّدَيْنِ فِي زَمَنِ مُعَيَّنٍ ، وَأَشْخَاصٍ وَأَحْدَاثٍ وَفَضَاءٍ مَكَانِيٍّ مُتَنَوِّعٍ ، هَذَا كُلُّهُ يَجْعَلُ مِنْهَا شَكْلًا أَدَبِيًّا مِنْ حَيْثُ التَّجَنُّيسِ يُضَافُ إِلَى مَا يُسَمَّى بِأَدَبِ الرِّحْلَةِ الَّذِي يَسْتَنِدُّ عَلَى مَلَاحِجٍ شَكْلِيَّةٍ تَسْتَضِيفُ قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ الْأَسَالِيِبِ وَالصِّيَغِ وَالْخِطَابَاتِ الْقَائِمَةِ عَلَى السَّرْدِ وَالْوَصْفِ وَالْحَوَارِ وَالتَّخْيِيلِ ، وَالَّتِي

1- د شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، التجنيس " آليات الكتابة، خطاب المتخيل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 ، 2006م ، ص81.

2- سعيد جبار، خطاب الرحلة الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة، مرجع سابق ، ص29.

3- د شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، التجنيس " آليات الكتابة، خطاب المتخيل، رؤية للنشر والتوزيع القاهرة، ط1 ، 2006م ، ص9.

تَجْمَعُ بَيْنَ الْغَزَاةِ وَالْمُتَعَةِ وَالْفَائِدَةِ نَاهِيكَ عَمَّا تَجُودُ بِهِ مِنْ عَمَلٍ مُفِيدٍ فِي مَجَالِ دِرَاسَةِ الْأَدَبِ
الْمُقَارِنِ مِنْ خِلَالِ الْمَوَازَنَةِ بَيْنَ الذَاتِ وَالْأُخَرِ الْمُخْتَلِفِ ، تِلْكَ الصُّورَةُ الَّتِي تُسَاهِمُ فِي الْإِحَاطَةِ
بِأَحْوَالِ الشُّعُوبِ وَالْوُقُوفِ عَلَى مَا لَدَيْهِمْ مِنْ تَقَالِيدٍ وَقِيَمٍ وَعَادَاتٍ .
هَكَذَا تُصْبِحُ الرِّخْلَةُ أَدَبًا يُصَدِّقُ عَلَيْهِ الْمُدَوَّنَةُ الْأَدَبِيَّةُ، فِي جَانِبِهَا الْأُسْلُوبِي بِصِفَةِ خَاصَّةٍ، مِنْ
رَشَاقَةِ التَّعْبِيرِ، وَجَمَالِ الْأَدَاءِ، وَحُسْنِ اسْتِخْدَامِ الْمُحْسِنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ.

الْمَبْحَثُ الثَّانِي

ماهية السرد

(السرد والوصف في الرحلة)

يُعدُّ النَّصُّ السَّرْدِيُّ نوعاً مِنْ أَنْوَاعِ التَّصْوَصِ الأدبيَّةِ الَّتِي يَتِمُّ بِهَا تَحْوِيلُ مَجْمُوعَةٍ مُتَّسِلَةٍ مِنْ الْوَقَائِعِ إِلَى نَصِّ مَكْتُوبٍ ، وَيُشْتَرَطُ أَنْ تَكُونُ هَذِهِ الْوَقَائِعُ مُتَّسِلَةً ضَمْنِ تَرْتِيبٍ زَمَنِيِّ أَوْ مَنْطِقِيِّ وَيَجِبُ أَنْ تَكُونُ الْوَقَائِعُ مُرْتَبِطَةً مَعاً دُونَ ذِكْرِ حَدَثٍ مَعْرُولٍ عَنِ الْآخَرِينَ ، كَمَا يُشْتَرَطُ فِيهِ أَنْ تَكُونُ الْأَحْدَاثُ مُتَطَوِّرَةً وَمُتَغَيِّرَةً بِأَنْ تَبْدَأَ مِنْ حَالٍ وَتَتَطَوَّرُ لِتَصِلَ إِلَى حَالٍ أَفْضَلٍ وَمُخْتَلَفٍ، وَأَنْ يَكُونُ النَّصُّ خَادِماً لِفِكْرَةٍ أَوْ عِبْرَةٍ سَوَاءَ كَانَتْ أَدَبِيَّةً أَوْ سِيَاسِيَّةً أَوْ أَخْلَاقِيَّةً أَوْ دِينِيَّةً. (1)

إنَّ الطَّبِيعَةَ الْحَقِيقَةَ لِلْهُوِيَّةِ السَّرْدِيَّةِ لَا تَتَكَشَّفُ إِلَّا فِي دِيَالِكْتِكِ الدَّائِيَّةِ وَالْعَيْنِيَّةِ ... وَالَّتِي تُمَثِّلُ الْمُسَاهَمَةَ الْأَكْبَرَ لِلنَّظَرِيَّةِ السَّرْدِيَّةِ فِي تَكْوِينِ الْذَاتِ ... سَيُظْهِرُ كَيْفَ أَنَّ مَفْهُومَ صِيَاحَةِ الْحَبَكَةِ حِينَ انْتِقَالِهِ مِنْ سَيْرِ الْأَحْدَاثِ إِلَى شَخْصِيَّاتِ السَّرْدِ الْقَصَصِيِّ يُؤَلِّدُ دِيَالِكْتِكِ الشَّخْصِيَّةَ الَّذِي هُوَ بِالضَّبْطِ دِيَالِكْتِكِ الْهُوِيَّةِ الْعَيْنِيَّةِ وَالْهُوِيَّةِ الدَّائِيَّةِ. (2)

يُعدُّ مُصْطَلَحُ السَّرْدِ مِنْ أَكْثَرِ الْمُصْطَلَحَاتِ الْقَصَصِيَّةِ إِثَارَةً لِلْجَدَلِ وَذَلِكَ نَظَرًا لَوْجُودِ بَعْضِ الْخِلَافَاتِ الْقَائِمَةِ عَلَى السَّاحَةِ النَّقْدِيَّةِ حَوْلَ مَفْهُومِهِ ، إِذْ أَنَّ مَجَالَاتٍ مُتَعَدِّدَةً تَتَجَادَبُهُ وَتَتَنَازَعُهُ .

فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ لَمْ يُغْفَلِ الرَّحَّالَةُ (ابْنُ بَطُوطَةَ) وَصَفَ كُلَّ مَالِهِ عِلَاقَةً بِالْمَظْهَرِ الْعُمَرَانِيِّ بِشَقِيَّةِ الْمَادِيِّ وَالْإِنْسَانِيِّ ، فَسَجَلَ صُورَ تِلْكَ الْمَظَاهِرِ مَرْكَزًا عَلَى مُشَاهَدَاتِهِ الْبَحَثَةِ، مِمَّا يَدْفَعُ الْمُتَلَقِّيَ إِلَى الشُّعُورِ بِتِلْكَ الْحَيَاةِ بِشَيْءٍ مِنَ التَّأَمُّلِ وَالتَّخَيُّلِ ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ الْإِعْتِمَادِ عَلَى سِيَاقَاتِ وَالْفَافِظِ تَبَعْتُ الطَّمَانِينَةَ فِي الْإِنْسَانِ الَّذِي أُولَى لَهُ ابْنُ بَطُوطَةَ أَهْمِيَّةً كُبْرَى فِي سِيَاقَاتِ السَّرْدِ وَالْوَصْفِ الْمُتَوَّعَةِ، فَرَكَّزَ عَلَى تَفَاعُلِهِ مَعَ الطَّبِيعَةِ وَظُرُوفِهَا، وَكَذَلِكَ الْعِلَاقَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَكَانِ فَرَسَمَ صُورًا لِلْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ رُقِيٍّ وَرَفَاهِيَّةٍ وَكَذَلِكَ الْفَقْرُ وَالْعُورُ فِي حَيَاةِ الشُّعُوبِ . وَسَاعَمِلَ عَلَى تَوْضِيحِ هَذَا مَفْهُومِ السَّرْدِ وَالْعِلَاقَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَصْفِ فِي الرَّحْلَةِ فِي هَذَا الْمَبْحَثِ . الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ: مَفْهُومُ السَّرْدِ.

الْمَطْلَبُ الثَّانِي: السَّرْدُ وَالْوَصْفُ فِي الرَّحْلَةِ .

1- دلال حيور ، بنية النص السردى في معارج ابن عربى ، ط1، جامعة منتري قسنطينة ، الجزائر 2006م ، ص3.

2- بور باركر، الذات عينها كآخر ، ت، جرج زيناتي ، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ط1 ، 2005 ، ص 294 .

المطلب الأول

مفهوم السرد

أولاً - مفهوم السرد لغة:

تُعَدُّ مَفَاهِيمُ السَّرْدِ مُنْطَلَقَةً مِنْ أَصْلِهِ اللَّغَوِيِّ، فَهُوَ تَتَابُعُ الْحَدِيثِ، وَالْجُزْءِ فِي الْأَدِيمِ، وَالنَّسْجِ " السَّرْدُ فِي اللُّغَةِ: تَقْدِمَةُ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ تَأْتِي بِهِ مُتَّسِقًا بَعْضُهُ فِي أَثَرِ بَعْضٍ مُتَتَابِعًا. سَرَدَ الْحَدِيثَ وَنَحْوَهُ يَسْرُدُهُ سَرْدًا إِذَا تَابَعَهُ. وَفُلَانٌ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ سَرْدًا إِذَا كَانَ جَيِّدَ السِّيَاقِ لَهُ. وَفِي صِفَةِ كَلَامِهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ سَرْدًا، أَيْ يَتَابَعُهُ وَيَسْتَعِجِلُ فِيهِ. وَسَرَدَ الْقُرْآنَ: تَابَعَ قِرَاءَتَهُ فِي حَذَرٍ مِنْهُ. وَالسَّرْدُ: الْمُتَتَابِعُ. وَسَرَدَ فُلَانٌ الصَّوْمَ إِذَا وَالَاهُ وَتَابَعَهُ (1).

وَهُوَ: "تَقْدِيمُ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ آخِرُ مِنْ نَفْسِ الْمَعْنَى وَمَشْتَقًا مِنْ بَعْضِهِ الْبَعْضُ وَسَرَدَ الْحَدِيثَ يَسْرُدُهُ سَرْدًا إِذَا تَابَعَهُ وَيُظْهِرُ ذَلِكَ فِي صِيغَةِ كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ سَرْدًا، أَيْ يَتَابَعُهُ وَيَسْتَعِجِلُ فِيهِ، وَسَرَدَ الْقُرْآنَ أَيْ تَابَعَ قِرَاءَتِهِ فِي حَذَرٍ مِنْهُ (2). كَمَا نَجِدُ أَنَّ كَلِمَةَ السَّرْدِ وَرَدَتْ أَيْضًا فِي مُعْجَمِ الْأَلْفَاظِ عَلَى أَنَّهَا الْجُزْءُ فِي الْأَدِيمِ كَالسَّرْدِ بِالْكَسْرِ الثَّقَبُ كَالْتَسْرِيدِ فِيهَا (3).

وَرَدَ فِي الصَّحَاحِ " (س . ر . د) " دُرْعَ مِسْرَدَةٍ، مِسْرَدَةٌ بِالتَّشْدِيدِ، فَقِيلَ سَرْدُهَا أَيْ نَسَجَهَا وَهُوَ تَدَاخُلُ الْخَلْقِ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ قِيلَ الرَّدُّ هُوَ الثَّقَبُ وَالْمِسْرَدَةُ الْمُتَقَبَةُ فَلَا تَسْرُدُ الْحَدِيثَ إِذَا كَانَ جَيِّدَ السِّيَاقِ لَهُ، سَرَدَ الصَّوْمَ أَيْ تَابَعَهُ (4).

سَرَدَ الْحَدِيثَ وَالْقِرَاءَةَ سَرْدًا: إِذَا دَافَعَ بَعْضُهُ فِي إِثَرِ بَعْضٍ كُلِّ. وَالسَّرْدُ: اسْمٌ جَامِعٌ لِلذُّرُوعِ؛ لِأَنَّهُ مُسْرَدٌ؛ فَيَنْقَبُ طَرَفًا كُلُّ خَلْقَةٍ بِالْمِسْمَارِ، فَذَلِكَ الْخَلْقُ: الْمِسْرَدُ. وَالسَرَادُ: الزَّرَادُ. وَالْمِسْرَدُ: الْمُثْقَبُ. وَهُوَ السَّرْدُ وَالسَرَادُ (5).

ثانيًا - السرد اصطلاحًا:

يُعَدُّ مُصْطَلَحُ السَّرْدِ narrative مِنْ أَكْثَرِ الْمُصْطَلَحَاتِ الْقَصَصِيَّةِ إِثَارَةً لِلْجَدَلِ - بِسَبَبِ الْإِخْتِلَافَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَعْتَرِي مَفْهُومَهُ، وَالْمَجَالَاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ الَّتِي تَنْتَازِعُهُ، سِوَاءَ عَلَى السَّاحَةِ

1 - ابن منظور، لسان العرب، المجلد التاسع ط2 "دار صادر، بيروت ج 3، ص 211

2 - المصدر السابق، مادة (سرد)، ص 165.

3 - الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر سنة 1998، مادة (ق ص ص)، ص 189.

4 - الرازي محمد ابن أبي بكر ابن عبد القادر: الصحاح، دار الجبل بيروت، 1987، ص ص 194-195.

5 - المحيط في اللغة - (ج 5 / ص 223)

النَّقْدِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ أَوْ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ ، فَهَناكَ الْعَدِيدُ مِنَ الْمَفَاهِيمِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُ فِيهَا الْمُصْطَلَحُ ، وَيُطْلَقُ كَثِيرٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ مُصْطَلَحَ السَّرْدِ عَلَى أَنَّهُ " الْقِصُّ أَوْ الْحِكْيُ أَوْ الْخِطَابُ".⁽¹⁾

السَّرْدُ إصْطِلَاحًا:-

هُوَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي مِنْ خِلَالِهَا يَتِمُّ عَرْضُ الْعَمَلِ النَّثْرِيِّ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ حَيْثُ أَنَّ الْقِصَّةَ الْوَاحِدَةَ نَسْتَطِيعُ سَرْدَهَا بِأَكْثَرِ مِنْ طَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ تَحْمِلُ اسْمَ السَّرْدِ فِي لُغَةٍ.

الْمَقْصُودُ بِعِلْمِ السَّرْدِ يَغْنِي: الْعِلْمُ الَّذِي يَخْتَصُّ بِدِرَاسَةِ الْبُنْيَةِ السَّرْدِيَّةِ لِلْخِطَابِ مِنْ رَأْيٍ وَمَرْوِيٍّ وَمَرْوِيٍّ لَهُ أَسْلُوبًا وَبَنَاءً وَدَلَالَةً، وَهُوَ يَغْنِي بِدِرَاسَةِ السَّرْدِ بِمُخْتَلَفِ اشْكَالِهِ وَنَوَاعِهِ، أَيْ أَنَّهُ لَا يَفْتَصِرُ عَلَى الرَّأْيِ أَوْ الْقِصَّةِ الْقَصِيرَةِ، بَلْ يَتَعَدَّاهُمَا إِلَى الْأَنْوَاعِ النَّقْلِيَّةِ الْأُخْرَى أَوْ الْمُعَاصِرَةِ، بَلْ يُوَسِّعُ مَجَالَهُ يَشْمَلُ السَّرْدِيَّاتِ غَيْرَ الْأَدْبِيَّةِ وَ سَرْدِيَّاتِ التَّارِيخِ وَ سَرْدِيَّاتِ الصُّورَةِ وَ غَيْرَ ذَلِكَ.⁽²⁾

ويرى عَبْدُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمُ أَنَّهَا: " تَعْنَى السَّرْدِيَّةُ بِاسْتِنْبَاطِ الْقَوَاعِدِ الدَّاخِلِيَّةِ لِلْأَجْنَاسِ الْأَدْبِيَةِ وَاسْتِخْرَاجِ النِّظَمِ الَّتِي تَحْكُمُهَا وَتُوجِّهُ أَبْنِيَّتَهَا ، وَتُحَدِّدُ وَخَصَائِصَهَا وَسِمَاتِهَا وَوَصَفَتْ بِأَنَّهَا نِظَامٌ نَظَرِيٌّ غُذِّي وَخَصِبَ بِالْبَحْثِ التَّجْرِبِيِّ ... أُمْكِنُ التَّأَكُّيدَ عَلَى أَنَّ السَّرْدِيَّةَ هِيَ : الْمُبْحَثُ النَّقْدِيُّ الَّذِي يَغْنَى بِمَظَاهِرِ الْخِطَابِ السَّرْدِيِّ ، أَسْلُوبًا وَبَنَاءً وَدَلَالَةً".⁽³⁾

فَالسَّرْدُ عِبَارَةٌ عَنْ حِكَايَةٍ أَوْ تَفْسِيرٍ لِلْأَحْدَاثِ بِطَرِيقَةٍ مُنْتَظِمَةٍ وَمُتَسَلِّسَةٍ مِنْ خِلَالِ قِيَمٍ وَأَطْرُقَ وَفَهْمٍ لِلْمَرْجِعِيَّاتِ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَتِمُّ مِنْ خِلَالِهَا نِثَاءُ النِّظَامِ الْاجْتِمَاعِيِّ⁽⁴⁾ فَهُوَ بِمَعْنَى الْحِكْيِ؛ لِأَنَّهُ يَقُومُ عَلَى غُنْصَرَيْنِ أَاسَاسِيَيْنِ : هُمَا : الْأَوَّلُ أَنَّهُ يَشْتَمِلُ عَلَى قِصَّةٍ مَا تَشْتَمِلُ عَلَى أَحْدَاثٍ مُعَيَّنَةٍ، وَالثَّانِي يُحَدِّدُ الطَّرِيقَةَ الَّتِي تَحْكِي أَوْ تَسْرُدُ بِهَا الْقِصَّةَ ؛ لِذَلِكَ فَإِنَّ السَّرْدَ هُوَ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي تَمْيِيزِ أَنْمَاطِ الْحِكْيِ بِشَكْلِ أَاسَاسِيٍّ، وَكَذَلِكَ هُوَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي تُرَوَى بِهَا الْقِصَّةُ عَنْ طَرِيقِ قَنَاءِ الرَّأْيِ ، الْمَرْوِيِّ لَهُ ، وَمَا تَخْضَعُ لَهُ مِنْ مُؤَثِّرَاتٍ بَعْضُهَا مُتَعَلِّقٌ بِالرَّأْيِ الْمَرْوِيِّ لَهُ ، وَالْآخَرُ مُتَعَلِّقٌ بِالْقِصَّةِ ذَاتِهَا.⁽⁵⁾

1- عبد الرحيم الكردي: السرد في الراية المعاصرة، دار الثقافة للنشر والطباعة، ط1، القاهرة سنة 1992، ص105.

2 - محمد القاضي ، وآخرون ، معجم السرديات ، دار العين، مصر 2010م ، ط1، ص265.

3 - عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي ص 8 ، المؤسسة العبية للطباعة والنشر ، ط1 2008 ، بيروت

4 - كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، ترجمة جمال بلقاسم ص215 - رؤية للنشر والتوزيع - ط1 - 2018

5- حميد لحميداني ، بنية النص من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب - ط3،

2003م، ص45

وَيُعَدُّ تَعْرِيفُ (رولان بَارْت (Roland Barthes) مِنْ أَيْسَرِ التَّعْرِيفَاتِ لِلْسَّرْدِ حَيْثُ يَقُولُ فِيهِ " إِنَّهُ مِثْلُ الْحَيَاةِ عِلْمٌ مُتَطَوِّرٌ مِنَ التَّارِيخِ وَالثَّقَافَةِ. فَبِالرَّغْمِ مِنْ بَسَاطَةِ التَّعْرِيفِ نَجِدُ أَنَّهُ مَفْهُومٌ وَاسِعٌ جَدًّا ،، لَكِنَّ الْحَاجَةَ الْمَاسَّةَ إِلَى فَهْمِ السَّرْدِ بِوَصْفِهِ أَدَاةٌ مِنْ أَدَوَاتِ التَّعْبِيرِ الْإِنْسَانِيِّ وَلَيْسَ بِصَفِّهِ حَقِيقَةٌ مَوْضُوعِيَّةٌ تَقِفُ فِي مُوَالِجَةِ الْحَقِيقَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ. (1)

كَمَا يَعْرِفُ السَّرْدُ إِصْطِلَاحًا عَلَى أَنَّهُ: فِعْلٌ يَقُومُ بِهِ الرَّائِي أَوْ السَّارِدُ الَّذِي يُنْتِجُ الْقِصَّةَ وَهُوَ فِعْلٌ حَقِيقِيٌّ أَوْ خَيَالِيٌّ يَظْهَرُ فِي الْخِطَابِ الَّذِي يَتِمُّ عَرْضُهُ كَمَا يَشْمَلُ السَّرْدُ الظُّرُوفَ الْمَكَانِيَّةَ الرَّمَازِيَّةَ وَالْوَاقِعِيَّةَ وَالْخَيَالِيَّةَ الَّتِي تُحِيطُ بِهِ .

فَالسَّرْدُ هُوَ : عَمَلِيَّةٌ إِنْتِاجِيَّةٌ فِيهَا الرَّائِي دَوْرُ الْمُنْتِجِ ، وَالْمَرْوِيُّ لَهُ دَوْرُ الْمُسْتَهْلِكِ وَالْخِطَابِ دَوْرُ السِّلَعَةِ الْمُنْتِجَةِ. (2)

كَمَا يُعَدُّ السَّرْدُ أَدَاةً مِنْ أَدَوَاتِ التَّعْبِيرِ الْإِنْسَانِيِّ، وَلَا يُوصَفُ بِأَنَّهُ حَقِيقَةٌ مَوْضُوعِيَّةٌ تَوَاجِعُ الْحَقِيقَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ، وَقَدْ فُطِنَ لِهَذَا الْأَمْرُ النَّاقِذُ (هايدن وايت) عِنْدَمَا رَأَى أَنَّ الْقِصَّةَ الْجَوْهَرِيَّةَ فِي السَّرْدِ فِي كَيْفِيَّةِ تَرْجَمَةِ الْمَعْرِفَةِ إِلَى أَخْبَارٍ أَوْ تَحْوِيلِ الْأَحْدَاثِ إِلَى حِكَايَةٍ مُرْتَبِطَةٍ بِالثَّقَافَةِ، وَهَذَا مَا قَامَ بِهِ ابْنُ بَطُوطَةَ فِي رِحَالَتِهِ. (3)

فَالسَّرْدُ هُوَ إِعَادَةٌ مُتَجَدِّدَةٌ لِلْحَيَاةِ تَجْتَمِعُ فِيهِ أَسَسُ الْحَيَاةِ مِنْ شَخْصِيَّاتٍ وَأَحْدَاثٍ مَعَ مَا يُوطِّرُهَا مَعَ مِنْ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَفَقِ تَعَدُّدٍ لِعُيُودٍ أَيْدِيُولُوجِيٍّ فِكْرِيٍّ يَتَّسِعُ لِيَشْمَلَ خِطَابَاتٍ مُتَعَدِّدَةً مُخْتَلِفَةً (4)

وَأَرَى أَنَّ السَّرْدَ عِبَارَةً عَنْ إِجْرَاءٍ يَعْمَلُ عَلَى صِيَاغَةٍ مَا تُرِيدُهُ أَوْ نَحْكِيهِ بِصُورَةٍ تَتَجَاوَزُ اللُّغَةَ الَّتِي نَتَكَلَّمُ بِهَا لِنُعَبِّرَ إِلَى فُضَاءَاتٍ أُخْرَى تَصُورُ مِنْ خِلَالِهَا الْآخِرِ وَثَقَافَتَهُ وَحَيَاتَهُ.

-كما أرى أن السرد هو العلم الذي يختص بدراسة البنية السردية أسلوباً وبناءاً ودلالة ولا يقتصر على الرواية والقصة القصيرة.

ثَالِثًا -مَضْمُونُ السَّرْدِ وَمَوْضُوعُهُ:

السَّرْدُ هُوَ خِطَابٌ أَوْ قَوْلٌ صَادِرٌ مِنَ السَّارِدِ، يَسْتَحْضِرُ بِهِ عَالَمًا خَيَالِيًّا مَكِّنَ مِنْ أَشْخَاصٍ يَتَحَرَّكُنَ فِي إِطَارِ زَمَانِيٍّ مَكَانِيٍّ مُحَدَّدٍ، مَا دَامَ السَّرْدُ قَوْلًا فَهُوَ يَعْتَبَرُ لُغَةً ، فَالْهَدَفُ مِنَ اللُّغَةِ هُوَ

1- عبد الرحيم الكردي، البنية السردية في القصة القصيرة ، مكتبة الآداب ، القاهرة، ط3، دت، ص13.

2- لطيف زيتون، معجم مصطلحات الرواية، مكتبة لبنان ،دار النهار ، لبنان، ط1 2002، ص105.

3- ابراهيم كردي، البنية السردية للقصة القصيرة مرجع سابق، ص13

4- سعيد يقطين، الكلام والخبر مقدمة السرد العربي، الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية، سنة 1979م ص19

إِصْالَ رِسَالَةٍ يُرَادُ نَقْلُهَا مِنَ الْمُخَاطَبِ بِكُسْرِ الطَّاءِ إِلَى الْمُخَاطَبِ بِفَتْحِهَا . وَتُعَدُّ الرِّسَالَةُ اللُّغَوِيَّةُ لَوْنٌ مِنَ ألْوَانِ الشُّفْرَةِ الَّتِي تَعْتَمِدُ فِي أَدَائِهَا عَلَى مَرَحَلَتَيْنِ هُمَا مِنْ جَانِبِ الْقَائِلِ (مَرَحَلَةُ التَّشْفِيرِ) وَمِنْ جَانِبِ الْمُتَلَقِّي أَوْ السَّامِعِ هِيَ الشُّفْرَةُ أَمَّا فِي مَجَالِ الْقَوْلِ الْمَكْتُوبِ فَتَزِيدُ هَذِهِ الْمُسْتَوِيَّاتِ، مُسْتَوًى آخَرَ هُوَ الْمُسْتَوَى الْإِمْلَائِي . وَفِي مَجَالِ السَّرْدِ الرَّائِي تَجِدُ جَمِيعَ الْمُسْتَوِيَّاتِ السَّابِقَةِ تَصَبُّ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ هُوَ الصُّورَةُ السَّرْدِيَّةُ، وَهِيَ تَخْتَلِفُ عَنِ الصُّورَةِ الْكَلَامِيَّةِ . كَمَا تَحْتَوِي الصُّورَةُ السَّرْدِيَّةُ فِي الرِّوَايَةِ عَلَى شَخْصِيَّاتٍ، وَأَفْعَالٍ، وَزَمَانٍ، وَمَكَانٍ، حَيْثُ تَقُومُ عَلَى رَسْمِ عَالَمٍ وَاقِعِي لَهُ مَقْوَمَاتُهُ الْمُتَوَازِيَّةُ، أَوْ تَرَابُطُهُ السَّلْبِيُّ ، فَالصُّورَةُ الْكَلَامِيَّةُ لَا تَسْتَقِلُّ بِأَدَاءِ الْمَضْمُونِ وَلَا تَعْمَلُ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْهُ بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ بَلْ تَنْتَجِعُ كُلُّهَا إِلَى وَظِيفَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ مَوْضُوعُ الرِّوَايَةِ.(1)

وَهَذَا مَا أَكَّدَ عَلَيْهِ (جِيرَار جِينِيَّت) : يَقُولُهُ أَنَّ السَّرْدَ هُوَ " مَجْمُوعٌ مُعَقَّدٌ لَا يُمَكِّنُ فِيهِ التَّحْلِيلَ أَوْ مُجَرَّدَ الْوَصْفِ ، أَنْ يُمَيَّزَ نَسِيجًا مِنَ الْعَلَاقَاتِ الْوَثِيقَةِ بَيْنَ الْفِعْلِ السَّرْدِيِّ وَمَحَرِّكِيهِ وَتَحْدِيدَاتِهِ الزَّمَانِيَّةِ وَالْمَكَانِيَّةِ وَعَلَاقَتَهُ بِأَوْضَاعٍ سَرْدِيَّةٍ أُخْرَى مُسْتَتَبِعَةٍ فِي الْحِكَايَةِ نَفْسُهَا . وَيَعْتَمِدُ السَّرْدُ عَلَى ثَلَاثَةِ عَنَاصِرٍ أَلَا وَهِيَ الزَّمَنُ (السَّرْدِيُّ وَالْمُسْتَوَى السَّرْدِيُّ وَالشَّخْصُ) (2)

كَمَا يَقِفُ (جِيرَار جِينِيَّت) عَلَى مَفْهُومِ الْحِكَايَةِ ، بِإِعْتِبَارِهَا الْمُنْطُوقِ السَّرْدِيِّ ، أَيُّ الْخِطَابِ الشَّفَوِيِّ أَوْ الْمَكْتُوبِ ، الَّذِي يَضْطَلِعُ بِرِوَايَةِ حَدَثٍ أَوْ سِلْسَلَةٍ مِنَ الْأَحْدَاثِ ، وَفِي مَعْنَى ثَانٍ أَنَّ الْحِكَايَةَ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى سِلْسَلَةِ الْأَحْدَاثِ ، أَوْ هِيَ سِلْسَلَةُ الْأَحْدَاثِ الْحَقِيقِيَّةِ أَوْ التَّخْيِيلِيَّةِ ، وَيَصِلُ جَنِيَّتٌ إِلَى مَعْنَى تَحْلِيلِ الْحِكَايَةِ ، بِإِعْتِبَارِهَا دِرَاسَةً مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَعْمَالِ أَوْ الْأَوْضَاعِ الْمُتَنَاقِلَةِ فِي حَدِّ ذَاتِهَا ، وَفِي مَعْنَى ثَالِثٍ تَدُلُّ كَلِمَةُ الْحِكَايَةِ عَلَى حَدَثٍ أَيْضًا ، غَيْرَ أَنَّهُ لَيْسَ الْبَتَّةُ الْحَدَثُ الَّذِي يُرَوَّى ، بَلْ هُوَ الْحَدَثُ الَّذِي يَقُومُ عَلَى أَنَّ شَخْصًا مَا يَرَوِي شَيْئًا مَا : إِنَّهُ فَعَلَ السَّرْدَ مُتَنَاقِلًا فِي حَدِّ ذَاتِهِ (3).

رابعاً- وَظَائِفُ السَّرْدِ :

لِلسَّرْدِ ثَلَاثُ وَظَائِفٍ رَئِيسَةٍ تَتَعَلَّقُ بِمَضْمُونِ السَّرْدِ وَدَلَالَتِهِ وَهِيَ:

- 1- عبدالرحيم الكردي، السرد في الرواية المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1 القاهرة 1992. ص105.
- 2- جيرار جينيت ، خطاب الحكاية، ترجمة محمد معتصم وآخرون ، ط2 ، دار المشروع القومي للترجمة ، القاهرة 1997م، ص229.
- 3- جيرار جينيت ، ترجمة بنغسي بوحالة : طرائق تحليل السرد الأدبي ، منشورات إتحاد كتاب المغرب ، الدار البيضاء ، المغرب ، سنة 1988، ص8-9.

1 - وظيفَةُ الْخِطَابِ السَّرْدِيِّ: وَتَخْتَصُّ بِتَوْجِيهِ دَلَالَةِ التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَضْمُونِ مِنْ خِلَالِ زَاوِيَةِ الرُّؤْيَةِ الْخَيَالِيَّةِ الَّتِي تُحَدِّدُ شَكْلَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا فِي الرِّوَايَةِ وَتَصْدِرُ عَنِ الرَّائِي أَوْ الْمُؤَلِّفِ.

2 - وظيفَةُ الرُّؤْيَةِ أَوْ الْقَوْلِيَّةِ: هِيَ خَاصَّةٌ بِالسَّارِدِ وَمَوْقِعَةٌ وَهَذِهِ الْوُظُفَةُ دَاخِلَةٌ فِي إِطَارِ الْوُظُفَةِ الْفِكْرِيَّةِ فِي اللُّغَةِ، وَتَكُونُ مُتَعَلِّقَةً بِالْخِبْرَةِ وَالتَّجَرُّبَةِ.

3 - الْوُظُفَةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِتَرْكِيبِ السَّرْدِ ، وَحَجْمِهِ ، وَمُدَى تَنَاسُبِ أَجْزَائِهِ ، وَأَثَرُ هَذَا التَّنَاسُبِ فِي الْحَجْمِ فِي صَنْعِ الدَّلَالَةِ وَالتَّعْبِيرِ عَنِ الْمَضْمُونِ ، وَلَا تَعْتَمِدُ هَذِهِ الْوُظُفَةُ عَلَى الرَّائِي وَلَا عَلَى السَّارِدِ بَلْ تَعْتَمِدُ عَلَى النَّصِّ نَفْسُهُ بِإِعْتِبَارِهِ عُضْرًا مِنْ عَنَاصِرِ الْعَمَلِ الرَّوَائِيِّ ، وَيُطَبِّقُ الْأُسْلُوبِينَ عَلَى هَذِهِ الْوُظُفَةِ فِي السَّرْدِ الرَّوَائِيِّ (التَّنَاقُصُ الْقُصَصِيُّ) وَمِنْ وَجْهَةٍ نَظَرِهِمْ فَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي إِطَارِ الْوُظُفَةِ النَّصِّيَّةِ لِلُّغَةِ.⁽¹⁾

وَبِهَذَا نَجِدُ أَنَّ وَظَائِفَ السَّرْدِ هِيَ نَفْسُهَا وَظَائِفُ اللُّغَةِ لِأَنَّ السَّرْدَ لَا يَخْرُجُ عَنْ كُنْهِهِ لُغَةً، سِوَاهُ أَكَّانَ بِالنِّسْبَةِ لِلشَّفَرَةِ، أَمْ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الْمَضْمُونِ، أَمْ الْوُظَائِفُ - الْعِلَاقَةُ بَيْنَ الشَّخْصِ السَّارِدِ وَالْقِصَّةِ الَّتِي يَرْوِيهَا:

الشَّخْصُ هُوَ الْعُنْصُرُ الثَّابِتُ فِي عَمَلِيَّةِ السَّرْدِ وَهُوَ إِمَّا يَرْوِي الْقِصَّةَ إِحْدَى شَخْصِيَّاتِهَا فَيَتَطَابَقُ بَيْنَ السَّارِدِ وَإِحْدَى شَخْصِيَّاتِ الْقِصَّةِ، أَوْ يَكُونُ شَخْصٌ غَرِيبٌ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ يُمَكِّنُ وُجُودَ الْأَفْعَالِ بِصُمَيْرِ الْمُتَكَلِّمِ فِي النَّصِّ السَّرْدِيِّ أَنْ يَحِيلَ إِلَى وَضْعَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ يَخْلُطُ النَّحْوُ بَيْنَهُمَا بَيْنَمَا التَّحْلِيلُ السَّرْدِيُّ يُمَيِّزُ بَيْنَهُمَا.⁽²⁾

-الْبُنْيَةُ السَّرْدِيَّةُ:

إِنَّ كَلِمَةَ بُنْيَةٍ تَحْمِلُ فِي أَصْلِهَا مَعْنَى الْمَجْمُوعِ أَوْ الْكُلِّ الْمَكُونِ مِنْ عَنَاصِرٍ مُتَمَاسِكَةٍ يَتَوَقَّفُ كُلُّ مِنْهَا عَلَى مَا عَدَاهُ وَيَتَحَدَّدُ مِنْ خِلَالِ عِلَاقَاتِهِ بِمَا عَدَاهُ، فَهِيَ نِظَامٌ أَوْ نُسُقٌ مِنَ الْمَعْقُولِيَّةِ الَّتِي تُحَدِّدُ الْمَكُونِ الْمَادِّيَّ لِلشَّيْءِ ، فَالْبُنْيَةُ هِيَ صُورَةُ الشَّيْءِ أَوْ هَيْكَلُهُ أَوْ التَّصْمِيمُ الْكُلِّيُّ الَّذِي يُرْبِطُ أَجْزَاءَهُ فَحَسَبَ إِنَّمَا هِيَ الْقَانُونُ الَّذِي يُفَسِّرُ الشَّيْءَ مَعْقُولِيَّةً.⁽³⁾ فَالْبُنْيَةُ هِيَ تَرْجَمَةٌ لِمَجْمُوعَةٍ مِنْ

1- نفس المرجع السابق ص ص 160-161.

2 - جيران جينيت ، خطاب الحكاية، مرجع سابق ، ص 255.

3- أحمد مرشد ، البنية الدلالة في روايات إبراهيم نصر الله ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ط1، 2005. ص 19.

العلاقات المُجَدَّة بَيْنَ عَنَاصِرٍ مُخْتَلَفَةٍ عَمَلِيَّاتٍ أَوَّلِيَّةٍ تَتَمَيَّزُ فِيهَا بِالنَّظْمِ وَالنَّوْصَلِ بَيْنَ عَنَاصِرِهَا الْمُخْتَلَفَةِ (1)

يَتَوَافَقُ هَذَا الْمَفْهُومُ عَلَى السِّيَاقِ بِصُورَةٍ وَاضِحَةٍ، وَيَرى جيرالد بُرنس (Gerald Burns) صَاحِبَ قَامُوسِ السَّرْدِيَّاتِ أَنَّ الْبُنْيَةَ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ شَبَكَةٍ مِنَ الْعَلَّاقَاتِ الْخَاصَّةِ بَيْنَ الْمَكُونَاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَبَيْنَ كُلِّ مَكُونٍ عَلَى حِدَةٍ وَالْكَلِّ. (2)

-مَفْهُومُ الْبُنْيَةِ السَّرْدِيَّةِ:

تَتَعَدَّدُ مَفَاهِيمُ الْبُنْيَةِ السَّرْدِيَّةِ وَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ التَّيَّارَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ، فَالْبُنْيَةُ السَّرْدِيَّةُ عِنْدَ فُورسْتِر (Forrester) مُرَادِفَةٌ لِلْحَبْكَةِ، وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ (أَرْكَانُ الْقِصَّةِ) هُنَاكَ عُنْصُرَانِ فِي مُعْظَمِ الْأَعْمَالِ الْأَدْبِيَّةِ، الْأَفْرَادُ الْبَشَرِيَّةُ (الشَّخْصِيَّاتِ) وَالْعُنْصُرُ الشَّامِلُ الَّذِي تَسَمِّيهِ الْفَنُّ - وَقَدْ عَالَجْنَا شَكْلًا مِنْ أَشْكَالِهِ وَهُوَ الْحِكَايَةُ وَالْآنَ نَصِلُ إِلَى وَجْهِ دَقِيقٍ وَهُوَ الْحَبْكَةُ الرَّوَّائِيَّةُ، وَالْخَيَالُ وَالتَّنْبُؤُ، وَالْوَزْنُ.

وَعِنْدَ رُولَانْ بَارْت (Roland Barth) تَعْنِي التَّعَاقُبُ وَالْمُنْطِقُ لِلْحَبْكَةِ وَالزَّمَانُ وَالْمُنْطِقُ فِي النَّصِّ السَّرْدِيِّ كَمَا تَعْنِي الْبُنْيَةُ السَّرْدِيَّةُ عِنْدَ أُوْدِينْ مُولِيِير (oden Muller) الْخُرُوجُ عَنِ التَّسْجِيلِيَّةِ إِلَى تَغْلِيْبِ أَحَدِ الْعَنَاصِرِ الزَّمَنِيَّةِ أَوْ الْمَكَانِيَّةِ عَلَى الْآخَرِ ، عِنْدَ الشَّكْلَانِيَيْنِ تَعْنِي التَّغْرِيبُ ، وَعِنْدَ سَائِرِ الْبُنْيَوِيِّينَ تَتَّخِذُ أَشْكَالًا مُتَنَوِّعَةً ، مِنْ ثَمَّ لَا تَكُنْ هُنَاكَ بُنْيَةٌ وَاحِدَةٌ ، بَلْ هُنَاكَ بَنَى سَرْدِيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ الْأَنْوَاعِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْمَادَّةِ الْمُعَالِجَةِ الْفَنِّيَّةِ فِي كُلِّ مِنْهُ (3)

وَأَخِيرًا نَجِدُ أَنَّ هُنَاكَ بَنَى سَرْدِيَّةٍ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ الْخَصَائِصِ النَّوعِيَّةِ لِلنَّوْعِ السَّرْدِيِّ الَّذِي تَنْتَمِي إِلَيْهِ فَهُنَاكَ بُنْيَةُ سَرْدِيَّةٍ رَوَّائِيَّةٍ وَهُنَاكَ بُنْيَةُ دِرَامِيَّةٍ ... كَمَا أَنَّ هُنَاكَ بَنَى سَرْدِيَّةٍ أُخْرَى لِأَنْوَاعٍ غَيْرِ سَرْدِيَّةٍ كَالْبُنْيَةِ الشَّعْرِيَّةِ، وَبُنْيَةِ الْمَقَالِ. (4)

فَالنَّصُّ السَّرْدِيُّ يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ فِي ضَوْءِ التَّارِيخِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْإِجْتِمَاعِ، "فَالنَّصُّ السَّرْدِيُّ يَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ عَلَى أَنَّهُ تَرْمِيزٌ لِمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ جِيمْسُونُ عَلَى أَنَّهُ الْأَطْرُ الثَّلَاثَةُ الْمُرَكَّزَةُ الَّتِي تُعْمَلُ بِوُضُفِهَا آفَاقًا دَلَالِيَّةً مَتَمَايِزَةً، وَهَذِهِ الْآفَاقُ هِيَ السِّيَاقُ السِّيَاسِيُّ وَالسِّيَاقُ الْإِجْتِمَاعِيُّ الْمَقْصُودُ، وَالتَّارِيخُ الْمَتَصَوِّرُ (5)

1- صلاح فضل ، نظرية البنائية في النقد الأدبي ، دار الأفاق الجديدة بيروت ، لبنان ، ط3 ، 1985 ، ص122.

2- عبدالمنعم زكريا القاضي: البنية السردية في الرواية ، مجلة الدراسات والبحوث الانسانية ، 2009، ص19

3- عبدالرحيم الكردي ، البنية السردية للقصة القصيرة ، مرجع سابق ، ص18.

4- عبدالله ابراهيم ، السردية العربية (بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي) ، د ط ن دت ، ص49.

5- هايدن وايت، محتوى الشكل الخطاب السردى والتمثيل التاريخي ، ت. د. نايف الياسين ، هيئة البحرين للثقافة والآثار ، توزيع منتدى المعارف ، ط1 المناصة 2017

- أنواع السرد:

يَنقَسِمُ النَّصُّ السَّرْدِيُّ إِلَى تَوْعِينٍ مِنَ السُّرُودِ، هُمَا السَّرْدِيَّاتُ الصُّغْرَى، وَالسَّرْدِيَّاتُ الْكُبْرَى وَكِلَاهُمَا يَتَقَاعَلُ لِإِنْتاجِ نَصٍّ وَاحِدٍ ذَاتُ تَرَكَيبٍ مُنْسَجِمَةٍ.

أولاً: السَّرْدِيَّاتُ الْكُبْرَى : (وَهِيَ تَمَثِّلُ إِطَارَ الرِّحْلَةِ وَعِمَادَهَا ذَهَابًا وَإِيَابًا وَمُشَاهَدَاتٌ وَتَذَكُّرٌ).

يَسْتَعِدُّ مُصْطَلَحُ السَّرْدِيَّاتِ الْكُبْرَى لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْقِصَّةِ الشَّامِلَةِ أَوْ المِيتاسردية الَّتِي تَدْعِي صِلَاحِيَّةً كَوْنِيَّةً، وَتَكُونُ بِمَثَابَةِ خَطَّاطَةٍ أَسَاسِيَّةٍ تُبَرِّرُ وَتُفَسِّرُ جَوَانِبَ الْمَشْرُوعِ الْإِنْسَانِيِّ. كَمَا أَنَّهَا أَنْظِمَةُ شُمُولِيَّةٌ تَسْعَى إِلَى تَفْسِيرِ جَوَانِبِ الْحَيَاةِ بِكُلِّ مُسْتَوِيَّاتِهَا وَأَصْنَافِهَا. وَكَأَمْثَلَةٍ عَلَى ذَلِكَ الْمَارِكِسِيَّةُ ، وَالْمَسِيحِيَّةُ وَالْعِلْمُ⁽¹⁾

ثانياً : السَّرْدِيَّاتُ الصُّغْرَى : وَهِيَ نُصُوصٌ صَغِيرَةٌ مُتَوَالِيَةٌ تَتَضَمَّنُ وَقَائِعَ أَفْرَزَتِهَا الْمَفَاجِآتُ أَوْ الْحَوَارَاتُ أَوْ الْإِسْتِرْجَاعُ ، وَهَذِهِ النَّصِيصَاتُ تَعْمَلُ عَلَى تَفْعِيلِ السُّرُودِ الْكُبْرَى ، وَبُعْثِ الدِّينَامِيَّةِ فِي الْحِكْيِ عَنْ طَرِيقِ مَا تَقْدِّمُهُ مِنْ تَعْجِيبٍ وَمَعَارِفٍ تَسْعَى إِلَى إِنْزَالِ الْخِطَابَاتِ وَالرُّؤْيِ وَمَوَاقِفِ الرَّائِي وَتَغْلِيْقَاتِهِ " (2)

تَتَّخِذُ هَذِهِ السَّرْدِيَّاتُ الصُّغْرَى أَشْكَالًا ثَلَاثَةً هِيَ : مِحْكِيَّاتُ سَرْدِيَّةٍ دَاخِلِيَّةٍ تُضِيءُ أَنَا الرَّائِي الرَّحَّالَةَ ، مِحْكِيَّاتُ سَرْدِيَّةٍ عَنِ الْآخَرِ الْمُتَعَدِّدٍ مِنْ خِلَالِ أَوْعَاءٍ تَنْسَجِمُ أَوْ تَخْتَلِفُ مَعَ وَعْيِ الرَّائِي وَمُحْكِيَّاتُ تُخَصُّ سَرْدَ يَوْمِي مِنْ خِلَالِ بَعْضِ الْأَحْدَاثِ وَالتَّوَارِيخِ الْخَاصَّةِ بِالْقَضَاءَاتِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا الرَّائِي .

-أُسُسُ السَّرْدِ فِي أدبِ الرِّحْلَةِ:

تَتَمَثَّلُ أُسُسُ السَّرْدِ فِي أدبِ الرِّحْلَةِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ فِي : السَّفَرِ ، وَالْعُبُورِ ، وَالْمَعْرِفَةِ وَالذَّائِرَةِ وَالْمُنْتَعَةِ . " فَالسَّفَرُ هُوَ الْحَافِزُ وَالِدَّاعِي لِلْحَرَكَةِ وَالْقُدْرَةُ عَلَى التَّفْعِيلِ وَالْحَيَوِيَّةِ، فَيُسَكِّلُ عُضْرًا مَهْمَا يُغْدِي الرِّحْلَةَ فَتَنْطَلِقُ الْأَحْدَاثُ، ثُمَّ يَنْسَجِبُ تَارِكًا الْفُرْصَةَ لِتِيَمَاتٍ أُخْرَى فَبِي نُحْفَةِ النُّظَارِ يَفْتَحُ

1- كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، ت. جمال بلقاسم، دار رؤية للنشر والتوزيع ط1 ، 2018 ، ص 217

2- د. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي " التجنيس. آليات الكتابة. خطاب المتخيل " رؤية للنشر والتوزيع ط 1 . 2006 ص 266

السَّفَرُ السَّرْدُ، وَلَكِنَّهُ يَتَرَجَّعُ لِصَالِحِ تِيَمَاتٍ مُغَايِرَةٍ فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ فِيهَا الرَّاوي فِي مَكَانٍ جَدِيدٍ.⁽¹⁾

وَتَتَنَوَّعُ الْمَعْرِفَةُ الَّتِي يُقَدِّمُهَا أَدَبُ الرُّخَلَاتِ بَيْنَ الْحَقَائِقِ وَالْخُرَافَاتِ، وَهِيَ تَبْنَى عَلَى أُسُسٍ وَخُلْفِيَّاتٍ فِي الدَّائِرَةِ وَالْعَيْنِ ثُمَّ الْقِرَاءَةِ وَالسَّمَاعِ. كَمَا تَتَشَكَّلُ بِنِيَّةِ السَّرْدِ مِنْ دَوَائِرٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْمَشَاهِدَاتِ وَالْأَحْدَاثِ الْمُتَوَلِّدَةِ، وَهِيَ دَوَائِرُ صُغْرَى مُكَتَفِيَةٍ بِذَاتِهَا، تُتِمِّي الدَّائِرَةَ الْكُبْرَى لِلرَّحْلَةِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ.

نَسُجُ ابْنِ بَطُوطَةَ مُعَامِرَاتِهِ الْمَلِيئَةِ بِالتَّشْوِيقِ الْمُعْتَمَدِ عَلَى الْهُرُوبِ وَمَا يُلَاقِيهِ مِنْ مُعَانَاةٍ دَفَعَتْ بِهِ إِلَى حَافَةِ الْمَوْتِ، ثُمَّ مَجِيءِ الْمُنْقِذِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ؛ كُلُّ ذَلِكَ بُغْيَةُ الْإِمْتِنَاعِ مِمَّا جَعَلَ النَّصَّ السَّرْدِيَّ بِنِيَّةِ الْإِمْتِنَاعِ مِنْ خِلَالِ الْحَوَارِ وَالْمَشَاهِدَاتِ عِبْرُ مَفَاصِلِ النَّصِّ وَمُسْتَوِيَّاتِهِ.

1- د. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي " التجنيس. آليات الكتابة. خطاب المتخيل " رؤية للنشر والتوزيع . ط 1 . 2006 ص 268 ، 269.

المطلب الثاني

السرد والوصف في الرحلة

أولاً - السرد :

تتصوّر رحلة ابن بطوطة من حيث النوع والتجنيس تحت ما يُسمّى بأدب الرحلة والذي يكون له شكل قائم بذاته، فبعض النظر عما يوجبه من حقول معرفية متعدّدة ومتنوّعة المشارب، نلاحظ أنه في رحلة ابن بطوطة أنّ الراوي والكاتب شخصيّة واحدة ساهما في إنتاج نص الرحلة ، والذي كان مسيراً لتفاصيلها منذ لحظة البداية إلى العودة لنقطة الانطلاق، فتشكّلت وتكاملت فصولها في حقبة زمنية محدّدة ، وسط ظروف مختلفة مرّ بها الرّحالة، اتّسمت بالفسوة والمعاناة أحياناً واليسر واللطف أحياناً أخرى، وعندما نتمعّن النظر في أسلوب كتابة هذه الرحلة يجب أن نلفت الانتباه إلى مسألتين بالغني الدقة والأهميّة على النحو الآتي :

المسألة الأولى : كان صاحب الفضل الأوّل في ظهور كتاب وصف رحلة ابن بطوطة هو (السلطان أبا عنان) سلطان فاس، وذلك إيماناً منه بالدور الذي قام به ابن بطوطة في رحلته من جميع مناحي الحياة الدينيّة والإقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة، وقد وفّر للسلطان له محرراً أدبياً من كتاب ديوانه وهو (محمد بن جزي الكلبي)، وتشير القرائن أنّ ابن بطوطة في رحلاته لم يكن ذا ميل إلى الكتابة وتدوين رحلاته؛ لأنّه لم يستقر في ذهنه أن يخرج كتاباً متكامل الجوانب يضمّ تفاصيل رحلاته بما فيها من حقائق وعجائب وغرائب .

المسألة الثانية : استند ابن بطوطة في سرده لأحداث الرحلة على مبدأ التذكّر التراجعي واختير الأحداث من خلال ما تحتزّنه ذاكرته من مواقف راسخة، ومحاولة استرجاع الأحداث من خلال ما يتعلّق بالذهن، وذلك لربط الأحداث بعضها البعض، حيث كانت هناك مدّة زمنيّة فاصلة بين زمن أحداث الرحلة وبين تدوينها، فننتج عن هذا حدوث أخطاء في سرد الأحداث بسبب الخطأ والنسيان ، وكثرة المواقف التي غطت جوانب شتى في كافّة شؤون الحياة على مدار ثلاثون عاماً هو زمن الرحلة، وظهر ذلك جلياً في الخطأ في أسماء بعض البلاد الأجنبيّة التي زارها ابن بطوطة وكذلك بعض التواريخ حيث اعتمد ابن بطوطة على ذاكرته.⁽¹⁾

¹ - أغناطيوس كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، دار الغرب الإسلامي ، ط2 ، تونس 1987 ، ص465.

فَالْتَذَكُّرُ التَّرَاجُعِي يَرْتَبِطُ بِاسْتِرْجَاعِ الرَّحَالَةِ لِلْمَوَاقِفِ الَّتِي مَرَّ بِهَا فِي فُضَاءَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ؛ وَذَلِكَ لِرَبْطِ الْأَحْدَاثِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ " فَالذَّاكِرَةُ تَجْعَلُ عِلَاقَةً الرِّمَنِ بِالْفُضَاءِ وَطَيِّدَةً وَقَوِيَّةً ، فَالْإِنْتِقَالُ عِبْرُ الْأَزْمِنَةِ الْمُخْتَلِفَةِ مُرْتَبِطٌ بِالْفُضَاءَاتِ الَّتِي حَلَّ بِهَا الرَّحَالَةُ، فَأُشِيرَ عِبْرَ الْعُوصِ فِي الْأَزْمِنَةِ الْبُعِيدَةِ عَلَى التَّحَوُّلَاتِ الَّتِي عُرِفَتْهَا الْفُضَاءَاتُ؛ غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَمْنَعْ الذَّاكِرَةَ مِنَ الْإِسْتِغَالِ فِي مُسْتَوَى آخِرٍ مِنْ خِلَالِ تَأْسِيسِ مَنَظُومَةٍ فَضَائِيَّةٍ خَاصَّةٍ يُدْرِكُ الْمُتَلَقِّي خُصُوصِيَّتَهَا وَهُوَ يَنْتَقِلُ تَدْرِيجِيًّا عِبْرَ خِطَابِ الرِّحْلَةِ وَيُعِيدُ بِنَاءَهُ عِنْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنْهُ. (1)

إِنَّ الْمَشَارَكَةَ بَيْنَ الرَّحَالَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ وَالْكَاتِبِ ابْنِ جُزَيٍّ جُعِلَتْ نَصُّ الرِّحْلَةِ يَفْتَقِرُ فِي بَعْضِ أَجْزَائِهِ إِلَى التَّنَاسُبِ وَالتَّنَاسُقِ فِي الْأَفْكَارِ ، حَيْثُ لَجَأَ ابْنُ بَطُوطَةَ فِي سَرْدِهِ لِلْأَحْدَاثِ إِلَى لُغَةٍ قَصَصِيَّةٍ بَسِيطَةٍ تُمِيلُ إِلَى الْمُحَادَثَةِ، بَيْنَمَا لَجَأَ ابْنُ جُزَيٍّ فِي تَدْوِينِهِ لِلرِّحْلَةِ إِلَى صِيَاعَةٍ أَدَبِيَّةٍ لَكِنَّ بِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ جَهْداً كَبِيراً تَمَّ إِضَافَتُهُ لِلتَّرَاثِ الْإِنْسَانِيِّ الْأَدَبِيِّ فِي مَجَالِ الْقَصَصِ وَالْحِكَايَاتِ الشَّعْبِيَّةِ. (2)

فِي هَذَا الْمَقَامِ نُرَكِّزُ عَلَى تَقْنِيَةِ السَّرْدِ وَخُدُودِ تَدَاخُلِهَا مَعَ الْوُصْفِ وَالْحَوَارِ فَالْوُصْفُ وَالْحَوَارِ تَابِعِينَ لِلسَّرْدِ، وَخَادِمِينَ لَهُ، وَسَيُورَةُ السَّرْدِ وَتَنَامِيَةُ تَقْتَضِي خُضُورَ الْوُصْفِ الْمُهَيَّئِ لِلْفُضَاءِ الَّذِي تَرْتَادُهُ الشَّخْصِيَّاتُ .. (3)

تَجَلَّى الْوُصْفُ وَالْحَوَارِ كَتَقْنِيَةٍ مِنَ تَقْنِيَّاتِ السَّرْدِ عِنْدَ ابْنِ بَطُوطَةَ فِي مَسِيرَتِهِ السَّرْدِيَّةِ ، وَذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضُوعٍ مِنْ رِحَالَتِهِ . فَيَقُولُ فِي وَصْفِ بَطِيخٍ خَوَارِزْمِيٍّ: " وَبَطِيخٌ خَوَارِزْمِيٌّ لَا مِثْلَ لَهُ فِي بِلَادِ الدُّنْيَا شَرْقًا وَغَرْبًا إِلَّا مَا كَانَ مِنْ بَطِيخٍ بَخَارِيٍّ يَلِيهِ بَطِيخٌ إِصْفَهَانِيٍّ ، وَقِشْرُهُ أَخْضَرُ وَبَاطِنُهُ أَحْمَرٌ ، وَهُوَ صَادِقُ الْحَلَاوَةِ، وَفِيهِ صَلَابَةٌ، وَمِنْ الْعَجِيبِ إِنَّهُ يَقْدَرُ وَيَنْبَسُ فِي الشَّمْسِ وَيَعْلُ فِي الْقَوَاصِرِ كَمَا يَصْنَعُ عِنْدَنَا بِالشَّرِيحَةِ وَالتَّيْنِ الْمَالِقِيٍّ، وَيَحْمِلُ مِنْ خَوَارِزْمٍ إِلَى أَقْصَى بِلَادِ الْهِنْدِ وَالصِّينِ، وَلَيْسَ فِي جَمِيعِ الْفَوَاكِهِ الْيَابِسَةِ أَطْيَبُ مِنْهُ " (4)

لَقَدْ أَنْشَأَ أَدَبُ الرُّحَلَاتِ نَصّاً رَحْلِيّاً خَاصّاً يَعُدُّ سِمَةً بَارِزَةً لِهَذَا النُّوعِ مِنَ الْأَدَبِ ، وَذَلِكَ وَفَّقَ أُطُرَ لُغَوِيَّةً مُخَدَّدَةً ، وَسِيَاقَاتٍ تَتَفَاعَلُ فِيهَا بَيْنَهُمْ لِنَتَكَشِفُ لَنَا صُورًا مِنْ أَسَالِيبِ خِطَابِ أَدَبِ الرِّحْلَةِ الْقَائِمِ

1- سعيد جبار ، خطاب الرحلة دار رؤية للنشر بمصر 2017م ص.55

2- حسين محمود حسين ، أدب الرحلة عند العرب، ط2، دار بيروت ، لبنان، 1983، ص.52.

3- سعيد جبار ، خطاب الرحلة، مرجع سابق، ص.53

4- ابن بطوطة ، تحفة النظار، تحقيق التازي ج3، مرجع سابق، ص 14

على الأبنية النصية المختلفة واستخدام اللغة التي تساعد على تحقيق التواصل بين كلا من الكاتب والقارئ والموضوع والمقام .

وعند تناولنا الجانب السردى والوصف لهذه الرحلة يجب أن نميز بين اللغة المستخدمة في مقدمتها التي تعتمد على التأنيق وترويق العبارة وتزيينها بالحلي الأسلوبية ، وبين لغة وصف السفر التي تميل إلى البساطة والسهولة والسلاسة البعيدة عن الصنعة والتكلف المبتذل .

إن لغة السرد القصصي التي يعرض فيها الرحالة أخباره وحكاياته تعتبر لغة قصصية بسيطة تميل إلى لغة المحادثة الشخصية⁽¹⁾.

نلاحظ في نص هذه الرحلة أن البناء الفني لجميع أجزائها يظهر بصورة نمطية فتتبع خط سير الرحلة منذ إنطلاقها وحتى العودة ، يكسب النص فضاء واسعاً لتوظيف العناصر الأدبية التي تطلبها التقنيات السردية، والتي ترتقي بها إلى مستوى الخيال الفني، وتصل بها إلى عالم الأدب . لقد إلتصق ابن بطوطة السرد الارتجالي في بعض المواقف الذي ظهر جلياً في القول وتوالي فعل السرد بين الفضاء الزماني والمكاني الذي يشكل الإطار الخارجي للرحلة ، حيث ظهرت الرحلة نصاً سردياً يتحقق في زمن وينتهي في مكان الرجوع، علاوة على ذلك فإنه أستخدم الحوار بصورة بارعة فجاءت أحداث حكاياته متحركة نابضة بالحياة، وهذا ما جعل أسلوبه أقرب إلى أسلوب الأديب القاص الذي يهدف إلى إمتاع المتلقي بما يمتلكه من أدوات وتقنيات في نصه والذي من خلاله يستطيع مزج الواقع بالخيال .

يقول دكتور شوقي ضيف " وفي كل هذه العوالم يكتب الرحالة بمخيلة القصاص الذي يسند الواقع بالخيال والحقيقة بالأسطورة⁽²⁾ . وبالنظر إلى إطار الرحلة ومنهجيتها بصورة عامة ، نجد أنها جاءت ملتزمة بمخاور البناء الفني الأساسي والمتمثلة في :

- المقدمة : حيث جاءت منسجمة مع المضمون الذي احتوته الرحلة، حيث يشعر القارئ في بدايتها بالفكرة وبالموضوع الذي يقصده الرحالة. حيث بدأت بحمد الله والشأن على رسوله الكريم⁽³⁾
- الغرض : وفيه توظف الرحلة كل الأساليب والتعابير المرتكزة على مبدأ السرد والوصف وتقنية الحوار، وذلك لإبراز هدف الرحلة وعناصر البناء فيها .

1- حسين محمود حسين ، أدب الرحلة عند العرب ، مرجع سابق ، ص 48.

2- شوقي ضيف ، الرحلات ، ط 4 ، دار المعارف ، كورنيش النيل ، القاهرة 1999 . ص 6.

3- ابن بطوطة ، تحفة النظار ، تحقيق عبد الهادي التازي ج 1 ، مصدر سابق ، ص 149 .

- الخاتمة : وفيها ذكر الغرض من تدوين الرحلة (في الثالث من ذي الحجة عام 756 هـ) ثم ختمت بالحمد والصلاة على الرسول الكريم .

لقد جاء نص رحلة (ابن بطوطة) نصاً قصصياً سردياً يزوي الأخذات ويصور الشخصيات مع التنوع في الأسلوب بين السرد القصص المشوق، والوصف الدقيق للواقع الذي يحرك المشاعر والعواطف، وكذلك إشتماله على تقنية الجوار، وخروجه من نطاق المعقول المؤلف إلى محيط غير الواقع والممكن.

يقول الدكتور شعيب حليفي : " في تحفة النظر يفتح السرد، ولكنه يتراجع لصالح تيمات مغايرة في اللحظة التي يتوقف فيها الراوي في مكان جديد، فتخلق أحداثاً ووقائع، ويتم استدعاء السفر على المستوى الذهني لدعم مشاهداته، وتمكينه من التفاعل مع باقي الأحداث ثم يعود إلى السفر والانتقال إلى فضاء آخر وأحداث أخرى للتجسير والربط والتوازن داخل النص الرحلي فيحزر الخبر ليمتدح الحكيم بالانتقال والتنوع ⁽¹⁾

ثانياً - الوصف في رحلة ابن بطوطة :

برزت جماليات الصورة السردية في هذا النص الرحلي من خلال الاعتماد على أسلوب الوصف الدقيق، وتنوع سمات الفن القصصي القائمة على الشخصيات والمواقف والأحداث والجوار والفضاء الزماني والمكاني.

خلفت رحلة ابن بطوطة بالكثير من المشاهدات والأحداث والأخبار والحكايات والغرائب والعجائب وهي أقرب ما تكون أساطير شعبية لم يكن عاش أحداثها، وإنما سمع تفاصيلها، ف رواها واستقرت في أذهان الناس. ⁽²⁾

تمكن ابن بطوطة من أن يرى العالم القديم كله جواباً وشاعراً وقاضياً وسفيراً ليصفه في هذه الموسوعة وصفاً فائقاً ورصيناً وقف فيه على عادات الشعوب ودياناتها وحياتها اليومية والعسكرية وتحديث فيه عن أهله أو حكامها وعلمائها وتجارتها وتجارها، ووصف البناء والعمران ومزايها وطرائقها . كما وصف الألبسة بالوانها وأشكالها وأنواعها، ولم ينس الأطعمة وأنواعها وطريقة صناعتها . ومما يزيد من جماليات هذا الأثر التاريخي هو الواقع الراخر بالحركة والتعبئة اليومية

1- شعيب حليفي الرحلة في الأدب العربي، التجنيس، آلية الكتابة، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة 2006م، ص267.

2- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، الزمن، السرد، ط3، المركز الثقافي الغربي، الدار البيضاء 1997م، ص34.

لِرَوَايَا الْحَيَاةِ، سِيَاسَةِ وَتِجَارَةِ وَزَّرَاعَةِ وَعُلُومًا. فِي حَدِيثِ ابْنِ بَطُوطَةَ عَنْ مَدِينَةِ الْبَصْرَةِ حِينَ زَارَهَا يَصِفُهَا وَصْفًا دَقِيقًا وَيَصِفُ أَهْلَهَا وَأَمِيرَهَا، يَقُولُ: "وَلَمَّا تَحَصَّلْتُ لَنَا زِيَارَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، سَافَرَ الرَّكْبُ إِلَى بَغْدَادٍ وَسَافَرْتُ إِلَى الْبَصْرَةِ صُحْبَةً رَفَقَةً مِنْ كَبِيرَةٍ مِنْ عَرَبِ خَفَاجَةٍ، وَهُمْ أَهْلُ تِلْكَ الْبِلَادِ، وَلَهُمْ شَوْكَةٌ عَظِيمَةٌ، وَبَأْسٌ شَدِيدٌ، وَلَا سَبِيلَ لِلسَّافِرِ فِي تِلْكَ الْأَقْطَارِ إِلَّا فِي صُحْبَتِهِمْ، فَأَكْثَرْتُ جَمَلًا عَلَى يَدِ أَمِيرِ تِلْكَ الْقَافِلَةِ شَامِرِ بْنِ دُرَّاجٍ، وَخَرَجْنَا مِنْ مَشْهَدِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَزَلُّنَا الْخَوْرَنُقُ مَوْضِعُ سُكَّانِ الثُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذِرِ، وَأَبَائِهِ مِنْ مُلُوكِ بُيُوتِ مَاءِ السَّمَاءِ (1) وَيَصِفُ مَسْجِدَ الْبَصْرَةِ وَصِفًا دَقِيقًا فَيَقُولُ: "وَهَذَا الْمَسْجِدُ مِنْ أَحْسَنِ الْمَسَاجِدِ وَصَحْنُهُ مُتَنَاهِي الْإِنْفِسَاحِ مَفْرُوشٌ بِالْحَضْبَاءِ الْحَمْرَاءِ الَّتِي يُؤْتَى بِهَا مِنْ وَادِّ السَّبَاعِ وَفِيهِ الْمُصْحَفُ الْكَرِيمُ الَّذِي كَانَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقْرَأُ فِيهِ لَمَّا قُتِلَ، وَأَثَرُ تَغْيِيرِ الدَّمِ فِي الْوَرَقَةِ الَّتِي فِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: "فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (2)

كَمَا مَرَّ ابْنُ بَطُوطَةَ بِالْكَثِيرِ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالسَّلَاطِينِ وَالْقَادَةِ الْعَسْكَرِيِّينَ وَالْقَضَاةِ فِي مُخْتَلَفِ الْأَمْصَارِ الَّتِي وَصَلَهَا وَوَقَّفَ فِي الْكَثِيرِ مِنْ أَجْزَاءِ الرِّحْلَةِ عَلَى طَرَائِقِ حُكْمِهِمْ، وَصَوَّرَ لِبَاسَهُمْ وَعَدَدَهُمُ الْقِتَالِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ كَمَا صَوَّرَ قُصُورَهُمْ وَرِيَاشَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ وَطُرُقَ مَعَامِلَاتِهِمْ مَعَ الرِّعْيَةِ، وَلَمْ يَتْرُكْ شَارِدَةً وَلَا وَارِدَةً فِي هَذَا الشَّأْنِ إِلَّا وَجَاءَ بِهَا تَغْيِيرًا لِقَطْنَتِهِ فِي مُرَاقَبَةِ الْأَمْنَةِ. فَالْمَكَانُ الْقَدِيمُ مُهَيِّمٌ عَلَى هَذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ. فَالْمَدُنُ الَّتِي رُبَّمَا أُنْذِرُ الْكَثِيرُ مِنْهَا فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ تَحْتَاجُ إِلَى دِرَاسَاتٍ كَثِيرَةٍ وَإِحْيَاءٍ جَدِيدَةٍ. فَعِنْدَ مُرُورِهِ بِإِيذِجَ وَتَسْتُرُ يُذَكِّرُ مَنَاقِبَ مَلِكِهَا، يَقُولُ: "وَمَلِكٌ إِيْذِجَ السُّلْطَانُ أَتَابَكَ أَفْرَاسِيَابُ ابْنُ السُّلْطَانِ أَتَابَكَ أَحْمَدُ، وَأَتَابَكَ عِنْدَهُمْ سِمَةٌ لِكُلِّ مَنْ يَلِي هَذِهِ الْبِلَادَ مِنْ مَلِكٍ، وَتَسْمَى هَذِهِ الْبِلَادُ بِلَادَ اللُّورِ، وَوَلِي هَذَا السُّلْطَانُ بَعْدَ أَخِيهِ أَتَابَكَ يَوْسُفَ وَوَلِي يَوْسُفَ بَعْدَ أَبِيهِ أَتَابَكَ أَحْمَدُ، وَكَانَ إِحْمَدُ الْمَذْكُورُ مَلِكًا صَالِحًا سَمِعَتْ مِنْ أَلْقَاتِ بِلَادِهِ أَنَّهُ عَمَّرَ أَرْبَعِمِائَةً وَسِتِّينَ زَاوِيَةً بِبِلَادِهِ، مِنْهَا بِحَضْرَةِ إِيْذِجَ أَرْبَعٌ وَأَرْبَعُونَ وَقِسْمُ خَرَجِ بِلَادِهِ أَثَلَاثًا، فَالْثُلُثُ مِنْهُ لِنَفَقَةِ الرُّوَايَا وَالْمَدَارِسِ، وَالْثُلُثُ مِنْهُ لِمَرْتَبِ الْعَسَاكِرِ وَالْثُلُثُ لِنَفَقَتِهِ وَنَفَقَةِ عِيَالِهِ وَعَبِيدِهِ وَخَدَمِهِ، وَيَنْبَعُ مِنْهُ هَدِيَّةٌ لِمَلِكِ الْعِرَاقِ فِي كُلِّ سَنَةٍ وَرُبَّمَا وَفِدٍ عَلَيْهِ بِنَفْسِهِ" (3)

1- تحفة النظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار، ابن بطوطة، تحقيق بعد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية ط1، 1997، ج2، ص7.

2- سورة البقرة الآية 137.

3- تحفة النظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار، ابن بطوطة، تحقيق بعد الهادي التازي، المصدر السابق، ج2، ص24.

إنَّ مَبْدَأَ الْوَصْفِ فِي هَذِهِ الرَّخْلَةِ يَتَشَكَّلُ بِصُورَةٍ تُلْقَائِيَّةٍ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ لُغَةِ السَّرْدِ وَبُنْيَتِهِ وَتَرَكيبَتِهِ، وَتَقْنِيَّتُهُ الْقَصَصِيَّةِ الَّتِي تُعَبِّرُ عَنِ انْطِبَاعَاتِ الرَّحَالَةِ وَمُشَاهِدَاتِهِ لِمُخْتَلِفِ الْأَمَاكِنِ الَّتِي زَارَهَا، فَوُصِفَ كُلُّ مَا رَأَى فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ، وَالسَّكَّانِ وَالْعُمَرَانِ، وَمَا يَتَعَاطَاهُ النَّاسُ مِنْ مُخْتَلِفِ الْأَنْشِطَةِ وَالْمُنَاسِبَاتِ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عَادَاتٍ وَتَقَالِيدٍ بِكُلِّ دِقَّةٍ وَوُضُوحٍ فَأُرْتِسِمَتْ تِلْكَ الْمَشَاهِدُ وَالصُّوَرُ فِي ذِهْنِ الْمُتَلَقِّي .

كَمَا اتَّصَحَّ مِنْ خِلَالِ اللُّغَةِ الْمُسْتَحْدَمَةِ فِي هَذِهِ الرَّخْلَةِ قُدْرَةُ ابْنِ بَطُوطَةَ عَلَى تَوْظِيْفِهِ لِلْوَصْفِ كَوُصْفِ الْإِنْسَانِ، الطَّبِيعَةِ، وَوُصِفَ الْحَضَارَةُ - الَّذِي اسْتَسَمَّ بِالْوُضُوحِ وَالشُّمُولِ، وَظَهَرَ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ تَنَاوُلِهِ لِقَضَايَا عَامَّةٍ تَشَكَّلُ فِي مُجْمَلِهَا تَأْطِيرٌ عَامٌّ لِمَوْضُوعَاتِ هَذِهِ الرَّخْلَةِ .

إنَّ لِلْوَصْفِ قِيَمَةً كُبْرَى بِإِعْتِبَارِهِ وَاحِدًا مِنْ مُحْسِنَاتِ الْخِطَابِ السَّرْدِيِّ، وَذَلِكَ لَمَّا يَمْتَلِكُهُ مِنْ دَوْرِ جَمَالِيٍّ فِي تَمَثُّلِ الْأَشْيَاءِ فِي حُدُودِهَا الْمَكَانِيَّةِ وَالزَّمَانِيَّةِ، وَنَمَّا يَتَضَمَّنُهُ مِنْ دَوْرِ فَاعِلٍ فِي إِنتَاجِ الْمَعْنَى وَتَقْرِيبِ الصُّورَةِ لِلْأَذْهَانِ . كَمَا تَتَخَدَّدُ صِيغَةُ الْوُصْفِ فِي مُقَابِلِ صِيغَةِ الْحِكْيِ، فَكُلُّ سَرْدٍ يَتَضَمَّنُ شَيْءًا مِنَ الْوُصْفِ لِعَرْضِ الْأَحْدَاثِ وَالْأَفْعَالِ وَهِيَ الَّتِي تُشَكِّلُ السَّرْدَ بِمَعْنَاهُ الْخَاصِّ، كَمَا يَتَضَمَّنُ أَيْضًا عَرْضًا لِأَشْيَاءٍ وَأَشْخَاصٍ هِيَ نِتَاجُ مَا نَدْعُوهُ الْيَوْمَ وَضْفًا. (1)

أُتِيسِمَ الْوُصْفُ فِي رِخْلَةِ (ابْنُ بَطُوطَةَ) فِي بَعْضِ الْفَتَرَاتِ بِأَنَّهُ مُسْتَقِلٌّ وَمُنْفَصِلٌ وَكَأَنَّهُ اسْتِرَاحَةٌ فِي ثَنَايَا السَّرْدِ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا يَصِفُ مَشْهَدًا أَوْ مَكَانًا أَوْ شَخْصِيَّةً وَكَذَلِكَ عِنْدَمَا يَعُودُ إِلَى اسْتِثْنَائِ رِخْلَةِ السَّرْدِ مَرَّةً أُخْرَى، وَمِثَالًا عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ وَصْفِهِ لِمَشَقِّ الَّذِي أَقَاضَ كَثِيرًا فِي مَحَاسِنِهَا حَيْثُ قَالَ فِي وَصْفِهَا " هِيَ الَّتِي تَفْضُلُ جَمِيعَ الْبِلَادِ حُسْنًا وَتَتَقَدَّمُهَا جَمَالًا وَكُلُّ وَصْفٍ وَإِنْ طَالَ فَهُوَ وَصْفٌ قَاصِرٌ عَنْهَا، وَفِي فَتَرَاتٍ أُخْرَى يَكُونُ مُوجَزًا مُجْمَلًا .

وَقَدْ يَكُونُ الْوُصْفُ عَلَى شَكْلِ نُصُوصٍ كَامِلَةٍ تَسْتَعْرِقُ جُمْلَةً مِنَ الصَّفَحَاتِ، كَمَا فَعَلَ فِي وَصْفِهِ لِمَدِينَةِ دَلْهِي وَسُورِهَا الْعَظِيمِ، يَقُولُ: " وَالسُّورُ الْمُحِيطُ بِمَدِينَةِ دَلْهِي لَا يُوجَدُ لَهُ نَظِيرٌ، عَرْضُ حَائِطُهُ إِحْدَى عَشْرَةَ ذِرَاعًا ... وَيَمْشِي فِي دَاخِلِ السُّورِ الْفُرْسَانُ وَالرُّجَالُ مِنْ أَوَّلِ الْمَدِينَةِ إِلَى آخِرِهَا ... وَأَسْفَتْ هَذَا السُّورَ مَبْنِيٌّ بِالْحَجَارَةِ وَأَعْلَاهُ بِالْأَجْرِ (2)

1- محمد بوعزة، تحليل النص السردى وتقنيات ومفاهيم، ط 1، الدار العربية للعلوم والنشر، الرباط، المغرب،

2010م، ص 119.

2- ابن بطوطة، تحفة النظار، تحقيق التازي ج 3 المصدر السابق، ص 105

بَيْنَمَا يَخْتَلِفُ الْأَمْرُ بِالنِّسْبَةِ لِلسَّرْدِ ، الَّذِي يَصْغُبُ عَلَيْهِ التَّخَلِّي عَنْ الْوَصْفِ الَّذِي يُوظَّفُ تَوْظِيفًا مَوْضُوعِيًّا فَيَنْظُرُ إِلَى الْأَشْيَاءِ كَمَا هِيَ ، وَلَعَلَّ هَذَا يَظْهَرُ جَلِيًّا فِي رِحْلَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ الَّذِي يُشَخِّصُ الْأَشْيَاءَ الْمُوصُوفَةَ عَنْ طَرِيقِ تَصْوِيرِهَا بِالْإِعْتِمَادِ عَلَى الْمُعَايِنَةِ وَالْمَلَاخَظَةِ وَالْوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَشْيَاءِ كَمَا فِي الْأَمْثَلَةِ السَّابِقِ ذَكَرْهَا . وَبِهَذَا يُؤَدِّي الْوَصْفُ وَظِيفَةُ جَمَالِيَّةٍ وَعَمَلًا تَرْبِيعِيًّا يُشْكَلُ اسْتِرَاحَةً فِي وَسْطِ الْأَخْذَاتِ السَّرْدِيَّةِ ، فَيَكُونُ وَصْفًا صِرْفًا لَا يَتَخَلَّلُهُ سَرْدٌ .

كَمَا اتَّخَذَ الْوَصْفُ فِي رِحْلَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ صُورًا وَأَشْكَالًا شَتَّى ، وَفَقًا لِنَظَرِ الرَّحَّالَةِ الرَّاصِدَةِ وَمُشَاهَدَتِهِ الْمُسْتَمِرَّةِ ، مِمَّا شَكَلَ جَذْبًا وَاهْتِمَامًا لَدَى الْمُتَلَقِّي وَتَتَمَثَّلُ هَذِهِ الْأَشْكَالُ فِي وَصْفِ الْأَشْخَاصِ وَعَادَتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ عَنِ التَّعْرِيفِ بِهَوِيَّةِ الْمُوصُوفِ وَوُصِفَ الْمَظْهَرُ الْخَارِجِيُّ وَالسَّلُوكُ وَالطَّبَائِعُ وَكَذَلِكَ وَصِفَ الْمَكَانُ وَالزَّمَانُ⁽¹⁾ . فَفِي حَدِيثِهِ عَنْ بِلَادِ خَوَارِزَمٍ مَرَّ بِمَدِينَةِ سَرَاجُوقِ فَوُصِفَ أَهْلُهَا وَعَادَاتُهُمْ ، وَكُلُّ مَا مَرَّ بِهِ يَقُولُ : " وَبِهَذِهِ الْمَدِينَةُ زَاوِيَةٌ لِرَجُلٍ صَالِحٍ مُعَمَّرٍ مِنَ التُّرْكِ ، يُقَالُ لَهُ أَطَا بَقْنَحِ الْهَمَزَةِ وَالطَّاءُ الْمُهْمَلَةُ وَمُعْنَاهَا الْوَالِدُ ، أَضَافْنَا بِهَا وَدَعَا لَنَا ، وَأَضَافْنَا أَيْضًا قَاضِيَهَا وَلَا أَعْرِفُ اسْمَهُ ... وَتَكُونُ الْإِقَامَةُ بِهَا قَدْرًا مَا يَطْبُخُونَ وَيَشْرَبُونَ ، وَهُوَ يَطْبُخُ مِنْ غَلِيَّةٍ وَاحِدَةٍ وَيَكُونُ مَعَهُمُ الْخَلِيعُ مِنَ اللَّحْمِ يُجْعَلُونَهُ عَلَيْهِ وَيُصَبُّونَ عَلَيْهِ اللَّبَنَ . وَكُلُّ إِنْسَانٍ إِنَّمَا يَنَامُ أَوْ يَأْكُلُ فِي عَرَبِيَّتِهِ حَالِ السَّيْرِ . " (2)

وَيَعْتَبَرُ السَّرْدُ وَالْوَصْفُ مِنَ الْمُقَوِّمَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي صِيَاغَةِ نُصُوصِ الرِّحْلَةِ وَتَقْدِيمِ مَا دَلَّهَا لِلْقَارِئِ ، وَهِيَ أَسَالِيبُ تَمَكَّنُ الرِّحْلَةَ مِنْ بِنَاءِ خِطَابِهِ عَلَى أُسُسٍ خِطَابِيَّةٍ تَمْزُجُ بَيْنَ التَّعْبِيرِ الْمُبَاشِرِ مِثْلَ " الْحَوَارِ ، وَالتَّعْبِيرِ غَيْرِ الْمُبَاشِرِ مِثْلَ السَّرْدِ وَالْوَصْفِ " (3) .

مِنْ خِلَالِ مَا سَبَقَ يُمَكِّنُ الْقَوْلُ أَنَّ السَّرْدَ وَالْوَصْفَ فِي رِحْلَةِ (ابْنِ بَطُوطَةَ) يُمَثِّلَانِ أَدَبَ الرِّحْلَةِ وَيَسِيرَانِ وَفَقَ خَطَّيْنِ مُتَوَازِيَيْنِ ، وَقَدْ يَتَقَاطَعَانِ عِنْدَ نَقْطَةٍ مُحَدَّدَةٍ لِيُفْسَحَ إِحْدَاهُمَا الْمَجَالَ لِلْآخَرِ لِيُنْطَلَقَ مُعْتَمِدًا عَلَى سِيَاقَاتٍ وَتَرَكيِبٍ لُغَوِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ ثُمَّ يُعَاوِدَانِ الرِّكْضَ مُجَدِّدًا فِي نَفْسِ الْإِتِّجَاهِ وَتَخْضَعُ الْمَسَافَةُ بَيْنَهُمَا إِلَى نِسْبَةٍ وَتُنَاسِبُ فَإِذَا كَانَ لِلْسَّرْدِ الصَّوْتُ الْأَعْلَى ، فَإِنَّ الْوَصْفَ يَخْبُو صَوْتُهُ قَلِيلًا ، وَالْعَكْسُ صَحِيحٌ .

1- عبد الرحيم مودن ، أدبية الرحلة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1996 ، ص10 .

2- ابن بطوطة ، تحفة النظار ، تحقيق عبد الهادي التازي ، ج3 ، المصدر السابق ، ص7

3- لطفي جبيش ، الإنسان والمكان في الثقافة الإسلامية ، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة تونس ، 2011 ، ص298 .

المبحث الثالث

المقاربة السردية الثقافية في رحلة ابن بطوطة.

يُعدُّ النصُّ السَّرديُّ نوعاً من أنواع النُّصوص الأدبية التي يَتِمُّ بها تَحْوِيلُ مَجْمُوعَةٍ مُتَسَلِّسَةٍ مِنَ الْوَقَائِعِ إِلَى نَصِّ مَكْتُوبٍ، وَيُشْتَرَطُ أَنْ تَكُونُ هَذِهِ الْوَقَائِعُ مُتَسَلِّسَةً ضِمْنَ تَرْتِيبِ زَمَنِيٍّ أَوْ مُنْطَقِيٍّ، وَيَجِبُ أَنْ تَكُونُ الْوَقَائِعُ مُرْتَبِطَةً مَعاً دُونَ ذِكْرِ حَدَثٍ مَعْرُولٍ عَنِ الْآخَرِينَ، كَمَا يُشْتَرَطُ فِيهِ أَنْ تَكُونُ الْأَخْذَاتِ مُتَطَوِّرَةً وَمُتَغَيِّرَةً بِأَنْ تَبْدَأَ مِنْ حَالٍ وَتَتَطَوَّرُ لِتَصِلَ إِلَى حَالٍ أَفْضَلٍ وَمُخْتَلَفٍ وَأَنْ يَكُونُ النَّصُّ خَادِماً لِفِكْرَةٍ أَوْ عِبْرَةٍ سَوَاءً كَانَتْ أَدَبِيَّةً أَوْ سِيَاسِيَّةً أَوْ أَخْلَاقِيَّةً أَوْ دِينِيَّةً، وَتَنْدَرِجُ الْقَصَصَ وَالرَّوَايَاتِ وَالْخُرَافَاتِ وَالسَّبْقُ الصَّحْفِيُّ وَالتَّارِيخُ تَحْتَ مَفْهُومِ النَّصِّ السَّرديِّ .

- الرِّحْلَةُ مُعَايِنَةُ الْمَكَانِ وَتَمَثُّلَاتِ الْخُصُورِ .

لَقَدْ أَحْسَنَ ابْنُ بَطُوطَةَ وَصَفَ كُلَّ مَا مَرَّ بِهِ مِنْ أُمَمٍ وَأَمَاكِنٍ وَفَضَائِلٍ مُتَعَدِّدَةٍ الْمَبَانِي وَالْمَسَاجِدِ وَالشُّورَاعِ وَالْأَسْوَارِ ، وَالْحُكَّامِ وَالْأُمَرَاءِ وَعَادَاتِ الشُّعُوبِ وَتَقَالِفَاتِهِمْ حَتَّى غَدَتْ رِحْلَتُهُ مُتَمَثِّلَةً أَمَامَ الْمُتَلَقِّي كَأَنَّهُ يُطَالَعُ فِضَاءَاتِ الرِّحْلَةِ بِأَمِّ عَيْنِيهِ .

يَقُولُ ابْنُ بَطُوطَةَ : " ثُمَّ وَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةِ طَرَابُلُسٍ ، وَهِيَ إِحْدَى قَوَاعِدِ الشَّامِ وَبُلْدَانُهَا الصَّخَامُ تَخْتَرِقُهَا الْأَنْهَارُ ، وَتَحْفُفُهَا الْبَسَاتِينُ وَالْأَشْجَارُ ، وَيَكْتَنِفُهَا الْبَحْرُ بِمِيَاهِهِ الْعَمِيقَةِ وَالْبَرِّ بِخَيْرَاتِهِ الْمُقِيمَةِ وَلَهَا الْأَسْوَاقُ الْعَجِيبَةُ ، وَالْمَسَارِخُ الْخَصِيبَةُ وَالْبَحْرُ عَلَى مِيلَيْنِ مِنْهَا وَهِيَ حَدِيثَةُ الْبِنَاءِ " (1)

إِنَّ مُجَرَّدَ طَرَحِ السُّؤَالِ حَوْلَ طَبِيعَةِ السَّرْدِ يَدْعُونَا إِلَى التَّفَكُّيرِ بِطَبِيعَةِ الثَّقَافَةِ فِي حَدِّ ذَاتِهَا ... وَنَظَرًا إِلَى أَنَّ السَّرْدَ وَعَمَلِيَّةَ السَّرْدِ هُمَا مِنْ وَاقِعِ الثَّقَافَةِ عَالَمِيًّا ، فَإِنَّهُمَا لَيْسَا مِنْ قَبِيلِ الْمَشَاكَلَةِ بِمَقْدَارٍ مَا هُمَا مُجَرَّدُ مُعْطِيَّاتٍ، وَكَمَا عَلِقَ الرَّاجِلُ رُولَانَ بَارْت فَإِنَّ السَّرْدَ مَوْجُودٌ بِبَسَاطَةٍ كَالْحَيَاةِ نَفْسُهَا أُمَمِي وَعَابِرٌ لِلتَّارِيخِ وَلِلثَّقَافَاتِ " (2).

لَقَدْ أَكَّدَ كَثِيرٌ مِنَ النُّقَادِ عَلَى هَذِهِ الْعَلَاqَةِ بَيْنَ السَّرْدِ وَالثَّقَافَةِ حَيْثُ أَكَّدَ (فوكو) أَنَّ تَنْظِيمَ الْخِطَابِ لَا يَتِمُّ فَقَطْ عَبْرَ مُحَدَّدَاتِ الظُّرُوفِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ ... فَالْخِطَابُ لَيْسَ وَسِيلَةً مُحَايِدَةً

1- ابن بطوطة ، تحفة النظار ، تحقيق عبدالفتاح التازي ج 1 ، المرجع السابق ، ص 265

2- هايدن وايت ، محتوى الشكل ، الخطاب السردى والتمثيل التاريخي ، ترجمة د. نايف الياسمين ص 132 ، هيئة البحرين للثقافة والآثار ، المنامة ، ط 1 ، 2017 - ص 27.

لِتَشْكِيلِ وَنَقْلِ الْقِيَمِ وَالْمَعَانِي وَالْمَعَارِفِ الَّتِي تُوجَدُ خَارِجَ حُدُودِهِ ، بَلْ هُوَ تَأْسِيسِي لَهَا ... فَالْخِطَابُ يَبْنِي وَيُحَدِّدُ مَوَاضِيعَ الْمَعْرِفَةِ بِطَرِيقَةٍ وَاضِحَةٍ مَعَ اسْتِغْنَاءِ أَشْكَالٍ تَفْكِيرِيَّةٍ أُخْرَى ⁽¹⁾

وَهَلِ السَّرْدُ إِلَّا نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْخِطَابِ ؟ بَلْ مِنْ أَرْقَى وَسَائِلِ الْخِطَابِ الَّتِي تُشَكِّلُ الثَّقَافَةَ وَتُعْرِضُهَا خِلَافَ ظَاهِرَةٍ لَدَى الْأُمَمِ ، فَإِذَا أَجَادَ السَّارِدُ الْخُبْكَ وَالسَّرْدَ كَانَتْ الْقَارِئُ أَكْثَرَ قَبُولًا لِلثَّقَافَاتِ الْمُغْتَرَةِ وَاسْتِيعَابُهَا وَفَهْمُ طَبِيعَتِهَا .

وَالسَّرْدُ لَيْسَ مُجَرَّدُ مَظْهَرٍ لِقِطْعِي لِلْخِطَابِ فَحَسْبُ . " إِذْ إِنَّهُ تَشْكِيلُ عَالَمٍ مُتَخَيَّلٍ تُحَاكُّ صِغَمَتَهُ اسْتِرَاطِيجِيَّاتِ التَّمَثِيلِ ، وَصُورِ الذَّاتِ عَنْ مَاضِيهَا وَكَيُونَتِهَا . وَتَدْعِمُ فِيهِ أَهْوَاءَ وَتَحْيِرَاتٍ ، وَافْتِرَاضَاتٍ تَكْتَسِبُ طَبِيعَةَ الْبُدِيهِيَّاتِ وَنُزُوعَاتٍ وَتَكْوِينَاتٍ عَقَائِدِيَّةٍ يَصُوغُهَا الْحَاضِرُ بِتَغْيِيدَاتِهِ ، بِقَدْرِ مَا يَصُوغُهَا الْمَاضِي بِتَجَلِّيَاتِهِ وَخَفَايَاهُ .

وَهُنَا لَابَدٌ مِنْ بَرُوزِ الْهُويَّةِ الدَّائِيَّةِ الَّتِي تَتَشَكَّلُ فِي مَجَازَاتِ السَّرْدِ كَمَا تُؤَكِّدُ (هيرمينوطيقا بُولُ ريكور) وَتَكْتَسِبُ الْأُمَمَ هُويَاتِهَا الْجَمَاعِيَّةَ عِزُّ قُوَّةِ السَّرْدِ ، فَالْأُمَمُ مَرُويَاتٍ وَسَرْدِيَّاتٍ . ⁽²⁾

تَتَصَافَرُ عَنَاصِرُ السَّرْدِ مِنْ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَأَحْدَاثٍ ... لِلتَّبَيُّرِ مِنْ خِلَالِهَا ثَقَافَةُ كُلِّ بَلَدٍ أَوْ أُمَّةٍ مَرَّ بِهَا إِبْنٌ بِطُوطَةٍ فِي رِحْلَتِهِ الطَّوِيلَةِ ، وَتَبْزُرُ صِفَاتِ الْأَنَا وَالْآخِرِ فِي شَأْيَاهَا لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ يَتَأَمَّلُهَا ، فَلِكُلِّ مَكَانٍ سَرْدِهِ وَالرَّحَالَةَ الَّذِينَ يُجَوِّبُونَ الْأَرْضَ يَغْرِفُونَ ذَلِكَ وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ مِنْ مَكَانٍ لَا يَتَشَابَهُ تَمَامًا وَإِنَّ ذَلِكَ أَحْيَانًا فِي رُحَلَاتِ إِبْنِ بِطُوطَةٍ وَلَكِنْ نَمَّةٌ أَوْجَهُ اخْتِلَافٍ تَظْهَرُ لِلْبَاحِثِ عِنْدَمَا يَقِفُ عِنْدَهَا بِالتَّأَمُّلِ وَالتَّحْلِيلِ ، فَعَلَاقَةُ الْمَكَانِ بِالسَّرْدِ لَا تَتَأَسَّسُ أَثْنَاءَ إِنتَاجِ النَّصِّ السَّرْدِيِّ أَوْ بَعْدَ إِنتَاجِهِ فَقَطْ ، وَلَكِنَّهَا تَبْدَأُ بِشَكْلِ يَعْكِسُ أَثَرُ الْمَكَانِ عَلَى النَّصِّ قَبْلَ كِتَابَتِهِ ؛ وَلِذَا نَرَى عِلَاقَةَ الْمَكَانِ بِالنَّصِّ السَّرْدِيِّ مُمَثَّلَةً فِي ثَلَاثَةِ مَحَاوِرٍ هِيَ :

1 - مَا قَبْلَ النَّصِّ : حَيْثُ يَلْعَبُ الْمَكَانُ دَوْرَ الْمُفَجِّرِ لِمَاقَاتِ الْمُبْدِعِ ، وَيَتَكَرَّرُ أَثَرُهُ فِي رِحْلَةِ إِبْنِ بِطُوطَةٍ فَهُوَ حِينَ يَزُورُ مَدِينَةَ الإسْكَندَرِيَّةِ فِي مِصْرٍ يَصِفُهَا وَضْفًا دَقِيقًا ثُمَّ يَقِفُ عَلَى بَعْضِ ثَقَافَةِ الشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ فِي هَذَا الْوَقْتِ وَمِنْهَا خُرُوجُهُمْ لِمَزَارَةِ الْقُبُورِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ . " لِمَدِينَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ بَابُ السَّيْرِ وَالْإِلَيْهِ يَشْرَعُ طَرِيقُ الْمَغْرِبِ وَبَابُ رَشِيدٍ وَبَابُ الْبَحْرِ وَالْبَابُ الْأَخْصَرُ وَلَيْسَ يَفْتَحُ إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَيُخْرِجُ النَّاسَ مِنْهُ إِلَى زِيَارَةِ الْقُبُورِ وَلَهَا الْمَرْسَى الْعَظِيمُ الشَّانُ وَلَمْ أَرَّ فِي مَرَاسِي

1- كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، مرجع سابق ، ص 192.

2- د. محمد بوعزة، سرديات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف - منشورات ضفاف/دار الأمان للنشر والتوزيع/منشورات الاختلاف. ط1 ، بيروت - سنة 2014 ص 30 .

الدُّنْيَا مِثْلَهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَرْسَى كُولِمٍ وَقَالِيْقُوطِ بِيْلَادِ الْهِنْدِ ، وَمَرْسَى الْكُفَّارِ جِرْدَاقِ بِيْلَادِ الْأَتْرَاكِ
وَمَرْسَى الرِّثْيُونِ بِيْلَادِ الصِّينِ .⁽¹⁾

وَكَذَلِكَ يَغْرِضُ لِنَقَافَةِ أُخْرَى مِنْ نَقَافَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْمِصْرِيِّ حِينَ يَتَعَرَّضُ لِإِعْتِقَادِهِمْ فِي أَوْلِيَائِهِ اللَّهِ
الصَّالِحِينَ مِنْ خِلَالِ تَعَرُّضِهِ لِنَتْلُكَ الْبَلَدَةِ الَّتِي يَنْتَقِلُ إِلَيْهَا بَعْدَ زِيَارَتِهِ دَمَنْهَوْرٍ وَكَيْفَ أَنَّهُمْ يَقْدَرُونَ
هَؤُلَاءِ الْأَوْلِيَائِ ، وَيَجْلُوهُمْ ، وَيُنْصِتُونَ إِلَى كَلَامِهِمْ وَيَقْبَلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ ، وَهَذَا يَظْهَرُ
الْأَنَا عِنْدَ ابْنِ بَطُوطَةَ عِنْدَمَا يَقِفُ عَلَى هَذِهِ الْبَلَدَةِ وَالرُّؤْيَا الَّتِي رَأَاهَا عِنْدَ مُبَيَّتِهِ فِي هَذِهِ الزَّوَايَةِ ،
وَكَأَنَّهُ يُلْبِسُ الْآخِرُ ثَوْبَ نَقَافَتِهِ فَهُوَ يَغْرِضُ فِكْرَهُ وَاعْتِقَادَهُ عَنْ أَوْلِيَائِهِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ مِنْ خِلَالِ الْبَاسِ
الْآخِرِ ثَوْبِ الْأَنَا حِينَ يَخْلَعُ عَلَى الْآخِرِ ثَوْبَ مُعْتَقَدِهِ ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ وَصْفِهِ لِلْمَكَانِ الَّذِي خَلَّ
بِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ ، وَهَذَا لَا بَاسَ بِهِ طَالَمَا أَنَّهُ يَسْرُدُ وَاقِعًا لَا يُخَالِفُ نَقَافَةَ هَذِهِ الْمَكَانِ . يَقُولُ ابْنُ
بَطُوطَةَ : " وَمِنْ عَوَائِدِهِمْ أَنْ يَجْلِسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى سَجَادَةٍ مُخْتَصَّةٍ بِهِ ، وَإِذَا صَلَّوْا صَلَاةَ
الصُّبْحِ قَرَأُوا سُورَةَ الْفَتْحِ ، وَسُورَةَ الْمُلْكِ ، وَسُورَةَ عَمَّ ، ثُمَّ يُؤْتَى بِنُسْخٍ مِنَ الْقُرْآنِ مُجَرَّاةً ، فَيَأْخُذُ كُلُّ
فَقِيرٍ جُزْءًا وَيَخْتِمُونَ الْقُرْآنَ وَيَذْكُرُونَ ثُمَّ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ عَلَى عَادَةِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ يُفْعَلُونَ بَعْدَ
صَلَاةِ الْعَصْرِ . " ⁽²⁾

2- أثناء النص:

يَدْخُلُ الْمَكَانُ فِي نَسِيجِ النَّصِّ ، وَلَا يَقِفُ عِنْدَ شَخْنٍ دَافِعِيَّةِ الْمُؤَلِّفِ لِلْكِتَابَةِ فَقَطْ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ
حَرَكَةِ السَّارِدِ فِي الْمَكَانِ وَتَجَاوُزُهُ أَمَكْنَةَ مُخْتَلِفَةٍ تُغَيِّرُ مِنْ رَتَمِ الْحِكَايَةِ وَتَتَعَرَّضُ لِنَقَافَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ
لَدَى كَثِيرٍ مِنَ الشُّعُوبِ الَّتِي مَرَّ بِهَا الرَّحَّالَةُ ، وَتَدْخُلُ الْأَصْوَاتُ السَّرْدِيَّةُ الْجَدِيدَةُ فِي نَسِيجِ النَّصِّ
السَّرْدِيِّ الَّذِي يَتَأَثَّرُ بِهَذَا التَّنْقُلِ ، يَقُولُ بَوْتور : " مَا أَسهَلُ انْتِقَالِي مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، بَلْ مِنْ بَيْتٍ إِلَى
بَيْتٍ وَفِي تَتَابُعِهِ هَذِهِ الْأَمَكْنَةُ كَمْ مِنْ أَلَاغِيٍّ وَأَغَانٍ يَمَكِّنُ أَنْ تَوَلَّدَ . " ⁽³⁾

ذَلِكَ الْآخَرُ ، وَارَى أَنَّ هَذَا لَا بَاسَ بِهِ فَلَا بُدَّ مِنْ تَأَثُّرِ الرَّحَّالَةِ بِنَقَافَةِ تِلْكَ الْبُلْدَانِ وَالتَّأَثُّرِ فِيهَا إِنَّهَا
طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ الْاجْتِمَاعِيِّ الَّذِي لَا يَحِلُّ فِي مَكَانٍ فَيَخْتَلِطُ بِأَهْلِهِ عَلَى اخْتِلَافِ طَوَائِفِهِمْ فَيُؤَثِّرُ فِيهِمْ
وَيَتَأَثَّرُ بِهِمْ ، وَذَلِكَ لِمَكَانَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ الْعِلْمِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ فَكَانَ كَانَ قَاضِيًا ، وَمِنْ الْمُعَلِّمِ أَنَّ

1- رحلة ابن بطوطة (تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) قدم له وحققه الشيخ محمد عبد المنعم، ج1
ص 37 .

2- ابن بطوطة ، تحفة النظر ، تحقيق التازي ج1 ص 204 .

3- ميشيل يوتور ، بحوث في الرواية الجديدة ، ترجمة فريد أنطونيوس - عويدات - بيروت ط2 - سنة 1986
ص 43 .

القاضي في هذا العصر لم يكن لينال تلك المكانة إلا إذا كان على قدر عالٍ من العلم والفطنة والخبرة .

يقول ابن بطوطة : " ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر تقام فيه الجمعة والطريق يغترضه من شرق إلى غرب وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الإمام أبو عبد الله الشافعي ، وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الوصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والأودية ما لا يحصر يذكر أن مجابه ألف دينار كل يوم ⁽¹⁾

3- بعد النص :

وهذا يخص المتلقي ، ومدى تأثيره بالمكان الذي تعرض له السارد في رحلته ، حيث تحسب للرحالة مدى جودته في عرضه لهذا المكان الذي ظل عالقاً بذهن المتلقي وقدره هذا الرحالة على اختزان أماكن مغايرة لما يعهدها المتلقي أو تقديم المكان الذي يعيشه المتلقي في صورة فنية كما يعيشه المتلقي، بل إن الفضاء الذي يرسمه النص يصنع المتلقي أمام عالم من الممكن رؤيته في الواقع خارج علم النص نفسه، وكذلك يستثمر الحالة العنصر الزمني في حكمه فأحداؤه عادة تبدأ بالفعل الماضي ، وقد يكون ذلك في حكمي ابن بطوطة نظراً للمدة التي استغرقتها في تدوين رحلته فلم يدونها أثناء رحلته بل دونها ابن جزري على لسانه بتكليف من الأمير .

- تقنيات السرد وأثرها في إبراز الثقافة :

تكشف تقنيات السرد عن تداخل الأمكنة في رحلة ابن بطوطة ، تلك التقنيات التي يوظفها الرحالة لتسليط الضوء على ثقافة الأمم التي مر بها في رحلته ، فالمكان كالإنسان تماماً له أبعاده التي تكشف عمقه وروحه ومن ثم جماله ورونقه، فحين تغيب القراءة العميقة للمكان يغيب معها الوعي بالمكان وقيمتها ودورها في نقل ثقافة الأمم وحضارتها، لقد نجح ابن بطوطة في توظيف البعد الجغرافي للأماكن التي مر بها مما جعلها متحيلة في ذهن القارئ، وكذلك توظيفه لتقنية الوصف ، فوصف كل ما مر به وصفاً دقيقاً .

يقول : " ونيل مصر يفضل أنهار الأرض غدوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس في المعمور مثلها ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل وليس في الأرض نهر يسمى بحرا غيره قال الله تعالى { فإذا خفت عليه فألقيه في اليم } ، فسماه يماً وهو

¹ رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) مرجع سابق ص 53.

البحر وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وُصِلَ إليه ليلة الإسراء إلى سدره المنتهى فإذا في أصلها أربعة أنهارٍ نهرانٍ ظاهريانٍ ونهرانٍ باطنانٍ فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال أما الباطنانِ ففي الجنة وأما الظاهريانِ فالنَّيلُ والفُراتُ وفي الحديث أيضاً النَّيلُ والفُراتُ وسيحونُ ويجحونُ كُلٌّ مِنْ أنهارِ الجنةِ ومجرى النَّيلِ مِنَ الجنوبِ إلى الشمالِ خِلافاً لِجميعِ الأنهارِ وَمِنْ عجائبِهِ أَنَّ ابتداءَ زيادتهِ في شدةِ الحرِّ عندَ نقصِ الأنهارِ وجفافها وابتداءُ نقصِهِ حينَ زيادةِ الأنهارِ وفيضها " (1)

لَقَدْ تَصَافَرَّ فِي هَذَا النَّصِّ مِنْ كِتَابِهِ تَحَفُّةُ النَّظَارِ الْوَصْفَ وَالْبُعْدَ الْجُغْرَافِيَّ لِتَظْهَرُ قِيَمَةُ الْمَكَانِ " نَهْرُ النَّيْلِ " مُعْتَمِدٌ عَلَى ثَقَافَتِهِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي إِنْزَازِ مَكَانِهِ هَذَا النَّهْرِ الْعَظِيمِ وَقَضْلُهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أَنْهَارِ الْعَالَمِ ، فَعَصَّدُ وَصْفِهِ بِالآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ الْوَارِدَةِ فِي فَضْلِ هَذَا النَّهْرِ الْعَظِيمِ وَهَذَا تَبَرُّرُ ثَقَافَةِ الْأَنَا - ابْنُ بَطُوطَةَ الْمُتَلَقِّي وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ فِي اسْتِدْلَالِهِ عَلَى مَكَانِهِ هَذَا الْمَكَانِ - نَهْرُ النَّيْلِ - وَعُلُوُّ قَدْرِهِ فِي أَنَّهُ يَنْبَغُ مِنَ الْجَنَّةِ.

لَقَدْ أَحْسَنَ ابْنُ بَطُوطَةَ فِي اسْتِخْدَامِ الْمُغَامَرَةِ فِي رِحْلَتِهِ كَتَفْنِيَّةٍ مِنْ تَقْنِيَّاتِ السَّرْدِ لِيَجْذِبَ الْمُتَلَقِّي إِلَى حَدِيثِهِ وَيُمَتِّعَهُ بِحِكْمِهِ ، وَيَبْرُزُ مِنْ خِلَالِهَا ثَقَافَةُ الْآخِرِ كَالْمُلُوكِ وَحُبُّهُمْ لِلصَّيْدِ كَمَا فِي رِحْلَتِهِ مِنْ بَنْجِ آبٍ إِلَى سِيُوسْتَانِ . وَمُغَامَرَاتُهُ مَعَ الْحَيَوَانَ الْمَعْرُوفِ بِالكَرْكَدَنْ ، حَيْثُ تَظْهَرُ ثَقَافَةُ مُلُوكِ الْهِنْدِ فِي رُكُوبِهِمُ الْفِيلَةَ وَحُبُّهُمْ لِصَيْدِ الْحَيَوَانَاتِ الْمُفْتَرَسَةِ . يَقُولُ ابْنُ بَطُوطَةَ : " وَلَمَّا أَجْرْنَا نَهْرَ السِّنْدِ الْمَعْرُوفِ بِبَنْجِ آبٍ دَخَلْنَا غَيْصَةَ قَصَبٍ لِسُلُوكِ الطَّرِيقِ ؛ لِأَنَّهُ فِي وَسْطِهَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا الْكَرْكَدَنْ وَصُورَتُهُ أَنَّهُ حَيَوَانٌ أَسْوَدُ اللَّوْنِ عَظِيمُ الْجُرْمِ رَأْسُهُ كَبِيرٌ مُتَقَاوِبُ الصَّخَامَةِ ؛ وَلِذَلِكَ يَضْرِبُ بِهِ الْمِثْلُ فَيَقْتُلُ الْكَرْكَدَنْ رَأْسَ بَلَا بَدَنٍ وَهُوَ دُونَ الْفِيلِ وَرَأْسُهُ أَكْبَرُ مِنْ رَأْسِ الْفِيلِ بِأَضْعَافٍ ، وَلَهُ قَرْنٌ وَاحِدٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ طُولُهُ نَحْوُ ثَلَاثَةِ أَدْرَعٍ وَعَرْضُهُ نَحْوُ شِبْرٍ ، وَلَمَّا خَرَجَ عَلَيْنَا عَارِضُهُ بَعْضُ الْفُرْسَانِ فِي طَرِيقِهِ فَضْرِبَ الْفَرَسِ الَّذِي كَانَ تَحْتَهُ بِقَرْنِهِ فَأَنْقَضَ فَخَذَهُ وَصَرَعَهُ وَعَادَ إِلَى الْغَيْصَةِ ، فَلَمْ نُقَدِّرْ عَلَيْهِ وَقَدْ رَأَيْتُ الْكَرْكَدَنْ مَرَّةً ثَانِيَةً فِي هَذَا الطَّرِيقِ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ وَهُوَ يَزْعَى نَبَاتُ الْأَرْضِ ، فَلَمَّا قَصَدْنَاهُ هَرَبَ مِنَّا وَرَأَيْتِهِ مَرَّةً أُخْرَى وَنَحْنُ مَعَ مَلِكِ الْهِنْدِ دَخَلْنَا غَيْصَةَ قَصَبٍ وَرَكِبَ السُّلْطَانُ عَلَى الْفِيلِ وَرُكِبْنَا مَعَهُ الْفِيلَةَ وَدَخَلَتِ الرَّجَالَةُ وَالْفُرْسَانُ فَأَتَارَوْهُ وَقَتَلُوهُ وَاسْتَاقُوا رَأْسَهُ إِلَى الْمَحَلَّةِ . " (2)

1- ابن بطوطة ، تحفة النظر تحقيق عبدالفتاح التازي ج 2 ، المصدر السابق ، ص 202 .

2- ابن بطوطة ، تحفة النظر تحقيق عبدالفتاح التازي ج 2 ، المصدر السابق ، ص 220 .

كَانَ لِلْحَوَارِ دَوْرُهُ فِي رُحَلَاتِ ابْنِ بَطُوطَةَ كِتَفَنِيَّةٍ مِنْ تَفَنِّيَّاتِ السَّرْدِ، يَقُولُ ابْنُ بَطُوطَةَ: "ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْ مَدِينَةِ بَكَارٍ فَوَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةٍ أُوجُهُ وَهِيَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ عَلَى نَهْرِ السَّندِ لَهَا أَسْوَاقُ حَسَنَةٌ وَعِمَارَةٌ جَيِّدَةٌ، وَكَانَ الْأَمِيرُ بِهَا إِذْ ذَاكَ الْمَلِكُ الْقَاضِلُ الشَّرِيفُ جَلَالُ الدِّينِ الْكِجِي أَحَدُ الشَّجْعَانِ الْكِرْمَاءِ وَبِهَذِهِ الْمَدِينَةِ تُؤْفَى بَعْدَ سَقَطَةِ سَقَطِهَا مِنْ فَرَسِهِ، وَنَشَأَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذَا الْمَلِكِ الشَّرِيفِ جَلَالُ الدِّينِ مَوَدَّةٌ وَتَأَكَّدَتْ بَيْنَنَا الصُّحْبَةُ وَالْمُحَبَّةُ وَاجْتَمَعْنَا بِحَضْرَةِ دِهْلِي، فَلَمَّا سَافَرَ السُّلْطَانُ إِلَى دَوْلَةِ أَبَادُ كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَأَمْرُنِي بِالْإِقَامَةِ بِالْحَضْرَةِ قَالَ لِي جَلَالُ الدِّينِ: إِنَّكَ تَخْتَاَجُ إِلَى نَفَقَةٍ كَبِيرَةٍ وَالسُّلْطَانُ تَطُولُ غَيْبَتُهُ فَخُذْ قَرِيَّتِي وَاسْتَغْلَهَا حَتَّى يَعُودَ، فَفَعَلْتُ ذَلِكَ وَأَسْتَغْلِلْتُ مِنْهَا نَحْوَ خَمْسَةِ آلَافٍ دِينَارٍ جَزَاهُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ، وَلَقِيتُ بِمَدِينَةِ أُوجُهُ الشَّيْخَ الْعَابِدَ الزَّاهِدَ الشَّرِيفَ قُطْبُ الدِّينِ حَيْنَرُ الْعُلُويِّ وَالْبُسْنِي الْخِرْقَةَ وَهُوَ مِنْ كُبَّارِ الصَّالِحِينَ وَلَمْ يَزَلْ التَّوْبُ الَّذِي الْبُسْنِي مَعِيَ إِلَى أَنَّ سُلَيْبِي كَفَّارُ الْهِنُودِ فِي الْبَحْرِ."⁽¹⁾

وَقَدْ يَمْرُجُ ابْنُ بَطُوطَةَ بَيْنَ جَمِيعِ هَذِهِ التَّفَنِّيَّاتِ السَّرْدِيَّةِ - الْحَوَارِ وَالْوَصَفِ وَالْمَكَانِ وَالشَّخْصِيَّاتِ - فِي سَرْدِهِ لِتُمَثِيلِ تَقَافَةِ الْأَنَا، وَتَقَافَةِ الْآخِرِ لِلْمُتَلَقِّي فَتَوَثَّرَ فِيهِ تَأْثِيرٌ بِالْغَا، وَبِذَلِكَ أَكُونُ قَدْ وَقَفْتُ عَنِ السَّرْدِ وَدَوْرِهِ عِنْدَ ابْنِ بَطُوطَةَ كَمُدُونَةٍ سَرْدِيَّةٍ تَسْتَحِقُّ الْبَحْثَ وَالْدِّرَاسَةَ كَنَصِّ أدَبِي سَرْدِي مُبَرَّرًا التَّقَافَةَ الَّتِي حَاوَلَ ابْنُ بَطُوطَةَ عَرْضَهَا أَيَا كَانَتْ تِلْكَ التَّقَافَةُ تُمَثِّلُهُ أَوْ تُمَثِّلُ الْآخِرَ الَّذِي يَقِفُ عِنْدَهُ فِي رِحَالَتِهِ.

¹- نفس المرجع السابق ج 2 ص 223.

خاتمة الفصل الأول:

خاض الفصل الأول من هذه الدراسة في قضية أدبيّة خطّاب الرّحلة في رحلة ابن بطوطة وتعرّض للعلاقة بين الرّحلة والرّحالة، والعلاقة بين السرد والوصف في رحلة ابن بطوطة والمقاربة السردية في تلك الرّحلة وذلك من خلال تسليط الضوء على ابن بطوطة ورحلته متجاوزاً حالة الشك والنقد التي أثيرت حول رحلته؛ وقد توصل الباحث في النهاية إلى عدة نتائج مهمة يمكن إجمالها في النقاط الرئيسية الآتية:

أولاً- اعتمد ابن بطوطة على المشاهدة والمعاينة فيما دونه عن الشعوب والأماكن التي زارها ومر بها وتعد الرحلة أحد مصادر الثقافة.

ثانياً- كانت لرحلة ابن بطوطة مكانة خاصة من أدب الرحلات، حيث تعد من أكثر الرحلات شمولاً وأوفر فضاء من الرحلات الأخرى في تلك الحقبة الزمنية.

ثالثاً- هناك علاقة بين مفهوم السرد وبين الوصف في رحلة ابن بطوطة وكذلك المقاربة السردية الثقافية في تلك الرحلة.

رابعاً- يعدّ النصّ السرديّ نوعاً من أنواع النصوص الأدبية التي يتمّ بها تحويل مجموعة متسلسلة من الوقائع إلى نصّ مكتوب، ويشترط أن تكون هذه الوقائع متسلسلة ضمن ترتيب زمني أو منطقيّ ويجب أن تكون الوقائع مرتبطة معاً دون ذكر حدث مغزول عن الآخرين.

خامساً- من خلال هذا الفصل تم إيضاح المقاربة السردية الثقافية في رحلة ابن بطوطة من خلال توضيح أثر السرد في إبراز الثقافة وكذلك معاينة المكان وتمثيلات الحضور في الرحلة.

وفي الفصل الثاني تناول فيه تمثيلات الهوية في رحلة ابن بطوطة من خلال إبراز مفهوم الهوية وأشكالها والعلاقة بين الذات والهوية السردية وأراء الأدباء في ذلك ثم الهوية الغيرية في الثقافة العربية وفي رحلة ابن بطوطة.

الفصل الثاني

تمثيلات الهوية في رحلة

تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة.

تمهيد:

المبحث الأول : ماهية الهوية.

المبحث الثاني: تمثيلات الهوية في رحلة ابن بطوطة.

تمهيد :

ظهر مفهوم الهوية بدايةً في كتابات الفيلسوف والمؤرخ الألماني الإجماعي (Fulhi Dltai) (1833 - 1911) وقد جعله ماكس فيبر (1864 - 1920) على مستويين يتعلّق أولهما بما يُطلق عليه دلتاي أسم الصورة الكونية التي تُؤلف الكتلة الأساسية للمعتقدات والمُسلّمات الافتراضية عن العالم الحقيقي الواقعي ، التي يُمكن في ضوئها وبالإشارة إليها يُمكن الوصول إلى إجابات شافية حول مغزى الكون والوجود . وتتحقّق الهوية في مجال الإتصال بالآخرين ، حتّى يصحّ القول إنّ هوية الفرد الواحد تتبدّل حسب إتصالاته ومواقفه ومواقفه المختلفة ؛ فالهوية مُعطى من الآخرين وانعكاس ظاهر وكامن لمواقفنا منهم وردود فعلنا عليهم⁽¹⁾

يقول بول ريكور أنّ الهوية الذاتية هي تحرك دياكتيكي إضافيًا للذاتية والعينية وهو دياكتيك الذات والآخر غير الذات . فنحن حين نبقى ضمن دائرة الهوية العينية فإنّ غيرية الآخر المختلف عن الذات لا تُمثّل أيّ شيء أصيل ، في حين أنّ الأمر يختلف لو أنّنا جمعنا بين كلمة الغيرية مع الذاتية⁽²⁾ كما تُشكّل الهوية الشخصية في نظر بول ريكور المكان المناسب للمواجهة بين الاستعماليين الرئيسيين لمفهوم الهوية اللذين أُشربت إليهما مرّات عديدة من دون أن أعالجها عن حقّ كموضوع مستقلّ . وقد قسّمها بول إلى الهوية كعينية والهوية كذاتية والهوية ككيفية . مفهوم الهوية هو عملية التّحقّق من الهوية بطريقة عينية ، ويُفصّد بها إعادة التّحقّق من هوية الغرض عينةً، وهذا يجعل عملية المعرفة عملية التعرّف على الأمر من جديد عدّة مرّات.⁽³⁾

فالهوية السردية : هي الحالة التي تصف العمل وهي تتمثّل في الوصف والحكاية والإلزام وهي علاقة نوعية بين تكوين العمل وتكوين الذات وهذا ما ظهر جلياً في رحلة ابن بطوطة من خلال سرّدة لأحداث الرحلة . في هذا الفصل يتطرّق الباحث إلى الهوية وتمثيلاتُها في رحلة ابن بطوطة على النحو الآتي : المبحث الأول : ماهية الهوية.

المبحث الثاني : تمثيلات الهوية في رحلة ابن بطوطة.

¹ - An introduction of the Concept of Identity , Martin Rost , Independent Centre of Privacy Protection (ICPP 2003

² - بول ريكور ، الذات عينها كالآخر ، ط 1 ، ترجمة جورج زيناتي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 2005 ، ص 72

³ - بول ريكور : الذات عينها كالآخر ، مصدر سابق ، ص 254.

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ

ماهية الهوية

تَعُدُّ الْهُوِيَّةُ كَائِنٌ يُؤَثَّرُ وَيَتَأَثَّرُ وَيَتَغَاوَلُ وَيَتَجَدَّدُ بِاسْتِمْرَارٍ لَكِنَّ يَظَلُّ هُنَاكَ جُزْءًا أَصِيلًا فِي مَاهِيَةِ الشَّيْءِ دَالٌّ عَلَى كَيْنُونَةٍ مُطْلَقَةٍ وَثَابِتَةٍ . قَابِلٌ لِلتَّكْيُفِ مَعَ الْمُسْتَجَدَّاتِ الْفِكْرِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالسُّوسْيُولُوجِيَّةِ . كَمَا أَنَّ مَسْأَلَةَ الْهُوِيَّةِ قَدْ أَثَارَتْ دَوْمًا الْإِهْتِمَامَ بِالْمَفَارَقَاتِ بَيْنَ الْهُوِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ وَالذَّاكِرَةِ . فَالْإِعْتِقَادَاتُ الدِّينِيَّةُ وَالْأَهْوَتِيَّةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالتَّقَمُّصِ وَالْخُلُودِ كَانَتْ دَوْمًا مَجَالِ انْشِغَالِ أَكْبَرِ الْمُفَكِّرِينَ وَالْمُتَأَمِّلِينَ ، فَأَدَّبَ الْهُوِيَّةَ الشَّخْصِيَّةَ مُلَى بِإِبْتِكَارَاتٍ مُتَمَاثِلَةٍ ضِمْنَ إِطَارِ مَفْهُومِ سَرْدِي لِلْهُوِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ .

لَقَدْ صَارَ مَفْهُومُ الْهُوِيَّةِ أَكْثَرَ تَنَاقُلًا وَشُوعًا فِي أَدَبِيَّاتِ الْعُلُومِ، يُعَدُّ مَقَالَ إِرْكَنيسون فِي آوَاخِرِ خَمْسِينَاتِ الْقَرْنِ الْمَاضِي مِثَالًا عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ أُتْخِذَ عِدَّةُ صُورٍ؛ مِثْلُ الْهُوِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ وَالْدِّينِيَّةِ وَالْثَّقَافِيَّةِ. كَمَا صَرَّحَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَكِّرِينَ بِصُعُوبَةِ الْوُقُوفِ عَلَى تَعْرِيفِ دَقِيقِ الْهُوِيَّةِ، يَقُولُ كُوتُولُوبُ فَرِيَكُ : " إِنَّ الْهُوِيَّةَ مَفْهُومٌ لَا يَتَّصِلُ بِالتَّعْرِيفِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ تَعْرِيفٍ هُوَ هُويَّةٌ بِحَدِّ ذَاتِهِ فَالْهُوِيَّةُ مَفْهُومٌ أَنْطُولُوجِي وَجُودِي يَمْتَلِكُ خَاصِيَّةً سِخْرِيَّةً تُؤَهِّلُهُ لِلظُّهُورِ فِي مُخْتَلَفِ الْمَقُولَاتِ الْمَعْرِفِيَّةِ، وَهُوَ يَتَمَتَّعُ بِدَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الْعُمُومِيَّةِ وَالتَّجْرِيدِ تَقُوقُ مُخْتَلَفِ الْمَفَاهِيمِ الْآخَرَ الْمُقَابِلِ لَهُ (1) قِسْمُ الْبَاحِثِ هَذَا الْمَبْحَثَ إِلَى مَطْلَبَيْنِ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي :

المَطْلَبُ الْأَوَّلُ : مَفْهُومُ الْهُوِيَّةِ (لُغَةً وَاصْطِلَاحًا) .

المَطْلَبُ الثَّانِي : أَنْوَاعُ الْهُوِيَّةِ وَأَشْكَالُهَا .

1 د. علي أسعد وطفة ، إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة سلسلة كتب المستقبل العربي ص 157 ، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر ، مركز دراسات الوحدة العربية . جامعة الكويت، 2015. ص94..

المطلب الأول

مفهوم الهوية (لغة واصطلاحاً)

الهوية لغة : لَفْظٌ وَضِعَ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ ماهية الشيء، وهو لَفْظٌ مَرْكَبٌ مَعْنَاهُ الْإِتِّحَادُ بِالذَّاتِ جَاءَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ حَوْلَ الْهُوِيَّةِ : " هُوِيَّةٌ فَلَسَفِيَّةٌ مَنْطِقِيًّا : الوجودُ الْفَرْدِيُّ الْمَتَّعِينَ فِي مُقَابِلِ الْمَاهِيَةِ ، وَالْهُوِيَّةُ حَقِيقَةُ الشَّيْءِ الَّتِي تَمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْهُوَ، كَمَا تُشْتَقُّ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنَ الْإِنْسَانِ " (1)

وَاصْطِلَاحًا الْهُوِيَّةُ هِيَ حَقِيقَةُ الشَّيْءِ أَوْ الشَّخْصِ الْمُطْلَقَةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى صِفَاتِهِ الْجَوْهَرِيَّةِ. (2)
وَعَرَفَهَا الْجَرَجَانِي بِأَنَّهَا " الْحَقِيقَةُ الْمُطْلَقَةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى الْحَقَائِقِ اِشْتِمَالِ الثُّبُوتِ عَلَى الشَّجَرَةِ فِي الْعَنِيبِ الْمُطْلَقِ. " (3)

وَالْهُوِيَّةُ أَيْضاً " مُؤَشِّرٌ عَلَى انْتِمَاءِ الْإِنْسَانِ إِلَى وَطَنٍ وَمُجْتَمَعٍ وَهِيَ وَسِيلَةٌ تَمَازِيحُ يُدْرِكُ مِنْ خِلَالِهَا بِأَنَّهُ يَخْتَلِفُ عَنِ الْآخَرِينَ مِنْ حَيْثُ الْأِسْمُ وَالْجِنْسُ وَالتَّرَكِيبُ الْجِينِي وَالْبَنَاءُ الْفِكْرِي وَالثَّقَافِي. (4)
وَفِي ذَاتِ الْإِتِّجَاهِ وَعِنْدَ تَتَبُّعِ مَعَانِي اللَّفْظِ فِي الْأَدْبِيَّاتِ الْمُعَاصِرَةِ نَجِدُ أَنَّ كَلِمَةَ (الْهُوِيَّةُ) تَسْتَعْمَلُ لِأَدَاءِ مَعْنَيَيْنِ كَلِمَةٍ (identity _ identite) فِي اللَّغَتَيْنِ (الْإِنْجِلِيزِيَّةِ وَالْفَرَنْسِيَّةِ) عَلَى التَّوَالِي وَالَّتِي تُعَبِّرُ عَنْ مَعْنَيِ الْمُطَابَقَةِ : " مُطَابَقَةُ الشَّيْءِ لِنَفْسِهِ أَوْ مُطَابَقَتُهُ لِمَثِيلِهِ "؛ وَلِذَلِكَ إِذَا أُعْتِمِدْنَا عَلَى الْمَفْهُومِ اللَّغَوِيِّ لِكَلِمَةِ (هُوِيَّةٌ) أَوْ أُعْتِمِدْنَا عَلَى اسْتِعْمَالَاتِهَا فِي مَعَاجِمِ الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ فَإِنَّ الْمَعْنَى الْعَامَّ لِلْهُوِيَّةِ لَا يَتَغَيَّرُ (5)

وَيَعْرِفُهَا الْمُفَكِّرُ الْفَرَنْسِي (أَلِكْسَ ميكشيللي) بِأَنَّهَا : " مَنْظُومَةٌ مُتَكَامِلَةٌ مِنَ الْمُعْطِيَّاتِ الْمَادِّيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ تَنْطَوِي عَلَى نَسْقٍ مِنْ عَمَلِيَّاتِ التَّكَامُلِ الْمَعْرِفِيِّ وَتَتَمَيَّزُ بِوَحْدَتِهَا الَّتِي تَتَجَسَّدُ فِي الرُّوحِ الدَّاخِلِيَّةِ الَّتِي تَنْطَوِي عَلَى خَاصِيَّةِ الْإِحْسَاسِ بِالْهُوِيَّةِ وَالشُّعُورِ بِهَا، فَالْهُوِيَّةُ هِيَ وَحْدَةٌ مِنَ الْمَشَاعِرِ الدَّاخِلِيَّةِ الَّتِي تَتَمَثَّلُ فِي الشُّعُورِ بِالْإِسْتِمْرَارِيَّةِ وَالتَّمَايُزِ وَالذِّمُومَةِ وَالْجَهْدِ

1- ابن منظور لسان العرب ، ج 1 ط 1 ، إهداء وتصنيف يوسف خياط وآخرون ، دار لسان العرب ، بيروت 1970. ص 189.

2- مجموعة من الباحثين_ المنجد في اللغة والإعلام_ دار المشرق_ بيروت_ ط 38_ 2000م_ ص 875.

3- الشريف علي بن محمد الجرجاني_ التعريفات_ دار عالم الكتب_ بيروت_ 1998م_ ص 249، 193، 91.

4- فؤاد بدوي بطرس_ الهوية وثقافة السلام، الطبعة الإلكترونية، 2008م، ص 20.

5- خليل نوري مسيهر العاني، الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية، ديوان الوقف السني، العراق، 2009م، ص 45.

المركزي، وهذا يعني أن الهوية هي وحدة من العناصر المادية والنفسية المتكاملة التي تجعل الشخص يتمايز مما سواه ويشعر بوحدته الذاتية⁽¹⁾

ويتضح مما سبق كثرة التعريفات التي عبر بها العلماء والمفكرين عن مصطلح الهوية وذلك لكثرة تشعبها في المعارف والعلوم . وأيا كان التعريف للهوية فهي في النهاية تعبر عن ذات الشخص ومعارفه وتنشئته ومشاعره وأحاسيسه المترابكة تجاه الآخر، ويمكنني الوقوف على المكونات التي تشكل هذه الهوية لدى الفرد من روايا مختلفة فيما يأتي :

1 - المكون الاجتماعي : تتشكل الهوية لدى الفرد من خلال الطبقة الاجتماعية والوظيفة أو العرق واللون والجنس حيث يمكن تفسير الهوية بناء على الانتماء إلى القبيلة أو المجتمع أو البيئة التي ينشأ فيها الفرد .

2 - المكون الثقافي : كما أن اللغة والدين والقيم الاجتماعية التي نشأ عليها الفرد دورها البالغ في فهم هوية هذا الفرد، وكذلك المعتقدات الحقيقة والخيالية ، فالفرد ليس بمعزل عن هذا المكون الثقافي والحضاري .

يتم تناول الهوية على المستوى الثقافي كمحدد لما يمكن أن يسمى الخصوصية الثقافية أو الشخصية القومية ، كما تعد الثقافة عنصراً مهماً في تشكيل الهوية (رؤية وموقفاً) يتجلى في نشاطية الجماعات الثقافية في التكتل حول نفسها واتجاه معظمهم لتخليد وحفظ الذاكرة الخاصة بهم . فالهوية كتشكل ثابت يصير في التاريخ النسبي يخضع لعوامل التحدّي والاستجابة حسب السياقات المختلفة التي تتجلى فيها الهوية خطاباً وسياسات ؛ فكل عناصر الهوية تستدعي في أثناء الحرب وفي أجواء المقاومة من عنصر ديني وثقافي وحضاري إثني ولغوي ، كما تستدعي حسب مستوى الاستقطاب الحادث بين الذات التي تمثلها حينئذ وبين الآخر المستنفر لها .

3 - المكون السياسي : فالنظام السياسي للمجتمع الذي يحيا فيه الفرد يؤثر في هويته من حيث قيم المواطنة أو القومية وغيرها ... " كان أحزاب وتنظيمات المجتمع المدني والأهلي " .⁽²⁾

ويرى كريس باركر أن تمثيل الهوية مسألة سياسية ؛ لأنها جوهرية مرتبطة بمسائل السلطة التي تعد شكلاً من أشكال التنظيم الاجتماعي المنتج للذات فالمفهوم السياسي للمواطنة يمكن أن يدرك

1- أليكس ميكشيللي ، الهوية ترجمة علي وطفة ، دمشق ، دار الوسيم للخدمات والطباعة 1993، ص 129

2- طيب عبد الجليل حسين_ الهوية والجنسية _ رسالة ماجستير غير منشورة _ جامعة الزعيم الأزهري_ الخرطوم_ 2005م_ ص.23

كشكّل من أشكال الهوية ، ومن ثم فإن سياسة الهوية جزء من نطاق واسع من سياسة المواطنة المدنية تؤسس مجموعة متنوعة من القيم والمعاش داخل إطار ديمقراطي ، ولعلّ هوية المواطنة قد تكون هي الشيء الوحيد الذي نتقاسمه ... ومن ثم فالمواطنة آلية لربط السياسات الصغرى للهوية بالسياسات الكبرى لحقوق المؤسساتية والثقافية⁽¹⁾

فالهوية في أبعادها الثابتة ليست مشكلة ؛ لأنّ عوالم الاندماج والإشترك صارت كذلك ثابتة بفعل التراكم التاريخي ، ولكنّ المشكل هو الفاعلية والحرية المجتمعية والسياسية التي تتيح للجميع التعبير عن كوامنه أو هويته إنّ صحّ التعبير .

وأخلص إلى أنّ هوية الفرد تنبع من كلّ ما ينشأ عليه هذا الفرد من ثقافة وسياسية ومحيط اجتماعي ، هذا المحيط الذي يشكّل تلك الهوية وتنمو معه ، وقد تتغيّر بحسب ثبات أو تغيير هذه المكونات حسب ظروفها الفكرية والبشرية والبيئية التي تكثف مناخها ، لكنّ تبقى أسسها ومبادئها مكوّنا أساسيا في شخصية هذا الفرد .

¹ - كريس باركر، ترجمة: جمال بلقاسم ،معجم الدراسات الثقافية ،دار رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ط1
2018 ، ص 229.

المطلب الثاني

أنواع الهوية وأشكالها

وَرَدَتْ عَدِيدٌ مِنَ التَّصْنِيفَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا الْبَاحِثُونَ فِيهَا يَخُصُّ أَنْوَاعُ الْهُوِيَّةِ وَأَنْمَاطُهَا وَمِنْ هَذِهِ التَّصْنِيفَاتِ مَا ذَكَرَهُ مُحَمَّدٌ عَابِدُ الْجَابِرِيِّ عَنْ مُسْتَوِيَّاتِ الْهُوِيَّةِ، فَقَدْ صَنَّفَهَا إِلَى فَرْدِيَّةٍ، وَجَمْعِيَّةٍ وَوَطَنِيَّةٍ قَوْمِيَّةٍ، يَقُولُ: " الْهُوِيَّةُ تَتَحَرَّكُ فِي إِطَارِ ثَلَاثِ دَوَائِرٍ مُتَدَاخِلَةٍ ذَاتُ مَرْكَزٍ وَاحِدٍ ، الْفَرْدُ دَاخِلُ الْجَمَاعَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ هُوِيَّةٍ مُتَمَيِّزَةٍ وَمُسْتَقِلَّةٍ، أَيْ عِبَارَةٌ عَنْ (أَنَا) لَهَا (آخِرُ) دَاخِلُ الْجَمَاعَةِ نَفْسُهَا، أَنَا تَضَعُ نَفْسُهَا فِي مَرْكَزِ الدَّائِرَةِ عِنْدَمَا تَكُونُ فِي مُوَاجَهَةٍ مَعَ هَذَا النَّوعِ مِنَ (الْآخِرِ)، وَالْجَمَاعَةُ دَاخِلُ الْأُمَّةِ، وَهِيَ كَأَفْرَادٍ دَاخِلِ الْجَمَاعَةِ وَلِكُلِّ مِنْهَا مَا يُمَيِّزُهَا دَاخِلُ الْهُوِيَّةِ الْعَامَّةِ الْكُلِّيَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ ، وَلِكُلِّ مِنْهَا أَنَا خَاصَّةٌ بِهَا وَ (آخِرُ) مِنْ خِلَالِهِ وَعَبْرِهِ تَتَعَرَّفُ عَلَى نَفْسِهَا وَالْأُمَّةُ ، وَهُوَ هُوِيَّةٌ جَمَاعِيَّةٌ ، وَلَكِنَّ أَوْسَعَ مِنَ الْمُسْتَوَى الثَّانِي (الْجَمَاعَةُ دَاخِلُ الْأُمَّةِ)، إِذْ أَنَّهَا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ دَاخِلُ الْأُمَمِ الْآخَرَى، غَيْرَ أَنَّهَا أَكْثَرُ تَجَرِيدًا وَأَوْسَعُ نِطَاقًا وَأَكْثَرُ قَابِلِيَّةً وَتَنوعًا وَإِخْتِلَافًا. (1) وَيُشِيرُ مَفْهُومُ الْهُوِيَّةِ الدَّائِيَّةِ إِلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي نَعْتَزُّ مِنْ خِلَالِهَا فِي أَنْفُسِنَا وَبَنَائِنَا لِسَرْدِيَّاتِ مُوَحَّدَةٍ لِلذَّاتِ نُحَدِّدُهَا وَجَذَانِيًا. " وَقَدْ تَصَوَّرَ (Stewret Hail) الْهُوِيَّةَ كَخَيَاطَةٍ تَرْبِطُ الْخَارِجَ الْخُطَابِيَّ بِالْعَمَلِيَّاتِ النَّفْسِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ لِلذَّائِيَّةِ ، بِمَعْنَى أَنَّ هُوِيَّةَ الْمَرْءِ تُشِيرُ إِلَى نِقَاطِ ارْتِبَاطٍ وَجَذَانِيٍّ مُوقَّتٍ بِمَوْقِعِ الذَّاتِ الَّذِي يَبْنِي مُمَارَسَاتِ خُطَابِيَّةٍ لِأَجْلِنَا. (2)

وَيُصَنِّفُهَا أَلِيكْسَ عَلَى أَسَاسِ أَنَّهَا: " وَخِذْ مِنَ الْمَوَاقِفِ وَالْمُهَمَّاتِ وَالسُّلُوكِ ، وَأَنَّهَا تَشَكِّلُ إِطَارًااجْتِمَاعِيًّا بَنِيويًا يَنْجُو نَحْوَ تَحْقِيقِ تَمَاسُكِ نِسْبِيٍّ لِمَظَاهِرِ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ. (3) فِيرَى أَنَّهَا ثَلَاثَةُ مُسْتَوِيَّاتٍ ، وَهِيَ (الثَّقَافِيَّةُ ، الْجَمَاعِيَّةُ ، الْفَرْدِيَّةُ) وَتَشْتَمِلُ الْهُوِيَّةَ الثَّقَافِيَّةَ عَلَى الْهُوِيَّةِ الْجَمَاعِيَّةِ مَافوقِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ. (3)

وَتَذَكُرُ فَاطِمَةُ عَبْدُ الْوَاحِدِ أَنَّ هُنَاكَ مِنْ يُصَنِّفُ الْهُوِيَّةَ إِلَى ثَلَاثَةِ مُسْتَوِيَّاتٍ أَيْضًا وَهِيَ (الْفَرْدِي الْجَمْعِي، الْمُسْتَوِيَّاتِ) : فَالْمُسْتَوَى الْفَرْدِي : هُوَ شُعُورُ الْفَرْدِ بِالْإِنْتِمَاءِ إِلَى الْجَمَاعَةِ فِي إِطَارِإِنْسَانِيٍّ أَكْبَرَ يُشَارِكُهُ فِي مَنْظُومَةٍ مِنَ الْقِيَمِ وَالْمَشَاعِرِ وَالْإِتِّجَاهَاتِ ، وَالْهُوِيَّةُ بِهَذَا الْمَعْنَى حَقِيقَةُ

1- محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية (عشر أطروحات)، في أسامة أمين الخولي، (محرر) ندوة (العرب والعولمة)، مركز دراسات الوحدة العربية ط3، بيروت- لبنان، 2000، ص297-298.

2- كريس باركر ، ترجمة جمال بلقاسم ، دار الرؤية القاهرة ط1 ، 2018 ، ص 383 ، 384

3- أليكس ميكشيللي، الهوية، مصدر سابق. ص ص27، 53.

فَرْدِيَّةٌ نَفْسِيَّةٌ تَرْتَبِطُ بِالثَّقَافَةِ السَّائِدَةِ وَعَمَلِيَّةِ التَّنَشِئَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَبُرْزَ هَذَا الْمُسْتَوَى بِصُورَةٍ أَوْضَحَ مَعَ بَرُوزِ النُّزْعَةِ الْفَرْدَانِيَّةِ (1).

وَالْمُسْتَوَى الْجَمْعِي : وَهُوَ تَمَثُّلٌ أَوْ تَجَسَّدُ الْهُوِيَّةِ فِي شَكْلِ تَنْظِيمَاتٍ وَأَحْزَابٍ وَهَيْئَاتٍ شَعْبِيَّةٍ ذَاتُ طَابَعٍ تَطَوُّعِيٍّ وَإِخْتِيَارِيٍّ هَذَا إِلَى جَانِبِ الْهُوِيَّةِ الْقَوْمِيَّةِ الَّتِي تَمَثِّلُ كَيَانَ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ هُوَ فَرْدٌ فِي جَمَاعَةٍ يُشَارِكُهَا لُغَتَهَا وَتَقَالِيدَهَا وَأَمَالَهَا وَالْأَمَمَهَا ، وَهَنَّاكَ أَيْضًا الْهُوِيَّةُ الدِّينِيَّةُ وَالْهُوِيَّةُ الْأُمَمِيَّةُ فِي هَذَا الْمُسْتَوَى . وَالْمُسْتَوَى الْمُؤَسَّسَاتِي وَالْقَانُونِي : أَوْ مَا يُسَمَّى (مَأْسَسَةُ الْهُوِيَّةِ) ، أَيُّ خُضُوعِهَا لِمُؤَسَّسَةٍ ، سَوَاءً كَانَتْ صَغِيرَةً أَوْ مُتَوَسِّطَةً أَوْ كَبِيرَةً ، مِثْلًا (نَادِي رِيَاضِيٍّ ، حَزْبٌ سِيَاسِيٌّ أَوْ دَوْلَةٌ مُعَيَّنَةٌ ، أَوْ مُؤَسَّسَاتٌ دَوْلِيَّةٌ مُتَعَدِّدَةُ الْجِنْسِيَّاتِ) (2).

وَيُمْكِنُ تَقْسِيمُ الْمُسْتَوَى الثَّانِي إِلَى مُسْتَوِيَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَهِيَ الْمُسْتَوَى الْجَمَاعِيُّ الصَّغِيرُ الْحَجْمُ أَوْ الثَّانَوِيُّ وَالْمَحَلِّيُّ ، وَالْجَمَاعِيُّ الْمُتَوَسِّطُ ، وَالْجَمَاعِيُّ الْوَاسِعُ وَالْكَبِيرُ الْحَجْمُ . وَتُعَدُّ أُهُمُّ نُقْطَةً فِي تَحْدِيدِ أَيِّ مُسْتَوَى مِنْ مُسْتَوِيَّاتِ الْهُوِيَّةِ هُوَ نَوْعٌ آخَرٌ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمُسْتَوِيَّاتِ تَتَوَاجَدُ وَتَتَرَاوَنُ مَعًا لَدَى كُلِّ فَرْدٍ أَوْ مَجْمُوعَةٍ بَشَرِيَّةٍ ، وَلَكِنَّ مَا يَدْعُو إِلَى إِبْرَازِ أَيِّ مُسْتَوَى هُوَ نَوْعُ الْآخِرِ وَمَوْقِعُهُ وَتَوَقُّعَاتِهِ وَطُمُوحَاتِهِ ، فَإِنَّ كَانَ هَذَا الْآخَرُ دَاخِلِيًّا فِي دَائِرَةِ الْجَمَاعَةِ ، فَإِنَّ الْهُوِيَّةَ الْفَرْدِيَّةَ هِيَ الَّتِي تَقْرَضُ نَفْسُهَا كَ (أَنَا) ، وَإِنْ كَانَ يَقَعُ فِي دَائِرَةِ الْأُمَّةِ (أَوْ الْجَمَاعَةِ الْوَاسِعَةِ) فَإِنَّ الْهُوِيَّةَ الْجَمْعِيَّةَ (الْجَمَاعِيَّةَ الْمَحَلِّيَّةَ أَوْ الثَّانَوِيَّةَ) مِثْلُ (الْحَزْبِيِّ ، الْمُنَاطِقِيِّ ، الطَّائِفِيِّ أَوْ الْقَبَلِيِّ وَالْعَشَائِرِيِّ) هِيَ الَّتِي تَحِلُّ مَحَلَّ (الْأَنَا) الْفَرْدِيِّ ، أَمَّا إِنْ كَانَ الْآخَرُ خَارِجِيًّا ، أَيُّ يَقَعُ خَارِجَ الْأُمَّةِ وَالْدَوْلَةِ وَالْوَطَنِ فَإِنَّ الْهُوِيَّةَ الْوَطَنِيَّةَ أَوْ الْقَوْمِيَّةَ هِيَ الَّتِي تَمَلَأُ مَجَالَ (الْأَنَا) (3) ، وَهَكَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلْمُسْتَوِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ أَوْ الثَّقَافِيَّةِ لِلْهُوِيَّةِ .

وَيَرى النُّبَاحُ أَنَّ الْهُوِيَّةَ هِيَ مَرْكَبٌ مِنَ الْعُنَاصِرِ الْمَرْجِعِيَّةِ الْمَادِّيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالذَّائِيَّةِ الْمُصْطَفَاةِ الَّتِي تَسْمَحُ بِتَغْرِيفٍ خَاصٍّ لِلْفَاعِلِ الْاجْتِمَاعِيِّ . فَالْهُوِيَّةُ بِالنِّسْبَةِ لِلْفَاعِلِ الْاجْتِمَاعِيِّ عِبَارَةٌ عَنِ مَرْكَبٍ مِنَ الْعَمَلِيَّاتِ وَالْأُطُرُوحَاتِ الْمُتَكَامِلَةِ الَّتِي تُقَسِّرُ الْعَالَمَ مِنْ حَيْثُ الزَّمَانُ وَالْمَكَانُ وَالْأَحْدَاثُ وَتَأْخُذُ صِيغَةً تَعْبِيرِيَّةً خَاصَّةً تُطْلَقُ عَلَيْهَا التَّوَاةُ الْهُوِيَّاتِيَّةُ .

1- ناظم عبد الواحد جاسور ، موسوعة علم السياسة ، م.س.ذ. ، ص384.

2- علاء عبد الرزاق مطلق ، أزمة الهوية في الفكر العربي المعاصر بين الأصالة والمعاصرة ، اطروحة دكتوراه

غير منشورة ، كلية العلوم السياسية ، جامعة بغداد ، 2000 ، ص ص24 ، 29.

3- محمد عابد الجابري ، العرب والعولمة والهوية الثقافية ، م.س.ذ. ، ص299.

ويرى جندر : " أن الهوية الذاتية تنشأ من خلال القدرة على بناء إحساس مُسجَم بالسيرة الذاتية مُستمر من خلال قصص الهوية التي تُحاول الإجابة عن الأسئلة التقديرية الآتية : ماذا نعمل ؟ كيف نتصرف ؟ من نكون ؟ ومن ثم ، يُحاول الأفراد إنشاء سرد متماسك للهوية من خلاله تُشكل النفس مساراً للتطور من الماضي إلى المستقبل المتوقع. " (1)

فالهوية المتكاملة هي الهوية التي تمتلك قدرات كبيرة وتُشتمل على فعاليات متكاملة مُسجلة في أسسها ونواتها

قسم (Pool Recor) الهوية الهوية إلى ثلاثة أنواع ، الهوية الشخصية والهوية الكيفية والهوية السردية وتعرض لهذه الأنواع والعلاقة بينهم على النحو الآتي :

أ - الهوية الشخصية (الذاتية) : تُشكل الهوية الشخصية في نظر (بول ريكور) المكان المُمتاز للمواجهة بين الاستعمالين الرئيسيين لمفهوم الهوية والذي قسمهما إلى الهوية كعينية ، والهوية كذاتية وهما مختلفان عن بعضهما البعض . ومفهوم الهوية هو عملية التحقق من هوية الغرض عينة .

إن الهوية الشخصية لا يمكن أن تُفصل عن البعد الزمني للوجود الإنساني رغم الاختلاف على مفهومها في حقل الفلسفة الإنجليزية - الأمريكية والتي بدت وكأنها تقدّم فرصة رائعة من أجل المواجهة المباشرة لموضوع التمييز بين العينية والذاتية. (2)

يقول (بول ريكور) إن هوية الشخصية الروائية تفهم عن طريق تحويل عملية صياغة الحبكة إليها هي ، بعد أن كانت هذه العملية مطبقة على الأحداث المحيية، وبهذا يمكننا القول بأن الشخصية هي نفسها صيغت كحبكة .

ب - الهوية الكيفية (التشابه الأقصى) : وفيها يكون الزمن ملازماً لسلسلة مواقف حدوث الشيء عينه ، فإن إعادة التعرف على هوية ال (عينه) يمكن أن تُشير التردد والشك والاحتجاج وان التشابه الشديد بين مناسبتين أو أكثر يمكن أن يؤخذ كمعيار غير مباشر لتقوية فرضية الهوية العددية، وهذا ما يحدث حين نتكلم على الهوية المادية الجسدية لشخص معين . فضعف معيار التشابه في حال وجود مسافة زمنية كبرى هو الذي يوجب إلينا بأن نلجأ إلى معيار آخر ينتمي إلى

1- كريس باركر ، الهوية. ترجمة جمال بلقاسم ، مرجع سابق ، 2018 ، ص 384 .

2 - الهوية (عينة) والهوية (ذاته) مفهومان أساسيان يعود إليهما ريكور باستمرار بقوله بأن كل مثل هذه الفلسفة القائمة على التحليل المنطقي لحمل اللغة يستند دوماً إلى ماهو عينة التي تحافظ على ذاتها رغم كل التقلبات، وتبقى هي من دون تغيير.

الْمُكَوِّنِ الثَّالِثِ لِمَفْهُومِ الْهُويَّةِ أَيَّ إِلَى الْإِسْتِمْرَارِيَّةِ غَيْرِ الْمُنْقَطِعَةِ بَيْنَ الْمَرْحَلَةِ الْأُولَى وَالْآخِرَةِ لِتَطَوُّرِ الْهُويَّةِ كَعَيْنَةٍ. (1)

ج - الْهُويَّةُ السَّرْدِيَّةُ :

إِنَّ مَفْهُومَ الْهُويَّةِ السَّرْدِيَّةِ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرٍ (Pool Recor) وَالَّذِي ذُكِرَ فِي الْمَجْلَدِ الثَّالِثِ مِنْ كِتَابَةِ (temps et reciti) كَانَ إِسْتِجَابَةً لِإِشْكَالِيَّةٍ أُخْرَى ، حَيْثُ قَالَ فِي نَهَايَةِ رِخْلَةٍ طَوِيلَةٍ عَنِ السَّرْدِ التَّارِيخِيِّ وَالسَّرْدِ الْقَصَصِيِّ الْخَيَالِيِّ " تَسَأَلْتُ إِنْ كَانَتْ هُنَاكَ مِنْ بَنِيَّةٍ لِلتَّجَرِبَةِ كَفِيلَةٌ بِأَنْ تَسْتَوْعِبَ الصَّنِيفَيْنِ الْكَبِيرَيْنِ لِلْسَّرْدِ عِنْدَهَا قُلْتُ بِفَرْضِيَّةِ الْهُويَّةِ السَّرْدِيَّةِ بِشَخْصٍ وَاحِدٍ أَوْ لِحْمَاةٍ بِأَكْمَلِهَا " ، وَهَذِهِ الْهُويَّةُ تُضَيِّحُ بِحَسَبِ هَذِهِ الْفَرْضِيَّةِ مُتَجَذِرَةً بَيْنَ التَّارِيخِ وَالْخَيَالِ وَالْقَصَصِ وَالْحِكَايَاتِ ، فَفَهَمَ الْذَاتِ هُوَ عَمَلِيَّةٌ تَأْوِيلُ ، وَتَأْوِيلُ الْذَاتِ بِدَوْرَةٍ يَجُذُّ فِي السَّرْدِ الَّذِي يَقْتَسِمُ مِنَ التَّارِيخِ بِقَدْرِ مَا يَقْتَسِمُ مِنَ الْقَصَصِ الْخَيَالِيِّ ، جَاعِلًا مِنْ تَارِيخِ حَيَاةِ قِصَّةِ خَيَالِيَّةٍ تَسْرُدُ بِأَسْلُوبِ رِوَايَةٍ. (2)

فَالتَّصْوِيرُ السَّرْدِيُّ يُمَثِّلُ نَوْعَ الْإِزْتِبَاطِ الَّذِي يَتَطَلَّبُ الْوَصْفُ الْإِشْكَالِيَّ ، وَإِنْ وَجْهَ التَّبَايُنِ الْجَوْهَرِيِّ الَّذِي يُمَيِّزُ النَّمُودَجَ السَّرْدِيَّ مِنْ كُلِّ نَمُودَجٍ آخَرَ لِلرَّبْطِ يَكْمُنُ فِي وَضْعِ الْحَدَثِ الَّذِي جُعِلْنَا مِنْهُ مَرَاتٍ عَدِيدَةً حَجَرَ الزَّاوِيَةِ لِتَحْلِيلِ الْذَاتِ ، فَفِي حِينَ أَنَّ الْحَدَثَ وَالْمُصَادَفَةَ يَظْلُرَانِ فِي نَمُودَجٍ مِنْ نَمَطٍ سَبَبِيٍّ فِي وَضْعٍ لَا يُمَكِّنُ فِيهِ التَّمْيِيزُ بَيْنَهُمَا ، فَإِنَّ الْحَدَثَ السَّرْدِيَّ يَعْرِفُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَمَلِيَّةِ التَّصْوِيرِ نَفْسَهَا ، فَهُوَ يُشَارِكُ فِي الْبُنْيَةِ غَيْرِ الْمُسْتَقَرَّةِ لِلتَّوَافُقِ الْمُتَنَافِرِ الَّتِي تُمَيِّزُ الْحَبْكَةَ عَيْنَهَا ، وَيَكُونُ مَصْدَرُ تَوَافُقٍ بِمَا أَنَّهُ يَجْعَلُ الْقِصَّةَ تَتَقَدَّمُ. (3)

إِنَّ الْعَمَلِيَّةَ السَّرْدِيَّةَ تَطَوَّرَ مَفْهُومًا أَصِيلًا تَمَامًا لِلْهُويَّةِ الدِّينَامِيَّةِ الَّتِي تَصَالِحُ فِيمَا بَيْنَهَا الْمُتَوَلَّاتِ نَفْسَهَا . وَمِنْ أَجْلِ الْوُضُوعِ إِلَى تَصَوُّرِ سَرْدِيٍّ لِلْهُويَّةِ الشَّخْصِيَّةِ تَنْجُرُ حِينَ نَمُرُ مِنْ سَيْرِ الْأَحْدَاثِ إِلَى الشَّخْصِيَّةِ الرَّوَايَةِ .

الذات والهُويَّةُ السَّرْدِيَّةُ : إِنَّ الطَّبِيعَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِلْهُويَّةِ السَّرْدِيَّةِ لَا تَتَكَشَّفُ فِي نَظَرِ (بُول رِيكِر) إِلَّا فِي دِيَالِكْتِكِ (جَدَلِيَّةٍ) الدَّائِيَّةِ وَالْعَيْنِيَّةِ الَّتِي تُمَثِّلُ الْمُسَاهَمَةَ الْأَكْبَرَ لِلنُّظَرِيَّةِ السَّرْدِيَّةِ فِي تَكْوِينِ الْذَاتِ .

1 - بول ريكور ، الذات عينها كالآخر ، مرجع سابق ، ص 256

2 - نفس المرجع السابق ، ص 251.

3 - نفس المرجع السابق ، ص 296.

فَالْحَدَثُ السَّرْدِيّ هُوَ عَمَلِيَّةُ التَّصْوِيرِ ذاتها وَالَّتِي تَشَارِكُ فِي الْبِنْيَةِ السَّرْدِيَّةِ وَالَّتِي تُمَيِّزُ الْحَبْكَ عَنْهَا
إِنَّ التَّرَابُطَ بَيْنَ حَبْكَ الْقِصَّةِ وَالشَّخْصِيَّةِ تَبْلُغُ ذُرْوَةَ رَادِيكَالِيَّتِهَا وَذَلِكَ قَبْلَ كُلِّ تَصْوِيرٍ حِسِّيٍّ، مَعَ
نُمُودَجِ الصَّانِعِ الْفِعْلِيِّ وَالَّذِي بِدَوْرَةِ يُؤَيِّزُ فِي الْمَسَارِ السَّرْدِيِّ .

إِنَّ رَادِيكَالِيَّةَ الْمَوْقِفِ تَسِيرُ فِي مِحْوَرَيْنِ مُتَوَازَيْنِ مِحْوَرٍ مِنْ جِهَةِ صَانِعِ الْفِعْلِ ، وَمِحْوَرٍ آخَرَ
مِنْ جِهَةِ الْمَسَارِ السَّرْدِيِّ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْعَبَثِ أَنْ نَذْكُرَ بِأَيَّةِ كَيْفِيَّةٍ تَصِلُ الْبِنْيَةُ السَّرْدِيَّةُ عَمَلِيَّتِي
حَبْكَ الْقِصَّةِ وَهُمَا عَمَلِيَّةُ الْحَرَكَةِ وَسِيرُ الْأَحْدَاثِ وَعَمَلِيَّةُ الشَّخْصِيَّةِ. (1)

إِنَّ الْهُوِيَّةَ السَّرْدِيَّةَ لِلشَّخْصِيَّةِ تُمَارِسُ دَوْرَ الْوَسِيطِ بَيْنَ قُطْبِي الْهُوِيَّةِ الْعَيْنِيَّةِ وَالْهُوِيَّةِ الذَّاتِيَّةِ كَمَا
تَشْهَدُ لَهَا وَتُؤَكِّدُ بِشَكْلِ جَوْهَرِيٍّ الْمُتَغَيَّرَاتِ الْمُتَحَيِّلَةَ الَّتِي تُجَبِّرُ هَذِهِ الْقِصَّةَ لِلْخُضُوعِ لِلْهُوِيَّةِ السَّرْدِيَّةِ
3 - عَنَاصِرُ الْهُوِيَّةِ :

يرى الْعَالِمُ (ALKE MECLIE) أَنَّ عَنَاصِرَ الْهُوِيَّةِ هِيَ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْعَنَاصِرِ
الْمَادِّيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ، وَالنَّفْسِيَّةِ، وَالنَّفْسِيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ (2)، هَذِهِ الْعَنَاصِرُ تَتَدَاخَلُ فِيمَا بَيْنَهَا لِشَكْلِ
هُوِيَّةِ الْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ .

- عَنَاصِرُ مَادِّيَّةٍ وَفِيْزِيائِيَّةٍ، تَشْتَمِلُ عَلَى : الْحَيَاثَاتِ كَالْآلَاتِ، الْمُؤْصُوعَاتِ، وَالْأَسْوَاقِ وَالْمُمْتَلَكَاتِ
وَالْقُدْرَاتِ وَهِيَ الْقُوَّةُ الْاِقْتِصَادِيَّةُ وَالْمَادِّيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ، وَالتَّنْظِيمَاتُ الْمَادِّيَّةُ وَهِيَ : التَّنْظِيمُ الْاِقْلِيمِي نِظَامُ
السَّكَنِ ، نِظَامُ الْاِتِّصَالَاتِ الْاِنْسَانِيَّةِ، وَالْاِنْتِمَاءَاتِ : كَالْاِنْتِمَاءِ الْاجْتِمَاعِيِّ ، وَالتَّنَوُّعَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ
وَالسِّمَاتِ الْمُورُفُولُوجِيَا - الشَّكْلِيَّةُ - الْمُمَيَّزَةُ . -

-عَنَاصِرُ تَارِيخِيَّةٍ ، وَتَتَضَمَّنُ : الْأَصُولَ التَّارِيخِيَّةَ ، وَالْأَحْدَاثَ التَّارِيخِيَّةَ الْمُهْمَّةَ ، وَالْآثَارَ
التَّارِيخِيَّةَ كَالْعَقَائِدِ وَالتَّقَالِيدِ ، وَغَيْرَهَا .

- عَنَاصِرُ ثَقَافِيَّةٍ نَفْسِيَّةٍ ، وَتَشْتَمِلُ عَلَى : النِّظَامِ الثَّقَافِيِّ : كَالْعَقَائِدِ ، الْأَدْيَانِ وَالرُّمُوزِ الثَّقَافِيَّةِ
وَنِظَامِ الْقِيَمِ الثَّقَافِيَّةِ، ثُمَّ أَشْكَالِ التَّعْبِيرِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَنُّ وَادَبٌ بِكُلِّ أَنْوَاعِهِ . وَالْعَنَاصِرُ الْعَقْلِيَّةُ :
كَالْاِتِّجَاهَاتِ الْمُغْلَقَةِ ، الْمَعَايِيرُ الْجَمْعِيَّةُ، الْعَادَاتُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ ، وَالنِّظَامُ الْمَعْرِفِيُّ : كَالسِّمَاتِ
النَّفْسِيَّةِ الْخَاصَّةِ ، اِتِّجَاهَاتُ نِظَامِ الْقِيَمِ .

- عَنَاصِرُ نَفْسِيَّةٍ اِجْتِمَاعِيَّةٍ ، وَتَتَضَمَّنُ : الْأُسُسُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ، كَالْمَرْكَزِ، الْعُمَرُ، الْجِنْسُ، الْمِهْنَةُ
السُّلْطَةُ، الْوَاجِبَاتُ وَالْأَدْوَارُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ ، اِلْاِنْتِمَاءَاتُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ . وَالْقِيَمُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ ، كَالْكَفَاءَةِ

1 - نفس المصدر السابق ص302.

2- اليكس ميكشيلي ، الهوية ، م . س . ذ المصدر السابق، ص ص18، 22.

التَّوَعِيَّةُ وَالتَّغْيِيرَاتُ الْمُخْتَلَفَةُ ، وَالْقُدْرَاتُ الْخَاصَّةُ بِالمُسْتَقْبَلِ ، كَالْقُدْرَةِ ، الإمكانية ، الاستراتيجية التَّكْيُفُ ، وَنَمَطُ السُّلُوكِ .

وَيَلْعَبُ الْآخِرُ الدَّورَ الْمَحْوَريُّ فِي تَحْدِيدِ هُويَّةٍ مَا مِنْ خِلَالِ الْمُقَارَنَةِ بَيْنَ الْعَنَاصِرِ السَّابِقَةِ فَالْتَّمِائِلُ وَالتَّشَابُهَ مِنْ جِهَةٍ ، وَالتَّمَايُزُ وَالْإِخْتِلَافُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى وَيَكُونُ الْعَامِلُ الْأَسَاسُ فِي هَذَا الْإِخْتِيَارِ وَالْإِنْتِقَاءِ لِلْعَنَاصِرِ وَالسِّمَاتِ الْمُحَدَّدَةِ لِهَويَّةٍ مَا ، هُوَ نَوْعُ الْآخِرِ الَّذِي تَوَاجَهَهُ ، وَلَكِنَّ هَذَا بِذَاتِهِ يَعْتَمِدُ عَلَى تَصَوُّرِ الْمَصَالِحِ الدَّائِيَّةِ وَفِقَ مُعْتَقَدَاتٍ أَوْ أُيُودِيُولُوجِيَّاتٍ أَوْ تَصَوُّرَاتٍ وَاقِعِيَّةٍ سَائِدَةٍ .

وَنَمَّةً رَأْيِي يَرَى بِإِنْعَادِ الْمُهَوِيَّةِ مَعَ الذَّاتِ " لَعَلَّ السُّؤَالَ الْأَكْثَرَ حُضُورًا هُوَ كَيْفَ يُمَكِّنُ التَّعَرُّفُ عَلَى الْمُهَوِيَّةِ ؟ مَعَ الذَّاتِ أَمْ مَعَ الْآخِرِ : وَالْإِجَابَةُ تَنْدَرِجُ فِي مَوْضُوعَةٍ مَنْطِقِيَّةٍ قِيَامُهَا أَنَّ الْمُطَابَقَةَ لَا تُؤَدِّي إِلَّا إِلَى تَوْسِيعِ حَقْلِ الْإِخْتِلَافَاتِ ، فِي حِينٍ أَنَّ شَرْطَ الْإِسْتِمْرَارِ فِي الزَّمَنِ لَا يَدَّ أَنْ يُؤَدِّي إِلَى التَّفَكِيرِ بِالْجَوْهَرِيَّةِ الدَّائِيَّةِ مِنْ خِلَالِ الْإِنْفِتَاحِ عَلَى الْآخِرِ ، وَهَكَذَا يُمَكِّنُ أَنْ نَخْلُصَ إِلَى نَتِيجَةٍ مُفَادِهَا ؛ عَدَمُ وُجُودِ هُويَّةٍ مَعَ الذَّاتِ لِإِنْعَادِ عَامِلِ الْمُقَارَنَةِ وَالتَّمْيِيزِ . أَيُّ أَنَّ الْآخِرَ لَهُ دَوْرٌ فَعَالٌ فِي تَحْدِيدِ هُويَّةِ الْفَرْدِ ؛ لِأَنَّهُ بِدُونِهِ لَا قِيَمَةُ لِهَويَّةِ الْفَرْدِ دُونَ مُقَابِلٍ لَهُ .

يَقُولُ الْجَابِرِيُّ : "لَمْ يَكُنْ الْإِخْتِيَارُ الْمَطْرُوحُ أَنَّ نَخْتَارَ الْعُرُوبَةَ أَوْ الْإِسْلَامَ ، بَلْ كَانَ أَيُّ (الْآخِرِ) يَجِبُ أَنْ نَقَاوِمَ أَوَّلًا ، وَبِالتَّالِيِ أَيُّ مِنَ السِّلَاحِينَ يَجِبُ أَنْ نَحْرَكَ فِي الْبِدَايَةِ ، سِلَاحَ الْعُرُوبَةِ ، أَمْ سِلَاحَ الْإِسْلَامِ ؟ وَالْآخِرُ أَيْضًا كَانَ ثَنَائِيًّا . (1)"

يَقُولُ أَمِينُ مَغْلُوفٌ إِنَّ الْمُهَوِيَّةَ تَتَشَكَّلُ تَشَكُّلًا لِكُلِّ شَخْصٍ مِنْ مَجْمُوعَةٍ عَنَاصِرٍ لَا عَلَى السِّجَلَاتِ الرَّسْمِيَّةِ . هُنَاكَ بِالتَّأَكِيدِ ، بِالنِّسْبَةِ لِلْعَالِيَةِ الْعُظْمَى مِنَ النَّاسِ ، الْإِنْتِمَاءُ إِلَى تَقْلِيدٍ دِينِيٍّ وَإِلَى جِنْسِيَّةٍ وَأَحْيَانًا جِنْسِيَّتَيْنِ ، وَإِلَى مَجْمُوعَةٍ اثْنِيَّةٍ أَوْ لُغَوِيَّةٍ ، وَإِلَى عَائِلَةٍ أَكْثَرُ أَوْ أَقَلُّ إِتْسَاعًا ، وَإِلَى مَجْمُوعَةٍ اثْنِيَّةٍ أَوْ لُغَوِيَّةٍ ، وَإِلَى عَائِلَةٍ أَكْثَرُ أَوْ أَقَلُّ إِتْسَاعًا ، وَإِلَى مِهْنَةٍ وَمُؤَسَّسَةٍ وَوَسْطٍ إجْتِمَاعِيٍّ مَا .

وَلَكِنَّ الْقَائِمَةَ أَطْوَلَ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا ، وَيَفْتَرِضُ أَنَّهَا غَيْرُ مَحْدُودَةٍ . إِذْ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَسْتَشْعِرُ بِإِنْتِمَاءٍ أَكْثَرُ أَوْ أَقَلُّ قُوَّةٍ إِلَى رِيْفٍ أَوْ قَرْيَةٍ أَوْ حَيٍّ أَوْ عَشِيرَةٍ أَوْ فَرِيقٍ رِيَاضِيٍّ أَوْ مِهْنِيٍّ أَوْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ ، إِلَى نِقَابَةٍ أَوْ شَرِكَةٍ أَوْ حِزْبٍ أَوْ رَابِطَةٍ أَوْ رَعِيَّةٍ أَوْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَشْخَاصِ يَمْتَلِكُونَ الْأَهْوَاءَ ذَاتَهَا أَوْ الْمُيُولَ الْجِنْسِيَّةَ ذَاتَهَا أَوْ الْعَاهَاتِ الْجَسَدِيَّةَ ذَاتَهَا أَوْ الَّذِينَ وَاجَهُوا الْأَدْنِيَّاتِ ذَاتَهَا . (2)

1 - محمد عابد الجابري ، مسألة الهوية (العروبة والإسلام-والغرب) ، م.س.ذ. ، ص 36 : 47 .
2 - أمين معلوف ، الهويات القتالة ، دار ورد للطباعة والنشر ، سوريا ، دمشق ، ط 1 سنة 1999 . ص 219 .

كما رأي (اليكس مكيلي) ⁽¹⁾ بأن تشكّل أسس الهوية أنظمة إدراكية وتقويمية وتتّكس كصدى للحياة والسلوكيات الجمعية وتتجسّد هذه الأنظمة في بنى سيكولوجية ثقافية .

ويحدّد (هنتنغتون) ⁽²⁾ مجموعة من المصادر المحتملة للهوية ، ويعتبرها أساساً ومنطقاً لتصنيف الهوية وهي : - السمات الشخصية : كالعمر، السلالة الجنسية، القرابة (قرابة الدم) الإثنية (القرابة البعيدة)، العرق، والسمات الإقليمية : مثل الجوار والقرية، البلدة، المدينة المنطقة والسمات الثقافية : الإثنية كطريقة للحياة، اللغة، الدين ، والسمات السياسية : الحركة، الحزب الأيديولوجية، الدولة، والسمات الاقتصادية : مجموعة العمل، المستثمر، الصناعة، الطبيعة القطاع الاقتصادي، والسمات الاجتماعية : المكانة والأدوار الاجتماعية والنادي والصادقات الاجتماعية .

وأستنتج أنّ مستويات الهوية وعناصرها ، متداخلة ومتشابكة ، إذ يتواجد ويتزامن أكثر من مستوى ونوع للهوية في حالة واحدة ، ففي الواقع من الصعب الفصل بين هذه المستويات لتحديد مستوى هوية كل فرد على حدة ، ولكن دراسة هذه المستويات وعناصرها لمعرفة المكونات الأساسية والفرعية للهوية أيا كانت فردية أم جماعية أم ثقافية أم غير ذلك . فالهوية كائن حي تتنازع ما رب شتى ، وتتراكم المعرفة بداخله خلال مراحل عمره المختلفة ؛ وكل هذه المعارف والخبرات تنصهر بداخله لتنتج في النهاية هويته تجاه الآخر ، بل قد تتشابه أيضا هوية الفرد مع هوية الآخر حين تلتقي معه في بعض السمات والصفات والذي يصنّف تحت مسمى الانفتاح الثقافي والحضاري والذي يؤثر بقدر ما في هوية الأنا والآخر

ويمكنني القول : إنّ عناصر الهوية وسماتها ، تعتبر نسق المعايير التي يعول عليها في تحديد هوية ما، وهي تعمل كنظام متكامل، تتداخل عناصره جميعا من أجل تحديد دلالة كل عنصر من عناصره الخاصة، وتتحدّد الهوية الجماعية في إطار تنظيم متكامل، وتمثّل وحدة كلية تشتمل على عناصر متقاربة ومتكاملة لتشكّل عبر ذلك كله حقيقة اجتماعية، تنطوي على العناصر التالية البنية الحيوية، والتاريخ، والديموغرافيا، والنشاطات الإنسانية، والتنظيم الاجتماعي، والذهنية .

¹ - اليكس مكيلي، الهوية، م.س.ذ، ص ص 22-26.

² - 55- صموئيل ب. هنتنغتون، من نحن؟ ترجمة أحمد مختار الجمال، مراجعة وتقديم - السيد أمين شلبي، المركز القومي للترجمة (القاهرة) العدد (1325) سنة 2009، ص 43..

الْمَبْحَثُ الثَّانِي

تَمَثُّلَاتُ الْهُوِيَّةِ فِي رِحْلَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ

الْهُوِيَّةُ وَالْغَيْرِيَّةُ فِي الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ

شُغِلَتْ جَدَلِيَّةُ الْأَنَا وَالْآخَرِ كُلُّ جَمَاعَةٍ بَشَرِيَّةٍ، وَأَثَرَتْ فِي كُلِّ الثَّقَافَاتِ بَيْنَ جَمَاعَاتِ الْبَشَرِ فَلَيْسَتْ الثَّقَافَةُ مُجَرَّدُ كَائِنٍ يُشَكِّلُ عِلَاقَتَهُ بِالْخَارِجِ فِي ضَوْءِ مُعْطَى نِهَائِيٍّ وَجَاهِزٍ بَلْ لَا يَدُ أَنْ تَتَطَوَّرَ بِالْإِنْكِشَاشِ أَوْ الْإِنْشِثَارِ، وَكَذَلِكَ بِإِخْتِكَاعِهَا سَلْبًا أَوْ إِيْجَابًا مَعَ الْهُوِيَّاتِ الثَّقَافِيَّةِ الْآخَرَى " فَالْهُوِيَّةُ الثَّقَافِيَّةُ لِأَيِّ لَأْمَةٍ هِيَ الْقَدْرُ الثَّابِتُ وَالْجَوْهَرُ وَالسِّمَاتِ وَالْقَسَمَاتِ الْمُشْتَرَكَةُ الَّتِي تُمَيِّزُ حَضَارَةَ أُمَّةٍ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْحَضَارَاتِ، وَالَّتِي تُجْعَلُ الشَّخْصِيَّةَ الْوُطَنِيَّةَ أَوْ الْقَوْمِيَّةَ طَائِعًا تَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ الشَّخْصِيَّاتِ الْوُطَنِيَّةِ الْقَوْمِيَّةِ الْآخَرَى (1)

يرى (KRESA BICER) (2): أَنَّ الثَّقَافَةَ كَلِمَةٌ مُفَعَّذَةٌ وَنَزَاعِيَّةٌ؛ لِأَنَّ التَّصَوُّرَ لَا يُمَثِّلُ أَيَّ كَيْنُونَةٍ فِي الْوَاقِعِ بَلْ بِالْآخَرَى أَنْ يَفْهَمَ بِشَكْلِ أَفْضَلِ كَدَالِيلِ جَوَالٍ يُنْتِجُ طَرَقًا مُخْتَلِفَةً وَمُتَبَايِنَةً مِنَ الْحَدِيثِ عَنْ النَّشَاطِ الْبَشَرِيِّ لِأَغْرَاضٍ مُتَنَوِّعَةٍ، بِمَعْنَى أَنَّ مَفْهُومَ الثَّقَافَةِ يَعُدُّ أَدَاةً فَعَالَةً بِالنِّسْبَةِ لَنَا كَشَكْلِ حَيَاتِي وَإِسْتِعْمَالَاتِهِ وَمَعَانِيهِ تَتَغَيَّرُ بِاسْتِمْرَارٍ كَمَا أَنَّ الْمُفَكِّرِينَ أُمْلَوْنَ فِي فَعَلٍ أَشْيَاءَ مُتَعَدِّدَةٍ بِهِ " وَأُخْتَلَفَ مَعَهُ فِي هَذِهِ الرُّؤْيَا إِذْ لِكُلِّ أُمَّةٍ ثَقَافَتُهَا وَحَضَارَتُهَا الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا مِنْ تَرَاثٍ وَآدَابٍ وَأَخْلَاقٍ وَفَنٍّ فَكَيْفَ لَا تُمَثِّلُ فِي الْوَاقِعِ كَيْنُونَةً ؟

وَكَذَلِكَ يَعْزُضُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي صَفَحَاتِ كِتَابِهِ أَنْوَاعًا لِلثَّقَافَةِ كَالْجَمَاهِيرِيَّةِ، وَالشَّبَانِيَّةِ وَالشَّعْبِيَّةِ فَكَيْفَ لَا يَكُونُ لَهَا كَيْنُونَةٌ فِي الْوَاقِعِ ؟ وَعَلَى أَيِّ أَسَاسٍ قِسْمِهَا ؟ فَلِكُلِّ أُمَّةٍ ثَقَافَتُهَا وَحَضَارَتُهَا الَّتِي تَمُرُّ بِمَرَاجِلٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْإِنْغِلَاقِ وَالْإِنْفِتَاحِ عَلَى الْآخَرِ حَسَبَ مَا تَمُرُّ بِهِ تِلْكَ الْأُمَّةُ مِنْ أَحْدَاثٍ وَحَسَبَ تَقَدُّمِهَا أَوْ جُمُودِهَا، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعَوَامِلِ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِي الْهُوِيَّةِ وَالْغَيْرِيَّةِ لِتِلْكَ الثَّقَافَةِ .

وَمَا الثَّقَافَةُ الْعَرَبِيَّةُ بِمَعْزِلٍ عَنْ ذَلِكَ، بَلْ شَانُهَا شَأْنُ غَيْرِهَا مِنَ الثَّقَافَاتِ الْآخَرَى مِنْ حَيْثُ التَّأْثِيرُ وَالتَّأَثُّرُ بِحَسَبِ الْمَرَاكِجِ الزَّمَنِيَّةِ، حَيْثُ نَجِدُهَا فِي فَنَرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ أَشَدَّ تَأْثِيرًا فِي غَيْرِهَا مِنَ الثَّقَافَاتِ

¹ - مدي سليمان، ورقة عمل قدمت لمؤتمر الثقافة والهوية، ضمن فعاليات مؤتمر أدباء مصر في دورته الثامنة والثلاثين، كتاب الأبحاث - القاهرة 2012، ص 77.

² - كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، ترجمة جمال بلقاسم، دار رؤية للنشر والتوزيع القاهرة 2018 ط 1 ص 143.

المُعاصرة لها بسبب قوتها وتقدمها العلمي والإنسانيّة ، وكذلك نجدها أكثر تأثراً بغيرها من الثقافات المعاصرة لها بسبب تأخرها عن ركب التقدم والتطور في جميع المجالات .

وهناك مجموعة من السمات التي تميّزت بها الهوية الثقافية العربيّة بل وانفردت بها، وتجعلها متميّزة عن غيرها من الهويات الثقافية الأخرى ، وتتمثل تلك الخصائص في اللغة والدين والتاريخ والتراث والعادات والتقليد والأعراف وغيرها من المكونات الثقافية المختلفة .

ونجد أنّ الثقافة تعتبر قوة من قوى التشكّل الحضاري للأمة في مذلولة الشامل : الفلسفي الأدبي السياسي والاجتماعي ، كما أنّها طاقة للإبداع في شتى حقول النشاط الإنساني، ولكي تتّمكن الثقافة من أن تكون قوة فاعلة، لابد وأن تسعى، لأن ترقى بوجدان الإنسان، وتهدب روحه وتصفّل مواهبه، وتوظف طاقاته وملكاتِه في البناء والتعمير، والتي تعمل من أجل تحقيق الرقي والتقدم والرخاء والأزدهار

ويرى كريس كاربر : " أنّ الهوية الوطنيّة شكّل من أشكال التماهي التخليّ مع الدولة القوميّة ويعبر عنها من خلال الرموز والخطابات ، ومن ثمّ فالأهمّ ليست مجرد تكوينات سياسيّة بل هي أيضاً أنظمة من التمثيلات الثقافيّة ومن ثمّ من خلالها تكون الهوية الوطنيّة ... الهوية الوطنيّة وسيلة لتوحيد التنوع الثقافي ... فالهوية الوطنيّة مرتبطة جوهرياً بالأشكال الاتصاليّة ومبنيّة من خلالها " (1)

وثمة تيّاران على الساحة الفكرية العربيّة يناقشان موضوع الهوية الثقافيّة ، أحدهما يطالب بالأصالة بالمحافظة على الموروث ، والاختيماء بالماضي ، بالرجوع إلى أزمّة كانت فيها الأمة قويّة ومزهوة الجانب ، والثاني يطالب بالإنخراط في اللحظة الآنية والنطّاع إلى المستقبل في إطار التراث الإنسانيّ المشترك ، والمحافظة على قيم الإنسانية في النظر إلى علاقتنا بالآخر .

¹ - كريس باركر ، معجم الدراسات الثقافية، ترجمة جمال بلقاسم ، مصدر سابق، ص 385.

المطلب الثاني

تمثيلات الهوية والغيرية في رحلة ابن بطوطة

يرى بعض الباحثين أن الدين هو المحرك الرئيس لدى المسلمين في رسم صورة الآخر، وقد ظهر هذا جلياً في القرون الوسطى من الحضارة الإسلامية، وقد ظهرت إلى جانب ذلك صوراً سردية مُنصّفة للآخر فالدين يُمثّل إشراقاً نورانياً ربانياً على الأرض، وفي نفس الوقت يُمثّل نسفاً ثقافياً يضطلع بدور في حياة البشر الروحية والاجتماعية (1)

صحيح أن الدين مؤثر قوي في تشكيل فكر الفرد وشخصية ولكن هذه الرؤية ليست مُنصّفة لهؤلاء الرحالة (وعلى رأسهم ابن بطوطة) الذين قضوا أزماناً طويلة ليقدّموا لنا هذا التراث الهائل عن الأمم التي مروا بها وعاشوها ، لا أن يُثبتوا صحة أو خطأ اعتقاد الآخر ، فمن الطبيعي أن تظهر الهوية الذاتية للرحالة أثناء تدوين رحلته ؛ لأن الذاتية لا يمكن عزلها عن الأدب ، ولكن هذا لا يعني أن الرحالة يجعل كل همّه أن يُثبت ذاته فقط ، ولكن همّه نقل ثقافة الآخر وتشكيل صورته للمتلقي ، وإن كان لذات الراوي حظ في ذلك فهذا لا يعينه . فاللصوص الرحلية تتضمّن رؤية وخطاباً ، وهذا يعكس بشكل واضح الأنا والآخر ، فإذا ارتبط هذا بإمكانية متعدّدة وزمن مُمتدّ فهذا يجعل النص حافلاً بأبعاد كثيرة تتفاعل سويّاً لبناء صورة الأنا والآخر أو الهوية والغيرية، وهذا ما أجده عند ابن بطوطة من خلال رحلته التي امتدت لفترة طويلة ومرّت بإمكانية مختلفة ، بل وأمم متعدّدة وشخصيات مختلفة " فالرحالة أخذ المفاتيح التأويلية للعالم والتاريخ " (2)

والرحلات تختلف في تناولها للآخر، والذات، فمنها ما يتناول الهوية والغيرية أو الأنا والآخر فكلاهما مرادف للآخر، ومنها ما يتناولهما بشكل خطّي عمودي بجانب الآخر، بمعنى أن تتناول الرحالة لعادات وأفكار وقيم وثقافة الآخر يساوي تناول غيره من الرحالة لهذا الآخر بشكل مباشر وهل الآخر إلا تلك الأفكار والعادات والثقافات ! ولقد ظهرت الغيرية واضحة في رحلات ابن بطوطة إلى جانب الهوية التي تمثّل بشكل مباشر في رحلاته ، وبضدّها تتميّز الأشياء ، فإن بطوطة حين يرسم شخصية هذا الآخر، ويبرز صفاته وعاداته وأفكاره واتجاهاته ، في مقابل ذلك

1- بنحادة، عبد الرحيم شگراوي، خالد: الرحلة والغيرية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب ط1، 2008. ص43.

2- د. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق ص 321.

يَنْزُرُ هُوَيْتُهُ أَيَّا كَانَ هَذَا الْآخِرُ مِنْ حَيْثُ الْإِتِّفَاقِ وَالْإِخْتِلَافِ . تَتَشَكَّلُ صُورَةُ الْآخِرِ لَدَى الرَّحَّالَةِ إِلَى جَانِبِ مُشَاهَدَاتِهِ مِنْ خِلَالِ صُورَتَيْنِ كَمَا يَرَى د . شُعَيْبُ حَلِيفِي⁽¹⁾

فَالأُولَى : قَبْلِيَّةٌ فِي ذِهْنِ الرَّائِي قَبْلَ انْطِلَاقِ الرِّحْلَةِ تَتَشَكَّلُ مِنَ السَّمَاعِ الَّذِي يُضْفِي عَلَى الْآخِرِ صُورَةً إِحْتِمَالِيَّةً ، تُرَكِّزُ عَلَى جَوَانِبِ اللَّامُؤُوفِ وَالْغَرَائِبِي وَبَعْضُ التَّقَالِيدِ الْمُغَايِرَةِ ، أَوْ مِنْ بَعْضِ الْمُؤَلَّفَاتِ التَّارِيخِيَّةِ وَالْجُغَرَفِيَّةِ .

وَالثَّانِيَّةُ : صُورَةُ بَعْدِيَّةٍ مُعَدَّلَةٍ بَعْدَ انْتِهَاءِ الرِّحْلَةِ فَعَلِيًّا تُحَافِظُ عَلَى آثَارِ مِنَ الصُّورَةِ الْأُولَى تُرَى مِنْ مَنْظُورٍ آخِرٍ يُورِطُهَا فِي يَقِينِ الْإِحْتِمَالِ وَوَهُمِ تَرْسِيخِ الْآخِرِ وَلَيْسَ كَمَا كَانَ أَوْ مَا سَيَكُونُ عَلَيْهِ وَلَعَلَّ الْمَرْحَلَةَ الْحَاسِمَةَ هِيَ لَحْظَةُ تَحْوِيلِ الْآخِرِ مِنَ التَّجَرِبَةِ الْمَعِيشَةِ إِلَى الْكِتَابَةِ التَّخْيِيلِيَّةِ فَيُضْبِحُ عَجَائِبُ وَخَوَارِقُ وَعَادَاتُ غَرِيبَةٌ عِنْدَ ابْنِ بَطُوطَةَ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الرَّائِي يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْآخِرِ نَظْرَةً تَمَيِّزِيَّةً مُقَارِنَةً تَعْتَمِدُ كَفَتَيِ الْإِنْسِجَامِ وَالْإِخْتِلَافِ بِإِعْتِبَارِهِمَا سُؤَالًا خَلْفِيًّا يَقِفُ وَرَاءَ كُلِّ صُورَةٍ لِلْآخِرِ هَلْ تَتَسَجَّمُ أَمْ تَخْتَلِفُ مَعَ الْآخِرِ ؟ وَاتَّقِ مَعَ . شُعَيْبُ فِي أَنَّ الْخُلْفِيَّاتِ الَّتِي تَكُونُ لَدَى الرَّحَّالَةِ عَنِ الْآخِرِ وَالَّتِي تَشَكِّلُ صُورَتَهُ قَبْلَ الرِّحْلَةِ لَدَى الرَّحَّالَةِ ذَاتُ تَأْثِيرٍ قَوِيٍّ بَعْدَ انْتِهَاءِ الرِّحْلَةِ وَأَثْنَاءَ تَذْوِينِهَا ، وَلَكِنَّ قَدْ تَتَغَيَّرُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ السَّابِقَةَ بِفِعْلِ الْمُخَالَطَةِ وَالْمَعَايِشَةِ مَعَ هَذَا الْآخِرِ فِيمَا بَعْدَ بَلْ قَدْ تَتَبَدَّلُ تَمَامًا دُونَ تَأْثِيرِ بِهِذِهِ الْمَعْرِفَةِ السَّابِقَةِ ، وَهَذَا يَعْتَمِدُ عَلَى طَبِيعَةِ تَفْكِيرِ الرِّحْلَةِ وَمَدَى قَبُولِهِ أَوْ رَفْضِهِ لِهَذَا الْآخِرِ فَنَمَّةٌ عَوَامِلُ نَفْسِيَّةٌ وَسِيكُولُوجِيَّةٌ تَوُثِّرُ فِي رَسْمِ صُورَةِ هَذَا الْآخِرِ لَدَى الرَّحَّالَةِ ، فَشَخْصِيَّةُ الرَّحَّالَةِ تَجْعَلُنَا نَفْهَمُ النَّصَّ ، وَمِنْ نَمَّةٍ صَرُورَةٍ وَأَهَمِّيَّةٍ مَعْرِفَةٍ مِنْ يَرْحَلُ ، ذَلِكَ أَنَّ الرَّحَّالَةَ لَيْسَ هُوَ فِي نَهَائِيَّتِهِ كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ أَثْنَاءَ تَذْوِينِهِ لِلرِّحْلَةِ وَالَّتِي هِيَ تَجَرِبَةٌ بِأَثَارِهَا شَخْصِيَّةٌ كَانَتْ أَمْ مُتَنَابَوِيَّةٌ بَيْنَ الذَّاتِ وَالْآخِرِ مِنْ خِلَالِ الرُّؤْيِ وَالْمُشَاهَدَاتِ وَالْفَرَائِاتِ ، حَيْثُ حَصِيلَةُ التَّقَاعُلِ مُؤَكِّدَةٌ فِي كُلِّ الْمَرَاجِلِ⁽²⁾

وَعِنْدَ ابْنِ بَطُوطَةَ قَدْ يَخْتَلِفُ الْأَمْرُ نَوْعًا مَا فَكَمَا ذَكَرْتُ فِي بَدَايَةِ بَحْثِي فَإِنَّ بَطُوطَةَ لَمْ يَدُونْ رِحْلَاتَهُ ، إِنَّمَا أَمْلَأَهَا عَلَى ابْنِ جَزَى ، وَهُوَ الَّذِي صَاغَهَا صِيَاعَةً أَدَبِيَّةً ، وَهَذَا لَهُ دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي تَشْكِيلِ صُورَةِ الْآخِرِ ، فَلَا يَنْبَغِي دَوْرٌ كَذَلِكَ كَمَا لَا يَنْبَغِي بَطُوطَةَ فِي رَسْمِ صُورَةِ هَذَا الْآخِرِ . تَتَعَدَّدُ صُورَةُ الْآخِرِ فِي ثَخَفَةِ النُّظَارِ وَمِنْهَا :

¹د. شعيب حليفي ، الرحلة في الأدب العربي .مرجع سابق ص 322 ،
²د. شعيب حليفي ، الرحلة في الأدب العربي ، مرجع سابق . ص306 .

أولاً : الآخر والأوتوإثنوغرافي : وهذه تسمية ماري لويس برايت⁽¹⁾، حيث يتم تقديم صورة الآخر الإثنوغرافية من طرف هذا الآخر نفسه ، وباستحضار صوته غير الحوار أو ثقلاً في السياق على لسان الرحالة أو الراوي . يقول ابن بطوطة : " ولما تمت الليلة أنصرف الوزير ، ومضيت معه فمررتا ببستان للمخزن . فقال لي الوزير : هذا البستان لك . وسأعمر لك فيه داراً لسكنائك . فشكرت فعله ودعوت له ثم بعث لي من الغد بجارية وقال خديمة : يقول الوزير : إن أعجبتك هذه فهي لك وإلا بعثت لك جارية مرهتية ، وكانت الجوازي المرهتيات تعجبي ، فقلت له : إنما أريد المرهتية فبعثها لي . " (2)

وهذا النوع من صورة الآخر قد يكثر وقد يقل في أدب الرحلة حسب رغبة الراوي . ولا يتحقق الأوتوإثنوغرافي إلا برغبة الراوي وعلى غهده فيؤرد هذا النوع من التقديمات الذاتية للآخر بقصد تعزيز الخبر وتنويع السرد ، فضلاً عن الأسلوب الذي يحكم الرحلة ، وقد ورد هذا النوع قليلاً عند ابن بطوطة . (3)

ثانياً : الآخر كما هو في الواقع : وهذا النوع ورد في تحفة النظار كثيراً مما يدل على حيادية ابن بطوطة في عرضه لصورة الآخر ، حيث سجل مواقف حيادية في عرضه لعادات وتقاليد الأمم التي مر بها " فيسجل الراوي موقفاً حيادياً يدفع به إلى نقطة يعبر فيها عن رأيه صراحة فيكتفي بعرض الآخر في مرحلة أولى ، كما فعل ابن بطوطة في مواقف كثيرة أو في مرحلة موالية تعزز الحياد من خلال التعبير بالإندهاش والمفاجأة من كون تفاصيل الآخر غير مألوفة ... ومن كل الروايات تتشكل مواقف موازية عن الذات في قوتها أو في ضعفها . " (4)

لقد أبرز ابن بطوطة صوته الآخر من خلال إبرازه لقيم الكرم وأنواعه ، وقد تكرر هذا كثيراً عند كشفه عن القيم المتصلة بالعلاقات التي تربط بين الأنا والآخر .

تنوع في تحفة النظار صور حضور الآخر في الأشكال البيوغرافية والسيرة والتراجمية والمناقبية والأوتوإثنوغرافية بتنوع الأشكال الرحلية المتفاعلة بين قطبي الأنا والآخر ، إضافة إلى ما

Mary Louise Part : Imperial Eyes, Travel Wrinting and transculturation ,Lound ,ed¹-1
Rouen, Franc

2 - تحفة النظار ، تحقيق عبدالهادي التازي ، مرجع سابق ، ص 595 .

3 - د. شعيب حليفي ، الرحلة في الأدب العربي ، المصدر السابق ص 327 .

4 - نفس المصدر السابق ص 337 .

يُمَيِّزُ النَّصُّ الرَّحْلِيَّ مِنْ خُصُوصِيَّةٍ تَتَّوِي صُورَةُ الْآخِرِ بِكَافَّةٍ تَمْظَهَرَاتُهَا ، وَتَعَكِّسُ أُسْلُوبًا فِي الْكِتَابَةِ
لَمَّا يُشَكِّلُهُ الْآخِرُ مِنْ حُضُورٍ مُنْتَظَمٍ دَاخِلِ الرَّحْلَةِ". (1)

لَقَدْ تَمَكَّنَ ابْنُ بَطُوطَةَ مِنْ أَنَّ يَرَى الْعَالَمَ الْقَدِيمَ كُلَّهُ جَوَابًا وَشَاعِرًا وَقَاضِيًا وَسَفِيرًا وَالتَّأَثَّرَ بِالْآخِرِ
وَتَوَثَّرَ الْآخِرَ بِالْأَنَا الْخَاصَّةَ بِابْنِ بَطُوطَةَ ، لِيَصِفَهُ وَضَقًّا فَائِقًا وَرَاصِيًا وَقَفَّ فِيهِ عَلَى عَادَاتِ
الشُّعُوبِ وَدِيَانَاتِهَا وَحَيَاتِهَا الْيَوْمِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ ، وَتَخَذْتُ فِيهِ عَنْ أَهْلِهَا وَحُكَّامِهَا وَعِلْمِهَا وَعُلَمَائِهَا
وَتِجَارَتِهَا وَتَجَارُهَا . وَوُصِفَ الْبِنَاءُ وَالْعُمُرَانُ وَمَزَايَاهُ وَطَرَائِقُهُ . كَمَا وَصِفَ الْأَلْبِسَةُ بِأَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا
وَأَنْوَاعِهَا وَلَمْ يَنْسَ الْأَطْعِمَةَ وَأَنْوَاعَهَا وَطَرِيقَةَ صِنَاعَتِهَا . وَمِمَّا يَزِيدُ مِنْ جَمَالِيَّاتِ هَذَا الْأَثَرِ التَّأْرِيخِي
هُوَ الْوَاقِعُ الرَّاحِرُ بِالْحَرَكَةِ وَالتَّعَبُّةِ الْيَوْمِيَّةِ لِزَوَايَا الْحَيَاةِ، سِيَاسَةً وَتِجَارَةً وَزَّرَاعَةً وَعُلُومًا .

كَذَلِكَ وَقَفَّ ابْنُ بَطُوطَةَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِلْآخِرِ فَوُصِفَ الْكُنَائِسُ
وَالْمَسَاجِدُ وَالْجَوَامِعُ وَالطُّقُوسُ وَالشَّعَائِرُ، وَكَذَلِكَ الْأَزْيَاءُ الْمَدَنِيَّةُ وَالشَّعْبِيَّةُ وَالْبَرِّيَّةُ وَالْبَحْرِيَّةُ وَالتَّطْبِيبُ
الْبَدَائِيُّ بِالْأَعْشَابِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنَّ تَكُونُ مَصْدَرًا عِلْمِيًّا لِلْإِنْسَانِ الْقَدِيمِ

¹د. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، مصدر سابق ص 325 .

خاتمة الفصل الثاني:

سعى الفصل الثاني تمثيلات الهوية في رحلة ابن بطوطة (دراسة في آليات تشكل المعنى والدلالة) إلى دراسة مفهوم الهوية وأشكالها والعلاقة بين الذات والهوية السردية وأراء الأدباء في ذلك ثم الهوية الغيرية في الثقافة العربية وفي رحلة ابن بطوطة. وقد توصل الباحث إلى العديد من النتائج يمكن إيجازها على النحو الآتي:

أولاً- تعدّ الهوية السردية بأنها الحالة التي تصف العمل وهي تتمثل في الوصف والجاية والإلزام وهي علاقة نوعية بين تكوين العمل وتكوين الذات وهذا ما ظهر جلياً في رحلة ابن بطوطة من خلال سرده لأحداث الرحلة .

ثانياً- هناك مكونات ثلاثة تشكل هذه الهوية وهي المكون الاجتماعي والمكون الثقافي والمكون السياسي وهذه هي ابعاد الهوية . فالهوية هي مركب من العناصر المرجعية المادية والاجتماعية والذاتية المضطفاة التي تسمح بتعريف خاص للفاعل الاجتماعي، لقد قسم بول ريكز الهوية الهوية إلى ثلاثة انواع ، الهوية الشخصية والهوية الكيفية والهوية السردية. فالهوية الشخصية لا يمكن أن تنفصل عن البعد الزمني للوجود الإنساني رغم الاختلاف على مفهومها في حقل الفلسفة.

ثالثاً- الهوية هي عبارة عن مجموعة من العناصر المادية ، والتاريخية ، والنفسية ، والنفسية الاجتماعية، وإن عناصر وسمات الهوية ، تعتبر نسق المعايير التي يعول عليها في تحديد هوية ما ، وهي تعمل كنظام متكامل ، تتداخل عناصره جميعاً من أجل تحديد دلالة كل عنصر من عناصره الخاصة.

رابعاً- إن الهوية والغيرية في الثقافة العربية هي الهوية الثقافية لأي أمة هي الفدر الثابت والجوهر والسمات والسمات المشتركة التي تميز حضارة أمة عن غيرها من الحضارات ، والتي تجعل الشخصية الوطنية أو القومية طابعا تتميز به عن الشخصيات الوطنية القومية الأخرى.

وفي الفصل الثالث تناول فيه الباحث تمثيلات الغيرية في رحلة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة دراسة في آليات تشكل المعنى والدلالة.

الفصل الثالث

تمثيلات الغيرية في رحلة

تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة

دراسة في آليات تشكّل المعنى والدلالة.

تمهيد:

المبحث الأول: تمثيلات الغيرية في رحلة ابن بطوطة.

المبحث الثاني: الهوية والغيرية (الأنا والآخر).

تمهيد :

لأبَدٍ لِكُلِّ نَصٍّ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَى رُؤْيَا ، وَتَتَعَدَّدُ وَسَائِلُ النُّصُوصِ لِلْوُصُولِ إِلَى الْهَدَفِ مِنْ إِنْشَائِهَا فِي عَرْضِ فِكْرَتِهَا بِخَطَابٍ يُنَاسِبُ تِلْكَ الْفِكْرَةَ ، يَعْكُسُ النَّصُّ صُورَةَ الْأَنَا وَالْآخِرِ ، وَهُوَ بِذَلِكَ يَرْتَبِطُ بِفَضَاءَيْنِ مُتَعَدِّدَيْنِ يَتَقَاعَلُ لِبْنَاءِ صُورَةٍ كُلِّ مِنْهُمَا ، يَقُولُ شُعَيْبٌ حَلِيفِي : " يَتَضَمَّنُ كُلُّ نَصٍّ بِالضَّرُورَةِ رُؤْيَا وَخَطَابًا ، وَيَعْكُسُ بِشَكْلِ وَاضِحٍ الْأَنَا الَّتِي لَا تُوجَدُ بِدُونِ الْإِنْتِ " وَالْآخِرُ وَحِينَمَا يَكُونُ النَّصُّ رِحْلَةً فَإِنَّهُ يَرْتَبِطُ بِفَضَاءَيْنِ مُتَعَدِّدَيْنِ وَزَمَنٌ مُمْتَدُّ يَجْعَلُ النَّصَّ حَافِلًا بِأَبْعَادٍ سَيْرِيَّةٍ - جُغْرَافِيَّةٍ ، تَرَاجُمِيَّةٍ وَمُنَاقِبِيَّةٍ ، يَتَقَاعَلُ لِبْنَاءِ صُورَةِ الْأَنَا وَصُورَةِ الْآخِرِ ، حَيْثُ الرَّحَالَةُ أَخَذُ الْمُنَاقِبِ التَّأْوِيلِيَّةِ لِلْعَالَمِ وَالتَّارِيخِ وَالذَّاتِ " (1)

فَالرَّحَالَةُ حِينَ يُعِيدُ صِيَاغَةً مَا شَاهَدَهُ فِي رِحْلَتِهِ يَعْكُسُ صُورَةَ الْأَنَا وَصُورَةَ الْآخِرِ ، الَّتِي هِيَ الْمَقْصِدُ الْأَسَاسِيُّ مِنْ سَرْدِ الرِّحْلَةِ ، حَيْثُ يَصُورُ أَدَبُ الرُّحَلَاتِ كُلُّ مَرٍّ بِهِ الرَّحَالَةُ مِنْ أَخْدَاتٍ وَكَذَلِكَ عَادَاتٍ وَتَقَالِيدِ الْأُمَمِ الَّتِي عَاشَهَا وَمَرَّ بِهَا ، بَلْ يَقِفُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ تِقَافَاتِهَا ، وَيُقَارِنُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أُمَمٍ أُخْرَى وَبِلَادٍ أُخْرَى ، تَقَافَاتٍ أُخْرَى مَرَّ بِهَا ، وَكَذَلِكَ يُقَارِنُ بَيْنَ هَذِهِ الْفَضَاءَاتِ وَالتَّقَافَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ وَبَيْنَ تَقَاتِهِ الَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا ، كُلُّ هَذَا يَتَقَاعَلُ فِي بُوتَقَةٍ وَاحِدَةٍ لِيُنتِجَ لَنَا أَدَبًا ثَرِيًّا رَاقِيًّا .

" شَيْءٌ فَلَسَفَاتِ اللُّغَةِ إِلَى أَنَّ التَّمَثِيلَاتِ ذَاتُ مَعْنَى ؛ وَذَلِكَ نَتِيجَةٌ لَوْجُودِ نِظَامٍ مِنَ الْعَلَامَاتِ التَّقَاضِلِيَّةِ الَّتِي تُؤَلِّدُ الْمَعَانِي مِنْ خِلَالِ الْإِخْتِلَافِ ، فَالتَّمَثِيلُ يَمْنَحُ الْأَشْيَاءَ وَالْمُمَارَسَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْمَعْنَى وَالْوُضُوحَ ، فَعَمَلِيَّةُ التَّمَثِيلِ هِيَ الَّتِي تُعْطِي لِلْمُمَارَسَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمَعْنَى وَالذَّلَالَةَ. " (2)

تُعَدُّ التَّمَثِيلَاتِ إِلَى جَانِبِ دَلَالَةِ اللُّغَةِ أَخْذُ الْأَلْيَاتِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا الرَّحَالَةُ لِيُعَبِّرَ عَنْ فِكْرَتِهِ بِوُضُوحٍ ، فَالْمُتَلَقِّي حِينَ يَرَى الْكَلِمَاتِ أَمَامَهُ مَصُورَةً بِالتَّمَثِيلِ يَكُونُ أَكْثَرُ تَقَاعُلًا مَعَ مَا يَتَلَقَّاهُ .

وَيُعِيدُ السَّرْدُ أَخْذُ الْأَلْيَاتِ الْمُثِيلِ فِيهِ وَسِيلَتُهُ لِنَقْلِ التَّقَافَاتِ الَّتِي عَاشَهَا .

وَيُعَبِّرُ السَّرْدُ بِوُضُوحِهِ أَخْذُ الْأَلْيَاتِ التَّمَثِيلِ لَدَى الرَّحَالَةِ هَدَفًا فِي حَدِّ ذَاتِهِ ، فَهُوَ طَرِيقُهُ إِلَى نَقْلِ التَّقَافَاتِ الَّتِي عَاشَهَا وَمَرَّ بِهَا فِي طَرِيقِ رِحْلَتِهِ ، إِلَى جَانِبِ أَنَّهُ وَسِيلَتُهُ مِنْ وَسَائِلِ أَدَبِ الرِّحْلَةِ بَلْ إِنَّهُ يَمَثِّلُ لَهُ الْحَيَاةَ نَفْسَهَا ، فَبِدُونِهِ لَا يُمْكِنُهُ نَقْلُ تَجْرِبَتِهِ إِلَى الْقَارِي ، فَعِيَابُ الْقُدْرَةِ عَلَى السَّرْدِ يُشِيرُ إِلَى غِيَابِ الْمَعْنَى ذَاتَهُ أَوْ رَفْضَهُ .

1- د. شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي ، مرجع سابق، ص 321 .

2- كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية ، مرجع سابق، ص 131 .

يَقُولُ رُولَانْ بَارْت: " السَّرْدُ مَوْجُودٌ بِبَسَاطَةٍ كَالْحَيَاةِ نَفْسُهَا ... أُمَمِي ، وَعَابِرٌ لِلتَّارِيخِ وَلِلثَّقَافَاتِ (1) لَقَدْ أَهْتَمُّ أَدَبُ الرُّحَلَاتِ بِصِفَةِ عَامَّةٍ بِتَحْدِيدِ صُورَةِ الْآخِرِ فِي الرِّحْلَةِ مِنْ خِلَالِ الْأَوْصَافِ الْمُتَوَالِيَةِ لِلْفَضَاءَاتِ الَّتِي يَحِلُّ بِهَا الرِّحَالَةُ أَثْنَاءَ رِحْلَتِهِ وَوُصِفَ عَادَاتُ هَذِهِ الْأُمَمِ ، كُلُّ ذَلِكَ يَتِمُّ عَبْرَ خُطَابٍ مُبَاشِرٍ نَلِمُسُهُ فِي سَيَرُورَةِ السَّرْدِ وَتَتَامِيهِ . لَكِنَّ مَا أَوْدُ الْوُقُوفُ عَلَيْهِ فِي رِحْلَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ هُوَ تَحْدِيدُ مَلَامِحِ الْآخِرِ فِي زَمَنِ مُعَايِرٍ مِنْ خِلَالِ مَا حَفَظَتْهُ الذَّاكِرَةُ ، ثُمَّ أُعِيدَ صِيَاغَتُهُ فِي زَمَنِ مُخْتَلَفٍ عَنِ زَمَنِ الرِّحْلَةِ ، وَرُبَّمَا كَانَ هَذَا لِصَيَاغِ مَا كَتَبَهُ ابْنُ بَطُوطَةَ أَثْنَاءَ رِحْلَتِهِ ، أَوْ لَمَّا تَعَرَّضَ لَهُ مِنْ أَهْوَالِ أَثْنَاءِ رِحْلَتِهِ أَدَّى لِفَقْدِهِ تِلْكَ الْأَوْرَاقِ ، أَوْ رُبَّمَا قَصْدٌ تَمْرِيرِ صُورَةِ الْآخِرِ إِلَى الْمُتَلَقِّي بُوعِي وَقَصْدِيَّةٌ فِي زَمَنِ مُخْتَلَفٍ لِتَرْتِيبِهِ وَتَنْقِيحِهِ وَصِيَاغَتِهِ . "

لَكِنَّ الْجَانِبَ الْأَهَمَّ فِي مِثْلِ هَذِهِ الرُّحَلَاتِ هُوَ تَحْدِيدُ الذَّاكِرَةِ الْمُصَوِّرَةِ لِلْآخِرِ وَخُصُوصِيَّتَيْهَا وَالتَّأْشِيرَ عَلَى التَّحَوُّلَاتِ التَّدْرِيجِيَّةِ الَّتِي لِحَقَّتْهَا وَهِيَ تَنْتَقِلُ عَبْرَ هَذِهِ الْفَضَاءَاتِ ، فَالذَّاكِرَةُ تَقُومُ بِتَخْفِيفِ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْدَاثِ وَتُعِيدُ إِنْتَاجَهَا فِي زَمَنِ مُعَايِرٍ ، وَعَبْرَ سَيَرُورَةِ الْإِنْتَاجِ تَنْجَلِي هَذِهِ التَّحَوُّلَاتِ الَّتِي تُشَكِّلُ جُزْءًا مِنْ وَعْيٍ جَدِيدٍ يَعْمَلُ الرِّحَالَةُ عَلَى تَمْرِيرِهِ لِلْمُتَلَقِّي بُوعِي وَقَصْدِيَّةٌ " (2)

وَيَبْدُو أَنَّ ذَاكِرَةَ ابْنِ بَطُوطَةَ قَدْ اشْتَغَلَتْ بِقُوَّةٍ طِيلَةَ رِحْلَتِهِ وَحَاوَلَتْ أَنْ تَحْفَظَ بِدَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي انْتَقَطَتْ بِبَصَرِهِ وَأَدْرَكَهَا عَقْلُهُ ، وَكَذَلِكَ اشْتَغَلَتْ بِقُوَّةٍ مَرَّةً أُخْرَى فِي زَمَنِ السَّرْدِ مِنْ أَجْلِ اسْتِحْضَارِ صُورَةِ الْآخِرِ وَتَنْسِيقِهَا فِي مَلْفُوظٍ مُتَنَاسِقٍ مُتَكَامِلٍ مَنَحَ الْخُطَابِ حَيَوِيَّةً خَاصَّةً تَعَكِّسُ قُوَّةَ ذَاكِرَتِهِ الَّتِي يَتِمَّتْ بِهَا الرِّحَالَةُ ، وَهِيَ تُحَاوِلُ اسْتِيعَابَ الْآخِرِ هَذَا الْاسْتِيعَابُ الْفَاعِلُ فِي ذَاتِهَا الْمَطْوَرُ لِمَعْرِفَتِهَا وَرُؤْيَيْهَا لِلْوَاقِعِ وَتُبْدِي رَغْبَتَهَا فِي التَّفَاعُلِ مَعَهُ أَكْثَرَ خُصُوصًا مَا لَا يَتَعَارَضُ مَعَ مَبَادِيهِ وَقَدْ كَانَ هَذَا فِي إِعْتِقَادِي ؛ لِأَنَّ ابْنَ بَطُوطَةَ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَبْرَزَ صُورَةُ هَذَا الْآخِرِ ، فَيَتَعَرَّفَ عَلَى ثَقَافَةِ هَذَا الْآخِرِ وَعَادَاتِهِ وَتَقَالِيدِهِ ، فَيُحَسِّنُ بِذَلِكَ نَقْلَ صُورَتِهِ لِلْمُتَلَقِّي .

المبحث الأول: تمثيلات الغيرية في رحلة ابن بطوطة.

المبحث الثاني: الهوية والغيرية (الأنا والآخر).

¹ -هايدن وايت ، محتوى الشكل الخطاب السردى والتمثيل التاريخي ، ترجمة د. نايف الياسين ، ط1 2017 المنامة ، هيئة الآثار والثقافة البحرين، ص 28 .

² - سعيد جبار ، خطاب الرحلة رؤية في الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة ، ط1 ، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة 2017م، ص 152 .

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ

تَمَثُّلَاتُ الْغَيْرِيَّةِ فِي رِحْلَةِ بَطُوطَةَ

(دِرَاسَةٌ فِي آلِيَّاتِ تَشَكُّلِ الْمَعْنَى وَالِدَّلَالَةِ)

اعْتَمَدَ ابْنُ بَطُوطَةَ فِي رِحْلَتِهِ عَلَى الْمَشَاهِدَةِ وَالْإِسْتِفْصَاءِ ، فَكَانَ حَرِيصًا عَلَى وَصْفِ كُلِّ مَا مَرَّ بِهِ مِنْ عَادَاتٍ أَوْ ثَقَافَاتٍ أَوْ أَمَاكِنٍ وَأَحْدَاثٍ وَصَفٍ دَقِيقًا ، وَفِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ يُقَارِنُ بَيْنَ هَذِهِ الثَّقَافَاتِ أَوْ تِلْكَ الْعَادَاتِ ، وَالْأَمَكِنَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ خِلَالِ اعْتِمَادِهِ عَلَى لُغَةٍ تُعَبِّرُ عَنْ هَذِهِ الْمَثَلَاتِ . فَجَاءَتْ دَلَالَاتُ اللُّغَةِ الَّتِي اسْتُخْدِمَهَا مُعَبِّرَةً تَغْيِيرًا دَقِيقًا عَنْ هَذِهِ الْأَمَكِنَةِ وَالثَّقَافَاتِ .

يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمُ : " جَعَلَ الْبَحْثُ فِي الْبُنْيَةِ السَّرْدِيَّةِ الْإِهْتِمَامَ بِالْمُرُويِّ لَهُ أَكْثَرَ مَوْضُوعِيَّةً مِنْ ذِي قَبْلِ ، ذَلِكَ أَنَّ أَرْكَانَ الْإِرْسَالِ الْأَسَاسِيَّ مِنْ مُرُويٍّ وَمُرُويٍّ لَهُ اسْتَكْمَلَتْ ، مِمَّا سَهَّلَ فَعَالِيَّةَ الْإِبْلَاحِ السَّرْدِيِّ ، الَّذِي هُوَ الْحَافِزُ الْكَامِنُ خَلْفَ الْأَثَرِ السَّرْدِيِّ ، وَتَكْشِفُ آيَةُ نَظَرَةٍ إِلَى الْعَلَاقَاتِ الَّتِي تَرْبِطُ الرَّايِي بِالْمُرُويِّ وَبِالْمُرُويِّ لَهُ أَنَّ كُلَّ مُكَوَّنٍ لَا تَتَحَدَّدُ أَهْمِيَّتُهُ بِذَاتِهِ ، إِنَّمَا بِعَلَاقَتِهِ بِالْمُكَوَّنِينَ الْآخَرِينَ ، وَأَنَّ كُلَّ مُكَوَّنٍ سَيَفْتَقِرُ إِلَى أَيِّ دَوْرٍ فِي الْبُنْيَةِ السَّرْدِيَّةِ ، إِنْ لَمْ يَنْدِرِجْ فِي عِلَاقَةٍ عَضُويَّةٍ وَحَيَوِيَّةٍ مَعَهُمَا ، كَمَا أَنَّ غِيَابَ مُكَوَّنٍ مَا أَوْ ضُمُورَهُ ، لَا يُخِلُّ بِأَمْرِ الْإِرْسَالِ وَالْإِبْلَاحِ وَالتَّلَفِّي فَقَطْ بَلْ يَقْوِضُ الْبُنْيَةَ السَّرْدِيَّةَ لِلْخَطَابِ ، وَلِذَلِكَ فَالتَّضَافُرُ بَيْنَ تِلْكَ الْمُكَوَّنَاتِ ضَرُورَةٌ مُلْزِمَةٌ فِي أَيِّ خِطَابٍ سَرْدِيٍّ (1)

لَقَدْ أَرَادَ ابْنُ بَطُوطَةَ الْعُبُورَ إِلَى فَضَاءَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ فَضَاءَاتِ الرِّحْلَةِ لِلتَّعَرُّفِ عَلَى ثَقَافَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَلِكِنَّهُ فَضَّلَ وَجْهَةً يَقْصِدُهَا كُلُّ مُسْلِمٍ ، وَهِيَ رِحْلَةُ الْحَجِّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ وَزِيَارَةِ قَبْرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، تِلْكَ الرِّحْلَةُ الَّتِي كَانَتْ نَفْسُهُ تَهْفُو إِلَيْهَا ، إِنَّهُ الشَّوْقُ وَالْخِينُ إِلَى جَوَارِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهَذَا كَانَتْ بِدَايَةِ رِحْلَاتِهِ الَّتِي تَتَقَلَّلُ بَعْدَهَا إِلَى بُلْدَانٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَمْصَارٍ كَثِيرَةٍ خَالَطَ فِيهَا أَمَّا شَتَّى وَتَعَرَّفَ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ عَلَى ثَقَافَاتٍ وَعَادَاتٍ جَدِيدَةٍ ، سَطَّرَ كُلُّ هَذَا فِي كِتَابِهِ .

الرِّحْلَةُ الْأُولَى :

¹ - عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط1 2008. ص 10.

يَبْدَأُ ابْنُ بَطُوطَةَ نَصِّ رِحْلَتِهِ كَمَا يَأْتِي : « كَانَ خُرُوجِي مِنْ طَنْجَةِ مَسْقِطِ رَأْسِي فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ الثَّانِي مِنْ شَهْرِ اللَّهِ رَجَبِ الْفَرْدِ ، عَامَ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ (1324 م) . مُعْتَمِدًا حَجَّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ وَزِيَارَةَ قَبْرِ الرَّسُولِ » . وَيُنْهِئُهَا هَكَذَا : "... ثُمَّ خَرَجْتُ فَوَصَلْتُ إِلَى حَضْرَةِ فَاسٍ ، حَضْرَةِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أُيْدَهُ اللَّهُ ، فَقَبَّلْتُ يَدَهُ الْكَرِيمَةَ ، وَتَيَمَّمْتُ بِمُشَاهِدَةِ وَجْهِهِ الْمُبَارَكِ ، وَأَقَمْتُ فِي كَنْفِ إِحْسَانِهِ بَعْدَ طَوْلِ الرِّحْلَةِ ⁽¹⁾ »

وَكَانَتْ رِحْلَةُ الْحَجِّ وَهِيَ الْإِلْهَامُ الْأَكْبَرُ لِابْنِ بَطُوطَةَ ، فَتَعَرَّفَهُ وَرُؤْيَتَهُ لِلنَّاسِ هُنَاكَ مِنَ الْأَمْصَارِ حَفَرَهُ عَلَى الْقِيَامِ بِجَوْلَةٍ حَوْلَ الْعَالَمِ ، بَدَأَ حَيَاتُهُ بِتَعَلُّمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالشَّرِيعَةِ فَكَانَا لَهُ الْبِرَّاسُ وَالْإِلْهَامُ . وَذَهَبَ مِنْ طَنْجَةِ بِاتِّجَاهِ إِفْرِيقِيَا لِلْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ثُمَّ لِدُمِيَّاطِ وَمِنْهَا لِلْقَاهِرَةِ وَالنَّيْلِ وَأَسْوَانَ إِلَى الْبَحْرِ الْأَخْمَرِ ثُمَّ جَدَّةَ إِلَى الْقَاهِرَةِ وَدِمَشْقَ عَنِ فِلَسْطِينَ ثُمَّ اللَّادِقِيَّةِ ، فَحُلَبَ ، وَمِنْ بَعْدِهَا سَارَ مَعَ قَافِلَةٍ حُجَّاجٍ إِلَى مَكَّةَ ثُمَّ الْعِرَاقِ ثُمَّ فَارِسٍ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى مَكَّةَ لِيَحُجَّ مَرَّةً أُخْرَى ، وَمِنْهَا إِلَى الْيَمَنِ وَالْبَحْرَيْنِ وَبَعْدَهَا لِمَكَّةَ ثُمَّ مِصْرَ (أُمُّ الْبِلَادِ كَمَا أُطْلِقَ عَلَيْهَا) .

الرَّحْلَةُ الثَّانِيَّةُ .

ذَهَبَ لِلشَّامِ وَأَسِيَا الصُّغْرَى وَسَيْنُوبُوبَ وَجَزِيرَةَ الْقُرْمِ وَجَنُوبَ رُوسِيَا وَأَرْضَ الْبُلْغَارِ وَفَارِسَ وَالْهِنْدَ حَيْثُ تَوَلَّى بِهَا الْقَضَاءَ لِعُشْرِ سِنَوَاتٍ ! ثُمَّ مِنْ سَيْلَانٍ إِلَى إِنْدُونِيسِيَا وَكَانْتُونُ فِي الصِّينِ وَمِنْ سُوْمَطْرَةَ لِمِصْرَ بَحْرًا وَفِلَسْطِينَ بَرًّا إِلَى مِصْرٍ وَتُونِسَ وَسَرْدِينَ ثُمَّ طَنْجَةَ وَجَبَلُ طَارِقُ وَعَبْرَ لِلْأَنْدَلُسِ وَزَارَ كُلَّ مَنَاطِقِهَا .

الرَّحْلَةُ الثَّالِثَةُ :

يَصِفُهَا ابْنُ بَطُوطَةَ فِي كِتَابِهِ : " كَمْ كَانَتْ مُعَاصِرَةُ شَاقَّةٍ حِينَ تَوَعَّلْتُ فِي أَعْمَاقِ إِفْرِيقِيَا وَوَاصَلْتُ سَيْرِي حَتَّى مَالِي ثُمَّ عُدْتُ أَدْرَاجِي حَتَّى انْتَهَيْتُ بِي الْمَطَافَ عِنْدَ بِلَادِ الْفَرَسِ " . وَيُبَيِّنُ لَنَا هُنَا قِيَمَةَ هَذَا الْوَصْفِ آنَذَاكَ مِنْ خِلَالِ أُسْلُوبِ أَدْبِي رَاضٍ ... هَذِهِ الْمَقُولَاتُ هِيَ مِيرَاثُ وَإِعْلَامُ فَاقَ كُلِّ مَا وَجَدَ مِنْ تَطَوُّرٍ وَقِيَمَةٍ ، هَذِهِ الْمَقُولَاتُ هِيَ مُحَصِّلَةٌ هَذِهِ الرُّحُلَاتِ الَّتِي كَادَ أَنْ يُهْلِكَ نَفْسُهُ فِي سَبِيلِهَا .

يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمُ : " لَا يُمَكِّنُ فَهْمُ أَهَمِّيَّةِ السَّرْدِ فِي تَحْلِيلِ النُّصُوصِ إِنَّ لَمْ تَرْتَبِطْ بِنَظَرِيَّةِ التَّلَقِّيِ الَّتِي تَعْنَى بَدَأُ الْوَلِ النُّصُوصِ وَتَلْقِيَهَا ، وَإِعَادَةُ إِنتَاجِ دَلَالَتِهَا سِوَاءٍ كَانَ ذَلِكَ فِي الْوَسْطِ النَّقَافِي

¹ - ابن بطوطة، تحفة النظار، تحقيق التازي مرجع سابق ، ص 33 .

الَّذِي تَظْهَرُ فِيهِ وَهُوَ مَا نَصْطَلِحُ عَلَيْهِ بِالتَّلَقِّي الْخَارِجِيِّ أَمْ دَاخِلُ الْعَالَمِ الْفَيْي التَّخِيلِيِّ لِلتَّصُوصِ
الْأَدْبِيَةِ ذَاتَهَا وَهُوَ مَا نَصْطَلِحُ عَلَيْهِ بِالتَّلَقِّي الدَّاخِلِيِّ⁽¹⁾

لَقَدْ أَحْسَنَ ابْنُ بَطُوطَةَ وَصْفَ مَا مَرَّ بِهِ مِنْ مُشَاهِدٍ وَأَمَّا كِنَ وَأَحْدَاثُ ، فَيَصِفُ لَنَا الْأَهْرَامَاتِ
قَائِلًا : " هَذِهِ الْأَهْرَامَاتِ مِنَ الْعَجَائِبِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ وَهِيَ بِنَاءٌ بِالْحَجَرِ الصَّلْبِ الْمُنْحَوْتِ
مِثْنَاهُ السُّمُومُ مُسْتَدِيرٌ مُتَّسِعُ الْأَسْفَلِ ضَيِّقُ الْأَعْلَى كَالشَّكْلِ الْمَخْرُوطِ لَا أَبْوَابَ لَهَا وَلَا تَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ
بِنَائِهِ . " وَمِمَّا وَصَفَهُ أَيْضًا : بَيْنْتُ الْمَقْدِسِ وَقُبَّةُ الصَّخْرَةِ . " وَهِيَ مِنْ أَعْجَبِ الْمَبَانِي وَأَتَقْنَهَا وَأَغْرِبَهَا
شَكْلًا .

وَقَدْ تَوَقَّرَ حَظُّهَا مِنَ الْمَحَاسِنِ وَأُخِذَتْ مِنْ كُلِّ بَدِيعَةٍ بِطَرْفٍ ، وَهِيَ قَائِمَةٌ عَلَى نَشْرِي وَسَطِ
الْمَسْجِدِ يَصْعَدُ إِلَيْهَا فِي دَرَجٍ رُخَامٍ . وَلَهَا أَبْوَابٌ . " والدائر بها مفروش بالرخام أيضا مُحْكَمُ
الصَّنْعَةِ ، وَكَذَلِكَ دَاخِلُهَا فِي ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا مِنْ أَنْوَاعِ الزَّوَاكِ وَرَائِقِ الصَّنْعَةِ مَا يَعْجُزُ الْوَاصِفُ .
وَأَكْثَرُ ذِكْرٍ مَغْشَى بِالذَّهَبِ فَهِيَ تَتَلَأَلُ أَنْوَارًا ، أَوْ تَلْمَعُ لَمَعَانِ الْبَرْقِ . يُحَارُ بِصَرٍّ مُتَأَمِّلُهَا فِي
مَحَاسِنِهَا ، وَيُقَصِّرُ لِسَانُ رَائِيهَا عَنْ تَمَثُّلِهَا . وَفِي وَسَطِ الْقُبَّةِ الصَّخْرَةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي جَاءَ ذِكْرُهَا فِي
الْآثَارِ . فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَجَ مِنْهَا إِلَى السَّمَاءِ . وَهِيَ صَخْرَةٌ صَمَاءٌ ، ارْتِفَاعُهَا نَحْوُ
قَامَةِ . وَتَحْتَهَا مَعَارَةُ مَقْدَارِ بَيْنَتٍ صَغِيرٍ . ارْتِفَاعُهَا نَحْوُ قَامَةِ أَيْضًا يَنْزِلُ إِلَيْهَا عَلَى دَرَجٍ . وَهُنَاكَ
شَكْلٌ مِخْرَابٍ . وَعَلَى الصَّخْرِ شَبَاكَانِ اثْنَانِ مُحْكَمَا الْعَمَلِ ، يُغْلِقَانِ عَلَيْهِمَا أَحَدُهُمَا ، وَهُوَ الَّذِي
يَلِي الصَّخْرَةَ مِنْ حَدِيدٍ بَدِيعِ الصَّنْعَةِ وَالثَّانِي الْخَشَبِ . وَفِي الْقُبَّةِ دَرَقَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ حَدِيدٍ مُعَلَّقَةٌ هُنَاكَ
 . وَالنَّاسُ يَزْعُمُونَ أَنَّهَا دَرَقَةُ حَمْرَةٍ بِنْتِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . " وَدِمَشْقُ أَيْضًا . تَجَلَّى
لِعَيْنِي سَحَرٌ دِمَشْقِي فِي ذَلِكَ الْجَوِّ السَّائِدِ مِنَ التَّسَامُحِ وَالتَّنَوُّعِ فِي الْأَوْقَافِ الَّتِي فَاضَ رِيعُهَا
لِتَتَكَلَّلَ بِنَفَقَاتِ الْعَاجِزِينَ عَنِ الْحَجِّ أَوْ الْحَاجِّينِ نِيَابَةً عَنْهُمْ فَضَّلَا عَنْ أَبْوَابِ زِفَافِ الْعَرَائِسِ حَتَّى
السَّجْنَاءِ جُعِلُوا لِفَكَ رِقَابِهِمْ أَوْقَافًا كَمَا حُطِّي عَابِرِي السَّبِيلِ بِنَصِيبِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْأَوْقَافِ مَا بَيْنَ ضَايِفَةِ
مِنْ جِهَةٍ وَتَغْيِيدٍ لِلطَّرُقِ وَرَضْفُهَا مِنْ جِهَةٍ

وَبَعْدَ هَذَا التَّجَوُّلِ الطَّوِيلِ وَالْمُتَشَعِّبِ فِي مَنَاطِقِ عِدَّةٍ مِنْ حَوْضِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ وَآسِيَا
وَإِفْرِيقِيَا ، يَكُونُ ابْنُ بَطُوطَةَ قَدْ تَجَوَّلَ طَوَالَ سَنَوَاتٍ عِدَّةٍ فِي كَامِلِ تِلْكَ الرُّفْعَةِ الْجُغْرَافِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ
تَمَثِّلُ فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ دِيَارَ الْإِسْلَامِ . وَهُوَ فِي مَعْرِضٍ وَصَفِهِ لِعَادَاتٍ وَأَحْوَالِ الشُّعُوبِ الَّتِي زَارَهَا

¹ - عبد الله إبراهيم ، موسوعة السرد العربي ، مرجع سابق ، ص 14 .

حَرِصُ دَائِمًا عَلَى أَنْ يُقَارِنَ بَيْنَ مَا أَتَى بِهِ الْإِسْلَامُ إِلَيْهَا ، وَبَيْنَ مَا كَانَ مِنْ « وَخْشِيَّةٍ وَضَرَاوَةٍ فِيهَا قَبْلَ وَضُولِ الْإِسْلَامِ ». وَهُوَ حَرِصٌ دَائِمًا ، وَلَا سِيَمًا عِنْدَ الْحَدِيثِ عَنْ مَنَاطِقِ الْأَطْرَافِ ، أَنْ يَصِفَ كَيْفَ يَتَجَاوَرُ الْإِسْلَامُ مَعَ مَا قَبْلَهُ ، وَلَا سِيَمًا فِي أُفْرِيقِيَا . وَبِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَانَ كُلُّ مَا يَرَاهُ مِنْ عَجَائِبِ وَغَرَائِبِ هُوَ مَا يَبْدُو خَارِجًا وَغَيْرَ مألُوفٍ لِلْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ الَّذِي يَنْتَمِي هُوَ إِلَيْهِ . وَمِنْ الْوَاضِحِ فِي نَصِّ ابْنِ بَطُوطَةَ أَنَّ الْمَسْكُوتَ عَنْهُ ، إِنَّمَا هُوَ اعْتِبَارُ مَا هُوَ حَاصِلٌ فِي مَرْكَزِيَّةِ عَالَمِ الْإِسْلَامِ (الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ فِي زَمَانِهِ) الْقَاعِدَةُ الْعَقْلَانِيَّةُ الْخَضَارِيَّةُ ، وَكُلُّ مَا هُوَ خَارِجٌ عَنْهَا ضَرِبٌ مِنَ التَّوَحُّشِ وَالنَّزْعَةِ الْغَرَائِبِيَّةِ . إِنَّمَا إِزَاءَ الْعَالَمِ الَّذِي يَصِفُهُ ابْنُ بَطُوطَةَ . وَنَخْلُصُ إِلَى أَنَّ رِحْلَةَ ابْنِ بَطُوطَةَ هُدِمَتِ الْأَسْوَارُ الْوَهْمِيَّةُ بَيْنَ الْأَجْنَاسِ الْمَعْرِفِيَّةِ ، وَبَيْنَ الْأَنْوَاعِ الْأَدْبِيَّةِ ، فَهِيَ فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ أَدَبُ رِحْلَةٍ ، وَسِيرَةٌ ذَاتِيَّةٌ وَتَارِيخٌ ، وَجُغْرَافِيَّةٌ ، وَفَنُّ الْعَلَاقَاتِ الْعَامَّةِ ، وَوَسَائِلُ النُّقْلِ وَتَطَوُّرُهَا وَأَخِيرًا عِلْمُ الْإِنْسَانِ (الْإِنْشَرُوبُولُوجِيَا) .

المبحث الثاني الهوية والغيرية (الأنا والآخر) المطلب الأول الهوية (الأنا)

إن رحلة ابن بطوطة بوصفها نص أدبي، كانت ثرية بما يتعبّر عن الأنا والآخر من خلال دلالات التراكيب والجمال التي صاغها ابن جزي، وهو كذلك ثري بالمفردات والتراكيب التي تصف حال هذا الأنا وصفاته وعاداته وتقاليده، وأخلاقه وثقافته، وكذلك الآخر .

يرى (FUKO) أن " الذاتية تتعبّر بالنسبة للدراسات الثقافية أثرًا للخطاب؛ لأنّ الذاتية مشكّلة من خلال مواقع الذات التي يُرغمنا الخطاب على تبنيها ... وقد أثار هذا التفسير للذاتية اهتمام العديد من الكتاب الثقافيين؛ لأنّه يظهر سلب الدوّات القدرة على الفعل ... ورغم ذلك يُمكن اعتبارها موقعًا للذات داخل الخطاب أي أنّها محدّدة خطابيًا ⁽¹⁾

والنص من منظور الاتجاه السيميائي له أكثر من وظيفة؛ جمالية، وأخلاقية، وقانونية، وغيرها، يقول منظر هذه المدرسة يوري لوتمان: "الإزدواج بين هذه الوظائف لا يعتبر فقط صرنا من التكرار، ولكنه يبدو أيضا أمرًا مشروعًا، بل وضروريًا، فلكي يحقق النص وظيفته، ينبغي أن يتحمّل بعض الوظائف الأخرى .." ⁽²⁾

وينظر إلى سيميائية الثقافة على أنّها العلم الذي يهتم بدراسة الظواهر الثقافية باعتبارها عمليّات تواصلية، وهو ما يجعل النص مفتوحًا على جميع أنساق الدلالة والترميز والتواصل داخل مجتمع معين .

إنّ الثقافة كما يعرفها **URYE LWETMAN**: "فهي ليست مطلقًا نظامًا عالميًا، بل هي نظام فرعي يتشكّل طبق نمط مخصوص" ⁽³⁾، فالثقافة كما يرى لوتمان بهذا الاعتبار كاللغة، فلا يُمكن الفصل بين اللغة والثقافة، فإذا تصوّرنا أنّ اللغة ظاهرة منعزلة فإنّ عملها الفعلي يجري في نظام ثقافي أعم يؤسّس معه كلاً معقدًا .

¹ د. كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، ترجمة جمال بلقاسم، مرجع سابق، ص 201، 202.

² د. حبيب بوزارة، سيميائية الثقافة لدى جماعة موسكو-تارتو، أغسطس 2018 ط1، مطبوعات جامعة معسكر الجزائر، ص 134.

³ د. حبيب بوزارة، سيميائية الثقافة لدى جماعة موسكو، المصدر السابق، ص 135.

وهذا ما أكدته د. سميرة أنساعد تقول: "وبعيداً عن التعريفات الدقيقة للهوية ولعناصرها، نودُ التركيز على أهم خصائصها وهي إنسانية وجماعية تتشكّل وتتعمّق عبر التفكير، والأحاسيس الفردية، ورغبات الجماعة وآمالهم، وطبيعة علاقاتهم، وهي تتماثل في خصائصها مع اللغة أهم مكون للهوية.⁽¹⁾

فالسيميائيات هي كشف واستكشاف لعلاقة دلالية غير مرئية من خلال التجلي المباشر للواقعة. إنها تدرّب العين على التقاط الضمني والمتوازي والممتنع، لا مجرد الاكتفاء بتسمية المناطق النصية أو التعبير عن مكونات المتن... إنا أداة لقراءة كل مظاهر السلوك الإنساني بدءاً من الإنفعالات البسيطة، ومزوراً بالطغوس الاجتماعية وإنهاء بالأنساق الإيديولوجية الكبرى⁽²⁾ ولقد رصّد ابن بطوطة في تحفته ظواهر اجتماعية وإنسانية وأخلاقية للمجتمعات والأمم التي مرّ بها من خلال تراكيبه اللغوية، واستخدام تغيّبات سرديّة مثال الهوية الثقافية له، ولآخر الذي عايشه ومرّ به؛ ومن ذلك قوله عن ظلم عمال الموحدين: "وكان أمير بجاية إذ ذاك أبا عبد الله محمد بن سيّد الناس الحاجب، وكان قد توفّي من تجار تونس الذين صخبته من مليانة محمد بن الحجر الذي تقدّم ذكره، وترك ثلاثة آلاف دينار، وأوصى بها لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديد؛ ليوصلها إلى ورثته بتونس، فأنتهى أمره إلى ابن سيّد الناس المذكور، فأنزعها من يده وهذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم."⁽³⁾

ويذكر من أخلاق حاكم المدينة كرمه وإحفاؤه به يقول عنه: "فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء الفضلاء يسمى بأبي الحسن، فنظر إلى ثيابي وقد لوثها المطر، فأمر بغسلها في داره، وكان الإحرام منها خلّاً، فبعث مكانه إحراماً بعلبكياً، وصرّ في أحد طرفيه دينارين من الذهب، فكان ذلك أول ما فتح الله به على وجهتي.⁽⁴⁾

وكذلك يذكر من عادات الناس في الأعياد بعد الفراغ من صلاة العيد أن يسلم كل منهم على من يعرفه، وقد وقف يطالع هذا المشهد الرائع ويصفه وصفاً دقيقاً موطّفاً تغيّبة الوصف في سرده، ليصور للقارئ هذه العادات، قال: "قصّدت مدينة بلش من بلاد الأندلس في ليلة عيد برسم

¹ د. سميرة أنساعد، مضامين الهوية وتجليات الأنا والآخر في خطاب الرحلة الجزائرية المعاصرة، دراسة تطبيقية على رحلات أحمد منور إلى أوروبا، مجلة الأثر، العدد 21 ديسمبر 2014، ص 126.

² د. سميرة أنساعد، مضامين الهوية وتجليات الأنا والآخر، المصدر السابق ص 126.

³ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحفة النظر، دار إحياء العلوم، بيروت ط1 1987 بيروت لبنان، ج1 ص 34.

⁴ سعيد بنكراد، السيمانيات مفاهيمها وتطبيقاتها، مكتبة الأدب المغربي، دار حوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا ط3- 2012، ص 15.

رواية الحديث المُسلسل بِالْعِيدِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الْكِمَادِ ، وَحُضِرَتْ الْمُصَلَّى مَعَ النَّاسِ فَلَمَّا فَرَغَتْ الصَّلَاةَ وَالْخُطْبَةَ أَقْبَلَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالسَّلَامِ ، وَأَنَا فِي نَاحِيَةٍ لَا يُسَلِّمُ عَلَيَّ أَحَدٌ فَقَصَدَ إِلَى شَيْخٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْمَذْكُورَةِ ، وَأَقْبَلَ عَلَيَّ بِالسَّلَامِ وَالْإِيْنَسَ ، وَقَالَ نُظِرْتَ إِلَيْكَ فَرَأَيْتَكَ مُنْتَبِذًا عَنِ النَّاسِ ، لَا يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ فَعَرَفْتَ أَنَّكَ غَرِيبٌ ، فَأُحِبِّبْتُ إِيْنَسَكَ. "(1)

وَحِينَ يَتَعَرَّضُ لِمَدِينَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ يَصِفُهَا وَصْفًا دَقِيقًا ، وَيَذْكُرُ عَادَاتِ أَهْلِهَا فِي خُرُوجِهِمْ لِمَزَارَةِ الْقُبُورِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، وَيُقَارِنُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ غَيْرِهَا مِنَ الْمُدُنِ الَّتِي رُحِّلَ إِلَيْهَا فِي غَيْرِهَا مِنَ الْبُلْدَانِ يَقُولُ : " وَلِمَدِينَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ ، بَابُ السَّيْرِ ، وَإِلَيْهِ يَشْرَعُ طَرِيقُ الْمَغْرِبِ ، وَبَابُ رَشِيدِ وَبَابُ الْبَحْرِ ، وَالبَابُ الْأَخْضَرُ ، وَلَيْسَ يَفْتَحُ إِلَّا يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَيَخْرُجُ النَّاسُ مِنْهُ لِمَزَارَةِ الْقُبُورِ . وَلَهَا الْمَرْسَى الْعَظِيمُ ، وَلَمْ أَرَّ فِي مَرَّاسِي الدُّنْيَا مِثْلَهُ إِلَّا فِي مَرَّسَى كُولَمٍ وَقَالِيقٍ وَطَبْ بِلَادِ الْهِنْدِ وَمَرَّسَى الْكُفَّارِ بِسَرَادِقِ بِلَادِ التُّرْكِ ، وَمَرَّسَى الرِّيتُونِ بِبِلَادِ الصِّينِ. "(2)

يَتَشَكَّلُ الْأَنَا مِنْ خِلَالِ الْمَعْرِفَةِ السَّابِقَةِ لِلذَّاتِ وَالتَّوَقُّعِ لِمَا يَحْدُثُ مِنْ خِلَالِ التَّحَوُّلِ الْمَعْرِفِيِّ فَظَاهِرَةٌ كَيُنَوِّنُو الذَّاتَ هِيَ ظَاهِرٌ مُوجَّهٌ لِاسْتِعْمَالِ دَاخِلِيٍّ وَذَاتِيٍّ . يَقُولُ غَرِيْمَاسُ : " تَتَشَكَّلُ الْأَهْلِيَّةُ الْهُوِيَّةُ إِذْنُ مَا يُشَبِّهُ الْمَتَخَيَّلَ الْكُنْفِيَّ لِلذَّاتِ ، فَالصُّورَةُ / الْهَدَفُ تَتَكَوَّنُ بِتَطَابُقٍ مَعَ التَّعْرِيفِ الَّذِي اقْتَرَحْنَاهُ بِالنِّسْبَةِ لِلتَّصَوُّرَاتِ الْهُوِيَّةِ مِنَ التَّكْيِيفَاتِ الَّتِي تَمَيُّزُ كَيُنَوِّنُو الذَّاتَ الَّتِي يَتِمُّ اسْتِعْبَابُهَا إِثْرَ تَحَوُّلٍ مَعْرِفِيِّ وَاسْتِثْنَائِيٍّ . إِنَّ الصُّورَةَ الْهَدَفَ بِاعْتِبَارِهَا تَصَاوُرًا هِيَ إِذْنُ ظَاهِرٌ كَيُنَوِّنُو الذَّاتَ ، إِنَّهَا ظَاهِرٌ مُوجَّهٌ لِاسْتِعْمَالِ دَاخِلِيٍّ وَذَاتِيٍّ ، وَهُوَ مَا يَتَحَكَّمُ جُزْئِيًّا عَلَى الْأَقْلِ فِي السُّلُوكِيَّاتِ الْمُقْبَلَةِ لِلذَّاتِ مِنْ خِلَالِ بَرْمَجَةِ خِطَابِيَّةٍ. "(3)

1 - نفس المصدر السابق ج 1 ص 36.

2- نفس المصدر السابق ج 1 ص 39

3- الجيرداس . ج. غريْمَاس جاك فونتين ، سيميائيات الأهواء من حالات الأهواء إلى حالات النفس ، ت. سعيد بنكراد ، دار الكتب الوطنية بنغازي ليبيا ، ط 1 ، سنة 2010 ، ص 165 .

المطلب الثاني الغيرية (الآخر)

تتشكّل صورة الآخر لدى الرحالة من خلال صورتين ؛ الأولى قبلية من خلال السماع عنه قبل الرحلة ، والثانية بعدية معدّلة بعد انتهاء الرحلة كما يرى شعيب حليفي ، يقول : " ولعلّ المرحلة الحاسمة هي لحظة تحويل الآخر من التجربة المعيشة إلى الكتابة التخيلية ، فيصير مجرد قيم عائب وخوارق وعادات غريبة عند ابن بطوطة ؛ لأنّ الراوي ينظر إلى هذا الآخر من وجهة نظر تمييزية مقارنة تعتمد كفتي الأنسجام والاختلاف باعتبارهما سؤالاً خفياً يقف وراء كل صور الآخر ... هل تتسجم أم تختلف مع الأنا ؟" (1)

كان ظهور الرحالة في البلاد الإسلامية لغرضين هما التجارة ، والدين ، والسياسة " وأما الدافع الديني فأداء فريضة الحج ، وهو ضرب من السفر لا يخلو من أسباب التعرف إلى ما في رُفعة الإسلام الشاسعة من أقوام (2) .

لغرض الأخير خرج الرحالة الشهير ابن بطوطة (703 - 777 هـ / 1304 - 1377 م) من طنجة مسقط رأسه يوم الخميس الثاني من شهر رجب عام 725 هـ [1325 م] ، وما دار بخلداه وقتئذ ، على الأرجح ، ألا يعود إلى موطنه إلا بعد سياحة مدتها أربع وعشرون سنة . (3) جاب خلالها إفريقيا والمشرق الإسلامي . وقد برز هذا الآخر في رحلة ابن بطوطة متعدّدا ومتنوّعا وعلى قدر اختلاف الأحوال الجغرافية والعمرانية والثقافية ، أي شخصية فردية أو جماعية واجهت الأنا الشخصي المتمثل في صاحب الرحلة . وغني عن البيان أنّ هذا الأخير كائن متعدّد الأبعاد ، تتداخل فيه دوائر انتماء مختلفة ، فيها ما هو ديني ومذهبي ، ومنها ما هو جغرافي وبيئتها ما هو اجتماعي . وأي دائرة انتماء تمثّل زاوية نظر إلى الآخر ، ونريد أن نتبين كيف رأى ابن بطوطة غيره من الأفراد والجماعات ونتكلّم عن الآخر من وجهة الأنا وفقاً لما يلي :

1- الآخر من وجهة نظر مذهبية :

ليس من العزير أن نرسم خارطة إنتشار المذاهب الفقهية خلال القرن الهجري الثامن الذي شهد رحلته ابن بطوطة ، وقد حدّد أنّ ابن خلدون ، أحد أعلام ذلك القرن ، نحو دقيق مناطق النفوذ

1- د. شعيب حليفي ، الرحلة في الأدب العربي ، مرجع سابق ، ص 322

2- تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأمصار ، دار الكتاب اللبناني (د.ت) ، ص 9.

3- د. شعيب حليفي ، الرحلة في الأدب العربي ، مرجع سابق ، ص 430.

لِكُلِّ مَذْهَبٍ مِنْ تِلْكَ الْمَذَاهِبِ آئِدٌ . وَخِلَاصَةُ كَلَامِهِ فِي ذَلِكَ " أَنَّ كَثْرَةَ مُقَلِّدِي ابْنِ حَنْبَلٍ ، حِينَئِذٍ بِالشَّامِ ، وَأَمَّا الْحَنْفِيَّةُ فَكَانَتْ تَسُودُ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَمُسْلِمِي الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَبِلَادِ الْعَجَمِ (1) ، بَيْنَمَا كَانَ الْمَذْهَبُ الشَّافِعِيُّ مُقَلَّدًا فِي مِصْرٍ أَكْثَرَ مِنْ سَوَاهَا (2) .

فَقَدْ نَقَلَ مِنْ شُؤُونِ جَامِعِ بَيْتِ أُمِّيَّةٍ بِدِمَشْقٍ مَا يَفِيدُ أَنَّ الصَّلَاةَ تَقَامُ هُنَاكَ جَمَاعَاتٍ ، كُلُّ جَمَاعَةٍ تُصَلِّي وَفَقَ الْمَذْهَبِ الَّذِي تَتَّبِعُهُ ، يَقُولُ : " وَإِذَا سَلَّمَ إِمَامُ الشَّافِعِيَّةِ مِنْ صَلَاتِهِ أَقَامَ الصَّلَاةَ إِمَامٌ مَشْهُدٌ عَلَيْهِ ، ثُمَّ إِمَامٌ مَشْهُدٍ الْحَسَنِ ، ثُمَّ إِمَامٌ الْكَلَّاسَةَ ، ثُمَّ إِمَامٌ مَشْهُدٌ أَبِي بَكْرٍ ، ثُمَّ إِمَامٌ مَشْهُدٌ عُمَرُ ، ثُمَّ إِمَامٌ مَشْهُدٌ عُثْمَانُ ثُمَّ إِمَامٌ الْمَالِكِيَّةِ (ثُمَّ إِمَامٌ الْحَنْفِيَّةِ ثُمَّ إِمَامٌ الْحَنَابِلَةُ ثُمَّ بَعْدَ هَؤُلَاءِ خَمْسَةٌ أَيْمَةٌ لِقَضَاءِ الْفَوَائِدِ ، فَلَا تُزَالُ الصَّلَاةُ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ » (3) .

هَذَا التَّبَايُنُ الْوَاضِحُ بَيْنَ الْمَذَاهِبِ وَتَشَعُّبُهَا يُوضِحُ طَبِيعَةَ الْفِتْرَةِ الَّتِي عَاشَهَا ابْنُ بَطُّوطَةَ بَيْنَ هَذَا الْآخِرِ ، وَطَبِيعَةُ فِكْرِهِ ، وَتَغَصُّبِهِ . وَنَقَفَتْ عَلَى تَعَايُشِ مَذْهَبِي شَامِيٍّ فِي مَجَالِ الْقَضَاءِ أَيْضًا ، مِنْ خِلَالِ قَائِمَتَيْنِ بِأَسْمَاءِ قِضَاةٍ خُلِبَ وَدِمَشْقُ وَارِدَتَيْنِ فِي كِتَابِ رِحْلَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ ، حَيْثُ ذُكِرَ مَذْهَبُ كُلِّ قَاضٍ مِنْهُمْ ، فَإِنَّ تِلْكَ الْقَائِمَةَ تُظْهِرُ أَنَّ الْمَذَاهِبَ الْأَرْبَعَةَ الْكُبْرَى مُمَثَّلَةٌ فِي الْمَدِينَتَيْنِ عَلَى حَدِّ سِوَا . وَكَذَا شَأْنُ التَّدْرِيسِ بِدِمَشْقٍ عَلَى مَا وَصِفَ مِنْ شَأْنِهِ ، إِذْ يَبْدُو كُلُّ مَذْهَبٍ مِنْ تِلْكَ الْأَرْبَعَةِ مُنْفَرِدًا بِمَدَارِسٍ خَاصَّةٍ بِهِ (4) .

وَفِي سِيَاقِ حَدِيثِهِ عَنْ مَكَّةَ ، أُبْرِزَ ابْنُ بَطُّوطَةَ مَظْهَرًا آخِرَ مِنْ مَظَاهِيرِ التَّعَايُشِ الْمَذْهَبِيِّ ، إِذْ تَحَدَّثَ عَنْ أَيْمَةِ الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ ، فَإِذَا فِيهِمُ الْمَالِكِيُّ وَالشَّافِعِيُّ وَالْحَنَفِيُّ وَالْحَنَبَلِيُّ .

وَمَعَ أَنَّ ابْنَ بَطُّوطَةَ حَاوَلَ عَدَمَ الْإِنْحِيَاظِ لِأَيٍّ مِنْ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ إِلَّا أَنَّهُ أُسْرِفَ فِي مَدِيحِ إِمَامِ الْمَالِكِيَّةِ مِمَّا يُدَلِّلُ عَلَى أَنَّهُ انْحَازَ إِنْحِيَاظًا خَفِيًّا لَهُمْ ، وَهَذَا طَبِيعِيٌّ لِأَنَّ مَذْهَبَ الْمَالِكِيَّةِ كَانَ أَكْثَرَ انْتِشَارًا فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ فَهُوَ مَذْهَبُ الْفِقْهِيِّ ، يَقُولُ « وَإِمَامُ الْمَالِكِيَّةِ بِالْحَرَمِ الشَّرِيفِ هُوَ الشَّيْخُ الْفَقِيهُ الْعَالِمُ الصَّالِحُ الْخَاشِعُ الشَّهِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ... » ، فَهَذَا الْمَدِيحُ قَدْ لَا يُضَاهِي مَا خُصَّ بِهِ إِمَامُ الْحَنْفِيَّةِ مِثْلًا مِنْ مَحَامِدِ الصِّفَاتِ ، حَيْثُ يَقُولُ عَنْهُ صَاحِبُ الرِّحْلَةِ إِنَّهُ « مِنْ كُبَرَاءِ أَيْمَةِ مَكَّةَ وَفَضْلَائِهَا ، يَطْعَمُ الْمُجَاوِرِينَ وَأَبْنَاءَ السَّبِيلِ ، وَهُوَ أَكْرَمُ فَقَهَاءِ مَكَّةَ ... » (5) . وَهَذَا تَظْهَرُ صُورَةُ الذَّاتِ الْحَنْفِيَّةِ مِنْ خِلَالِ عَرْضِهِ لِصُورَةِ الْآخِرِ .

1- ابن خلدون : المقدمة ، دار نهضة مصر ، القاهرة 2012 ، ص 544 .

2- نفس المصدر السابق ص 545 .

3- تحفة النظائر ، مرجع سابق ، ص 66 - 67 .

4- نفس المرجع السابق ، ص 53 : 69 .

5- تحفة النظائر ، مرجع سابق ، ص 103 ، 102 .

وَكَذَا حَالِ ابْنِ بَطُّوطة فِي الْأَغْلَبِ الْأَعَمِّ مِنْ سَائِرِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي ذَكَرَ فِيهَا الْقَضَاةَ وَالْأَيْمَةَ
وَالْمَدَارِسَ، تَجَلِي فِي كَلَامِهِ عَنْ كُلِّ مِنَ الْمَالِكِيِّ وَالشَّافِعِيِّ وَالْحَنَفِيِّ وَالْحَنْبَلِيِّ عَفْوِيَّةٌ وَتَلْقَائِيَّةٌ
مُجَرَّدَتَانِ مِنَ النَّزْعَةِ الْمَذْهَبِيَّةِ، فَتَرَاهُ، مِثْلًا، لَا يَتِمَّاكَ نَفْسُهُ عَنِ الْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّ قَاضِي قَضَاةِ
الْمَالِكِيَّةِ بِحُلْبٍ « أَخَذَ الْخُطَّةَ عَنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ »، بَعْدَ أَنْ يَنْعَتَ قَاضِي الشَّافِعِيَّةِ بِعُلُوِّ الْهِمَّةِ وَكِبَرِ
الْقَدْرِ وَكُرَمِ النَّفْسِ وَحُسْنِ الْأَخْلَاقِ وَالتَّقَنُّنِ بِالْعُلُومِ . كَمَا تَرَاهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ يُذَكِّرُ قَاضِي الْحَنْبَلَةِ
بِدِمَشْقٍ ، فَيَصِفُهُ بِكَوْنِهِ « مِنْ خِيَارِ الْقَضَاةِ ».

إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْحِكَايَةِ كَمِثْلِ الشَّجَرَةِ الَّتِي تَحْجُبُ الْعَايَةَ ، فَهِيَ بُؤْرَةٌ لِكثَافَةِ دَلَالِيَّةِ ذَاتِ شَحْنَةٍ
تَعْبِيرِيَّةٍ وَطَاقَةٍ تَأْثِيرِيَّةٍ تَبْدُدَانِ مَا تُشْعِرُ بِهِ سَائِرُ فُصُولِ الْكِتَابِ مِنْ تَجَرُّدِ صَاحِبِ الرِّحْلَةِ عَنِ
الْإِنْتِمَاءِ الْمَذْهَبِيِّ فِي وَصْفِ الْقَضَاةِ وَالْأَيْمَةِ وَغَيْرِهِمْ ، إِذْ تُضْفِي عَلَى صُورَةِ الْحَنْبَلَةِ كَمَا مِنْ
الشَّوَابِهِ غَيْرِ هَئِنَ، وَرَبَّ شَائِبَةٍ تَجُرُّ إِلَى الطَّغْنِ عَلَى الْمَثُوبِ فِي الْعَقِيدَةِ ، كَشَبْهَةِ التَّشْبِيهِ الَّتِي
تُوجِي بِهِ إِشَارَةُ ابْنِ بَطُّوطة .

وَلَيْسَتْ صُورَةُ الْقَاضِي الْحَنْبَلِيِّ، فِي الْحِكَايَةِ الْمَذْكُورَةِ ، بِأَفْضَلِ مِنْ صُورَةِ الْفَقِيهِ الْحَنْبَلِيِّ فَإِنَّهُ
يَبْدُو عَلَى غَيْرِ هُدًى فِي مُمَارَسَةِ مِهَامِهِ ، مُجَانِبًا لِلزَّهَادَةِ . وَكَذَا عَامَّةُ الْحَنْبَلَةِ ، مَا سَلِمَتْ صُورَتُهُمْ
مِنْ شَوَابِهِ ."

وَلَا يُوجَدُ الْآخِرُ بِشَكْلِ مُطْلَقٍ ، وَإِنَّمَا بِصُورَةٍ نَسَبِيَّةٍ بِإِعْتِبَارِهِ هُويَّةَ مُعَايِرَةٍ ، تَتَبَدَّى مِنْ خِلَالِ الْأَنَا
وَالنَّعَاغَلَاتِ الْمُمَكِّنِ حَدُوثَهَا وَمِنْ التَّأَثِيرَاتِ الثَّقَافِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ السَّائِدَةِ وَمَا تُعْرِضُهُ مُهَيِّمَاتٍ مُوجَّهَةٍ
لِأَنَّ كُلَّ نَصِّ رِخْلِي يُحْكِي إِكْتِشَافَ الْآخَرِينَ عَنَّا تِيَمَاتٍ يَغْتَمِدُهَا الرَّحَالَةُ مُؤْضُوعًا لَهُ إِنْطِلَاقًا مِنْ
رُؤْيَاةٍ إِسْلَامِيَّةٍ قَدْ تَصَبَّغَ بِلَوْنِ صُوفِيٍّ أَوْ سِيَاسِيٍّ أَوْ غَيْرَهَا ⁽¹⁾.

وَمَهْمَا يَكُنْ حَظُّهَا مِنَ الصَّدَقِيَّةِ ، تَبْدُو هَذِهِ الرِّوَايَةُ مُنْطَوِيَّةً عَلَى قَصْدِيَّةٍ ، ذَلِكَ أَنَّ النَّاطِرَ فِي
الْكِتَابِ ثُخْفَةُ النُّظَّارِ يُلَاحِظُ مَا يَحْمِلُ عَلَى الْقَطْعِ بِأَنَّ فِي نَفْسِ ابْنِ بَطُّوطة شَيْئًا تُجَاهَ الْحَنْبَلَةِ فَهُوَ
كُلَّمَا تَخَدَّثَ عَنْ قَضَاةٍ صُفِّعَ أَوْ أَيْمَةً مَسْجِدٍ جَعَلَ الْحَنْبَلِيَّ الْآخِرَ فِي الذِّكْرِ .

2- الْآخِرُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْجُغَرَفِيَّةِ .

تَبْدُو الْبِلَادُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِنْ خِلَالِ الْمُسَمَّى بـ " ثُخْفَةُ النُّظَّارِ " مَجَالًا جُغَرَفِيًّا شَاسِعًا ذَا جَنَاحَيْنِ
مَتَمَايِزِينَ ، يُشَارُ إِلَى أَحَدِهِمَا بِاسْمِ " الْمَشْرِقِ " ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْآخَرِ أَسْمُ " الْمَغْرِبِ " . وَرُبَّمَا كَانَتْ
دَلَالَةُ كُلِّ مِنَ الْإِسْمَيْنِ غَيْرَ دَقِيقَةٍ فِي أَذْهَانِ أَهْلِ الْقَرْنِ الثَّامِنِ ، لَكِنَّ مِنَ الْجَلِيِّ أَنَّ الْمُرَادَ بِلَفْظِ "

¹ -د. شعيب حليفي ، الرحلة في الأدب العربي ، مرجع سابق ، ص 323 .

المُشْرِقُ " وقتئذٍ غيّرَ مَذْلُولِهِ الدَّارِجَ فِي الإِصْطِلَاحِ الرَّاهِنِ ، فَعَلَى خِلَافٍ مَا يَغْنِيهِ الآنَ مِنْ نِطَاقٍ لَا يَتَعَدَّى حُدُودَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ ، كَانَ يَشْمَلُ كُلَّ صُفْعٍ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ يُدِينُ بِالْإِسْلَامِ ، وَلَا أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ بَطُّوطة فِي سِيَاقٍ وَصَفِهِ مَدِينَةَ دَلْهِي : « هِيَ أَكْثَرُ مُدُنِ الْهِنْدِ ، بَلْ مُدُنَ الْإِسْلَامِ كُلُّهَا بِالْمَشْرِقِ »⁽¹⁾.

وَكَانَ الْمَشْرِقُ مَقْصِدُ ابْنِ بَطُّوطة فِي رِحْلَتِهِ الْأُولَى ، وَقَدْ ظَلَّ يُجَوِّبُ نَوَاحِيَهُ مَا يَزِيدُ عَلَى الْعَقْدَيْنِ مِنَ الرَّمَنِ ، فَخَبِرَ أَهَالِيَهَا إِلَى حَدِّ نَقْفٍ عَلَى مَظَاهِرِهِ حَيْثُمَا وَصَفَهُمْ وَحَكَى أَخْبَارَهُمْ . وَلَا تَخْلُو أَحَادِيثُهُ عَنْهُمْ مِنَ الْإِهْتِمَامِ بِإِبْرَارِ نَظَرَتِهِمْ إِلَى " الْمَغَارِبَةِ " ، مُصَوِّرًا مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ هَؤُلَاءِ مِنْ تَبَجُّلٍ وَاحْتِرَامٍ لَدَى أَوْلَئِكَ ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ تَحَدَّثَ عَمَّا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ بِمَنْزِلِ بَيْنَ مِصْرٍ وَالشَّامِ مَعْرُوفٍ بِاسْمِ " قُطَيَا " ، فَذَكَرَ أَنَّهُ أَصْنَفَ هُنَاكَ وَأَكْرَمَ ، وَأُبِيحَ لِمَنْ كَانَ مَعَهُ الْجَوَّازُ عَلَيْهَا إِلَى الشَّامِ مُبَيَّنًا أَنَّ الْمَغَارِبَةَ لَا يُعْتَرِضُونَ فِي جَوَازِهِمْ عَلَيْهَا ، خِلَافَ مَا كَانَ يَجْرِي لِسَائِرِ الْعَابِرِينَ ، إِذْ لَا يُجَوِّزُ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِنَ الشَّامِ إِلَّا بِبَرَاءَةٍ مِنْ مِصْرٍ ، وَلَا إِلَى مِصْرٍ إِلَّا بِبَرَاءَةٍ مِنَ الشَّامِ إختياطًا عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ ، وَتَوَقُّيًا مِنَ الْجَوَاسِيسِ الْعِرَاقِيِّينَ .

وَعَنِّي عَنِ الْبَيَانِ مَا فِي هَذَا الْخَبَرِ مِنْ دَلَالَةٍ عَلَى حُسْنِ ظَنِّ الْمَشْرِقِيِّ بِالْمَغَارِبَةِ ، وَقَدْ عَبَّرَ ابْنُ بَطُّوطة عَنْ هَذَا الْأَمْرِ بِوُضُوحٍ فِي مَوْضِعٍ آخِرٍ ، حَيْثُ قَالَ مُتَحَدِّثًا عَنْ أَهْلِ دِمَشْقٍ إِنَّهُمْ « يُحْسِنُونَ الظَّنَّ بِالْمَغَارِبَةِ ، وَيُطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَهْلِينَ وَالْأَوْلَادَ » . وَعَلَى قَدَرٍ مَا أَظْهَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي حَدِيثِهِ عَنْ فَضَائِلِهِمْ ، أَبْرَزُ مَا يَلْقَى الْمَغْرِبِيُّ لَدُنْ كِبَرَائِهِمْ مِنَ الْإِكْرَامِ ، قَائِلًا : « كَانَ بِدِمَشْقٍ فَاضِلٌ مِنْ كُتَّابِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ يُسَمَّى عِمَادُ الدِّينِ الْقَيْصَرَانِ ، مَنْ عَادَتْهُ أَنَّهُ مَتَى سَمِعَ أَنَّ مَغْرِبِيًّا وَصَلَ إِلَى دِمَشْقٍ بَحَثَ عَنْهُ وَأَصَافَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، فَإِنَّ عَرَفَ مِنْهُ الدِّينَ وَالْفَضْلَ أَمْرُهُ بِمِلَازِمَتِهِ ، وَكَانَ يُلَازِمُهُ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ . وَعَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَيْضًا كَاتِبُ السِّرِّ الْفَاضِلِ علاءُ الدِّينِ بَنُ غَانِمٍ وَجَمَاعَةٌ غَيْرُهُ⁽²⁾ .

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ ابْنُ بَطُّوطة فِي بَعْضِ الْأَخْيَانِ يُقَدِّمُ صُورَةَ الْآخِرِ الْإِثْنَوْغَرَفِيَّةِ مِنْ طَرَفٍ هَذَا الْآخَرُ وَبِاسْتِحْضَارِ صَوْتِهِ عَبْرَ الْحَوَارِ أَوْ نَقْلًا فِي السِّيَاقِ عَلَى لِسَانِ حَالِ الرَّأْيَةِ " وَلَمَّا تُمَتَّ اللَّيْلَةُ أَنْصَرَفَ الْوَزِيرُ ، وَمَضَتْ مَعَهُ فَمَرَرْنَا بِبُسْتَانٍ لِلْمَخْرَنِ فَقَالَ لِي الْوَزِيرُ هَذَا الْبُسْتَانُ لَكَ وَسَاعَمَرُ لَكَ فِيهِ دَارًا لِسُكْنَاكَ ، فَشَكَرْتُ لَهُ فِعْلَهُ وَدَعَوْتِ لَهُ⁽³⁾ .

¹ - تحفة النظرات ، مرجع سابق ، ص 276 .

² - تحفة النظرات ، مرجع سابق ، ص 76 .

³ - تحفة النظرات ، مرجع سابق ، ص 595 .

وَلَا يَخْتَلَفُ مَا وَصَفَ ابْنُ بَطُّوطة مِنْ أحوالِ المَغَارِبَةِ فِي الأَقْطَارِ العَجَمِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ عَمَّا ذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ دَاخِلِ الأَقْطَارِ العَرَبِيَّةِ ، فَأَثْنَاءُ حَدِيثِهِ عَنْ مُشَاهَدَاتِهِ فِي جَزَائِرِ تُسَمَّى " ذِيْبَةُ المَهْلِ " أَشَارَ إِلَى تَعْظِيمِ سُكَّانِهَا لِأَهْلِ المَغْرِبِ حَتَّى عَهْدِ وَصُولِهِ هُنَاكَ ، بِسَبَبِ مَغْرِبِي عَرَفَهُمُ الإِسْلَامَ وَتَمَذُّبُوا عَلَى يَدِيهِ بِمَذْهَبِ الإِمَامِ مَالِكٍ. وَقَدْ رَوَى حِكَايَةَ ذَلِكَ المَغْرِبِيِّ ، مُبَيِّنًا أَنَّهُ سَمِعَهَا مِنْ النِّقَاتِ فِي تِلْكَ الجَزَائِرِ.

يُنْصَبُ التَّحْلِيلُ السِّيمِيَّائِيُّ لِلنَّصِّ عَلَى تَتَاوُلِ المَعْنَى مِنْ خِلَالِ زَاوِيَتَيْنِ مُتَهَجِجَتَيْنِ هُمَا : الزَّاوِيَةُ السَّطْحِيَّةُ وَالزَّاوِيَةُ العَمِيقَةُ : " الزَّاوِيَةُ السَّطْحِيَّةُ هِيَ الَّتِي يَتِمُّ الإِعْتِمَادُ فِيهَا عَلَى الكَوْنِ السَّرْدِيِّ الَّتِي يُنْظَمُ تَتَابُعُ حَالَاتِ الشَّخْصِيَّةِ وَتَحَوُّلَاتِهَا وَالْمَكُونِ الخِطَابِيِّ الَّتِي يَنْحَكُمُ فِي تَسْلُسُلِ الصُّورِ وَأَثَارِ المَعْنَى ، وَفِي الزَّاوِيَةِ العَمِيقَةِ تَرُصُّ شَبَكَةُ العَلَاَقَاتِ الَّتِي تُنْظَمُ قِيَمُ المَعْنَى حَسَبَ العَلَاَقَاتِ الَّتِي تُقِيمُهَا ، وَكَذَلِكَ تُبَيِّنُ نِظَامَ العَمَلِيِّاتِ الَّتِي تُنْظَمُ الإِنْتِقَالَ مِنْ قِيَمَةٍ إِلَى أُخْرَى " (1)

فَالسِّيمِيَّائِيُّ فِي تَتَاوُلِهِ لِلنَّصِّ الحِكَايِيِّ يَذْرُسُهُ عَلَى مُسْتَوِيَيْنِ ؛ السَّرْدِيِّ وَمُكُونَاتِهِ كَالْتَّخْفِيزِ وَالْكَفَاءَةِ وَالْإِنْجَازِ ، وَالصُّورُ بِوَصْفِهَا وَخَذَاتِ دَلَالِيَّةٍ وَصُورُ مُعْجَمِيَّةٍ مَعَ إِبْرَازِ مَسَارَاتِهَا وَالْأَدْوَارِ التِّيمِيَّةِ مَعَ رِبْطِهَا بِالْبُنْيَةِ العَامِلِيَّةِ وَالْإِطَارِ الوُصْفِيِّ .

وَعَلَى المُسْتَوَى العَمِيقِ يَذْرُسُ المَكُونُ الدَّلَالِيَّ وَالْمَكُونُ المُنْطَقِيَّ بِاسْتِثْرَاءِ التَّشَاكُلِ وَالْمُرَبَّعِ السِّيمِيَّائِيِّ الَّتِي يَقُومُ عَلَى عِلَاقَاتِ التَّضَادِّ وَالتَّنَاقُضِ وَالِاسْتِزْلَامِ وَمِنْ خِلَالِ هَذَا المُرَبَّعِ يُؤَلِّدُ المَعْنَى فِي أَشْكَالٍ تَصَوِيرِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ وَيَتَمَظْهَرُ عَلَى مُسْتَوَى السَّطْحِ بِصِيغٍ تَعْبِيرِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ وَمُتَنَوِّعَةٍ.

لَقَدْ أَحْسَنَ ابْنُ بَطُّوطة إِبْرَازَ ميكَانيزِمَاتِ الإِنْتَاجِ السَّرْدِيِّ وَالْحِكَايِيِّ وَالْقَصَصِيِّ فَيُظْهِرُ أَهْلَ المَشْرِقِ مِنْ خِلَالِ كِتَابِهِ ، عَلَى هَذِهِ المَلَامِحِ الإِيجَابِيَّةِ فِي عِلَاقَتِهِمْ بِالمَغَارِبَةِ ، يَبْدُو هَؤُلَاءِ أَرْفَعُ مِنْ أُولَئِكَ مَقَامًا ، فَإِنَّ إِبْرَازَ مَا يَلْقَى أَهْلَ المَغْرِبِ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِهِمْ وَالتَّجْبِيلِ وَالِإِكْرَامِ مَنْطُو لَا مَحَالَةَ عَلَى تَمْجِيدِ لَهُمْ مَقْصُودٌ أَوْ غَيْرَ مَقْصُودٍ . وَالْحَقُّ أَنَّ نَظْرَةَ ابْنِ بَطُّوطة إِلَى المَشَارِقَةِ يَغْلِبُ عَلَيْهَا الإِسْتِعْلَاءُ رَغْمَ مَا أَظْهَرَ مِنْ مَحَاسِنِهِمْ ، نَاهِيكَ أَنَّهُ صَرَّحَ غَيْرَ مَرَّةٍ بِمَوْقِفِهِ فِيهِ اسْتِنْقَاصَ لَهُمْ فَأَثْنَاءُ ذِكْرِهِ لِسلْطَانِ مِصْرٍ ، أَشَارَ إِلَى أَنَّهُ بَنَى زَاوِيَةَ عَظِيمَةَ خَارِجَ القَاهِرَةِ . يَخْضَعُ الوُصْفُ لِمَبْدَأَيْنِ هَامِيَيْنِ هُمَا وَصْفُ اسْتِثْرَائِيٍّ وَاسْتِنْبَاطِيٍّ كَمَا كُتِبَ قَرِيْمَاس " يَخْضَعُ الوُصْفُ لِمَبْدَأَيْنِ حَاضِرِيْنِ أَنْيَا وَمُتَنَاقِضِيْنِ : إِنَّهُ وَصَفَ اسْتِثْرَائِيٍّ بِسَعِيهِ إِلَى إِبْرَازِ وَاقِعٍ مَا يَصِفُ بِصُورَةٍ وَافِيَةٍ وَاسْتِنْبَاطِيٍّ بِضُرُورَةٍ

¹ جوزيف كورتيس ، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية ، ترجمة د. جمال الخضري ، الدار العربية للعلوم ط1- 2007 م - الجزائر ، ص 12 .

مُزَاعَاةِ إِنْجَامِ التَّمُودَجِ الْمُرَادِ بِنَاؤُهُ وَالْوُصُولِ إِلَى الْعُمُومِيَّةِ وَاسْتِغْرَاقِ الْمُدَوَّنَةِ الْخَاصَّةِ لِلْوَصْفِ
مِثْلُ هَذَا النَّصُّورِ لِلْعَمِيلَةِ الْوَصْفِيَّةِ غَيْرِ مُشْجَعٍ لَوْلَا أَنَّهُ نَصِيبُ كُلِّ وَصْفٍ عِلْمِي⁽¹⁾

لَقَدْ سَارَ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِي وَصْفِهِ لَمَّا مَرَّ بِهِ مِنَ الْأَمَاكِينِ وَالرَّوَايَا وَالْمَسَاجِدِ وَالْمَبَانِي وَغَيْرِهَا ...
وَصِفَا اسْتِغْرَاقِيًّا وَاسْتِنْبَاطِيًّا فَهُوَ يَصِفُ الشَّيْءَ كَمَا هُوَ ثُمَّ يَقَارِنُ بَيْنَهَا وَيَبَيِّنُ غَيْرَهَا مِنْ مِثْلَاتِهَا الَّتِي
مَرَّ بِهَا فِي بُلْدَانٍ أُخْرَى.

فَحِينَ يَصِفُ مَسْجِدَ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ وَالْمَدَارِسَ وَالْبِيَمَارِسْتَانَ فِي مِصْرٍ يَقُولُ: "فَمَسْجِدُ عَمْرٍو
بْنِ الْعَاصِ مَسْجِدٌ شَرِيفٌ كَبِيرٌ الْقَدْرُ شَهِيرٌ الذِّكْرُ، تَقَامُ فِيهِ الْجُمُعَةُ، وَالطَّرِيقُ يَغْتَرِضُهُ مِنْ شَرْقٍ
إِلَى غَرْبٍ، وَبِشَرْقِهِ الرَّائِيَّةُ حَيْثُ كَانَ يَذْرُسُ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّافِعِيُّ، وَأَمَّا الْمَدَارِسُ بِمِصْرٍ فَلَا
يُحِيطُ أَحَدٌ بِكَثْرَتِهَا، وَأَمَّا الْمَارِسْتَانُ الَّذِي بَيْنَ الْقُصْرَيْنِ عِنْدَ ثَرْبَةِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ فَيُغْجَرُ
الْوَاصِفُ عَنْ مَخَاسِنِهِ، وَقَدْ أَعَدُّ فِيهِ مِنَ الْمُرَافِقِ وَالْأَذْوِيَّةِ مَا لَا يَخْصُرُ."⁽²⁾

وَمَا لَيْتَ أَنَّ أَسْتَذْرِكَ قَائِلًا: «لَكِنَّ الرَّائِيَّةَ الَّتِي بَنَاهَا مُؤَلَّنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِخَارِجِ حَضْرَتِهِ الْعَلِيَّةِ
الْمَدِينَةُ الْبَيْضَاءُ حَرَسَهَا اللَّهُ، لَا نَظِيرَ لَهَا فِي الْمَعْمُورِ، فِي إِتْقَانِ الْوَضْعِ، وَحُسْنِ الْبِنَاءِ وَالنَّقْشِ
فِي الْجِصِّ، بِحَيْثُ لَا يَقْدُرُ أَهْلُ الْمَشْرِقِ عَلَى مِثْلِهِ». وَحِينَ يَصِفُ جَزِيرَةَ سَرْدَانِيَّةٍ يَقُولُ: "ثُمَّ
سَافَرْتُ مِنْ تُونِسٍ فِي الْبَحْرِ مَعَ الْقَلَاتِنِيِّينَ إِلَى جَزِيرَةِ سَرْدَانِيَّةٍ، مِنْ جَزَرِ الرُّومِ وَلَهَا مَرْسَى عَجِيبٌ
عَلَيْهِ خَشَبٌ كَبَارٌ دَائِرَةٌ بِهِ، وَلَهُ مَدْخَلٌ كَأَنَّهُ بَابٌ لَا يَفْتَحُ إِلَّا بِإِذْنِ مَنْهُمْ، وَفِيهِ حُصُونٌ، دُخِلْنَا
أَحَدَهَا، وَبِهِ أَسْوَاقٌ كَثِيرَةٌ، وَنَذَرْتُ لِلَّهِ تَعَالَى إِنَّ خُلُصْنَا مِنْهُمْ صَوْمٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؛ لِأَنَّنَا عُرِفْنَا
أَنَّ أَهْلَهَا عَازِمُونَ عَلَى إِتِّبَاعِنَا إِذَا خَرَجْنَا عَنْهَا؛ لِيَأْسُرُونَا."⁽³⁾

فَهُوَ لَا يَكْتَفِي بِالْوَصْفِ بَلْ يُحَلِّلُ وَيَسْتَقْرِئُ الْوَاقِعَ، ثُمَّ يَشُوقُ الْمُتَلَقِّيَ بِالْمَازِقِ الَّذِي يُحَبِّكُهُ فِي
سَرْدِهِ وَحِكْمِهِ "فَأَهْلُهَا عَازِمُونَ عَلَى إِتِّبَاعِنَا إِذَا خَرَجْنَا لِيَأْسُرُونَا" لِيَضْعُ الْمُتَلَقِّيَ أَمَامَ مُعْضِلَةٍ يَبْحَثُ
لَهَا عَنْ حَلِّ، فَيَظِلُّ مُتَشَوِّقًا لِيُكْمِلَ الْقِصَّةَ، كَيْفَ اسْتَطَاعَ الْخَلَاصُ مِنْهُمْ فَهُوَ لَا يَكْتَفِي بِالْوَصْفِ
بَلْ يُحَلِّلُ وَيَسْتَقْرِئُ الْوَاقِعَ، ثُمَّ يَشُوقُ الْمُتَلَقِّيَ بِالْمَازِقِ الَّذِي يُحَبِّكُهُ فِي سَرْدِهِ وَحِكْمِهِ "فَأَهْلُهَا عَازِمُونَ
عَلَى إِتِّبَاعِنَا إِذَا خَرَجْنَا لِيَأْسُرُونَا" لِيَضْعُ الْمُتَلَقِّيَ أَمَامَ مُعْضِلَةٍ يَبْحَثُ لَهَا عَنْ حَلِّ، فَيَظِلُّ مُتَشَوِّقًا
لِيُكْمِلَ الْقِصَّةَ، كَيْفَ اسْتَطَاعَ الْخَلَاصُ مِنْهُمْ!

1 - جوزيف كورتييس، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، مرجع سابق، ص 60.

2 - تحفة النظرات، مرجع سابق، ص 56.

3 - تحفة النظرات، مرجع سابق، ص 696.

وَفِي مَعْرِضٍ وَصَفِهِ مَدِينَةُ نَيْسَابُورٍ ذِكْرٌ مَا بِهَا مِنَ الْمَدَارِسِ ، وَاعْتَبَرُهَا مِنْ حَسَنِ مَدَارِسِ بِلَادِ خُرَاسَانَ ، وَمَا أَبْطَأَ عَنِ الْقَوْلِ إِنَّ « مَدَارِسَ خُرَاسَانَ وَالْعِرَاقَيْنِ وَدِمَشْقَ وَبَغْدَادَ وَمُصِرَّ ، وَإِنْ بُلِغَتْ الْغَايَةُ مِنَ الْإِتْقَانِ وَالْحَسَنِ ، فَكُلُّهَا تَقْصُرُ عَنِ الْمَدْرَسَةِ الَّتِي عَمَرَهَا مُؤَلَانَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهِيَ الَّتِي عِنْدَ الْقُصْبَةِ مِنْ حَضْرَةِ فَاسٍ حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، فَإِنَّهَا لَا نَظِيرَ لَهَا سَعَةً وَإِرْتِفَاعًا ، وَنَفْسُ الْجِصِّ بِهَا لَا قُدْرَةَ لِأَهْلِ الْمَشْرِقِ عَلَيْهِ ». وَسِوَاهُ ، مِنْ حَيْثُ الدَّلَالَةُ عَلَى اسْتِنْقَاصِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ ، أَكَانَ ابْنٌ بِطُوطَةَ صَادِقًا فِي الْقَوْلَيْنِ أَمْ كَانَ تَكَلُّفُهُمَا تَزْلُقًا لِلْأَمِيرِ ، فَإِنَّهُ عَلَى آيَةِ حَالٍ مُعَبَّرٍ عَنْ وَجْهِهِ نَظَرٌ مَغْرِبِيَّةٌ تُبْدِي أَوْلَيْكَ النَّاسَ أَقْلَ مَهَارَةً مِنَ الْمَعَارِبَةِ فِي الْبِنَاءِ وَالْعِمَارَةِ . وَهُوَ كَذَلِكَ يُقَارِنُ بَيْنَ الْمَدَارِسِ فِي الْبِلَادِ الَّتِي مَرَّ بِهَا إِنَّهَا جَمِيعًا غَايَةٌ فِي الْإِتْقَانِ وَالْحَسَنِ لَكِنَّ مَدْرَسَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِفَاسٍ أَفْضَلُ مِنْهَا حُسْنًا وَسَعَةً وَإِرْتِفَاعًا .

وَيَصِفُ عَمُودَ السَّوَارِي فِي مَدِينَةِ الإسْكَندَرِيَةِ فَيَقُولُ : " وَمِنْ غَرَائِبِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ عَمُودُ الرُّخَامِ الْهَائِلِ الَّذِي بِخَارِجِهَا الْمُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِعَمُودِ السَّوَارِي ، وَهُوَ مُتَوَسِّطٌ فِي غَايَةِ نَحْلِ ، وَقَدْ إِمْتَارَ عَنْ شَجَرَاتِهَا سُمُومًا وَإِرْتِفَاعًا ، وَهُوَ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ مَحْكَمَةُ النَّحْتِ قَدْ أُقْبِمَ عَلَى قَوَاعِدِ حَجَارَةٍ مَرْبَعَةٍ أَمْثَالِ الدَّكَائِينِ الْعَظِيمَةِ وَلَا تُعْرَفُ كَيْفِيَّتُهُ وَضِعُهُ هُنَالِكَ وَلَا يَتَحَقَّقُ مَنْ وَضَعَهُ " (1).

فَلَا يَكْتَفِي بِوَصْفِ الْعَمُودِ فَقَطْ بَلْ يَبْحَثُ فِي أَصْلِ وَضْعِهِ وَمَنْ وَضَعَهُ وَعِنَّمَا لَا يَقِفُ عَلَى أَصْلِ ذَلِكَ يَذْكُرُ مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ ، فَيَصِفُ وَيَسْتَقْرِئُ.

3. الْآخِرُ مِنْ وَجْهِهِ نَظَرٌ حَضَارِيَّةٌ وَإِجْتِمَاعِيَّةٌ:

مَدَارُ كَلَامِنَا هُنَا عَلَى كَلِمَةِ " الْعُرْبُ " ، وَقَدْ أَجْرَاهَا ابْنُ بَطُوطَةَ ، خِلَالَ أَحَادِيثِهِ عَمَّا كَانَ مِنْ خَلِّهِ وَتَرَحَّالِهِ ، عَلَى ثَلَاثَةِ مَعَانٍ ، أَخَذَهَا مَا يُقَابِلُ دَلَالَةَ كَلِمَةِ " الْعَجَمُ " وَأَجَلَّ مَظْهَرَ لَهُ مَا نَقَلَ الرَّجُلُ مِنْ خَبَرٍ نُحْوِلُهُ عَلَى شَيْخٍ مِنْ " كُبَّارِ الْأَوَّلِيَاءِ " بِمَوْضِعِ جِبَالٍ مُتَّسِعَةٍ مُتَّصِلَةٍ بِالصَّيْنِ ، تُدْعَى " جِبَالُ كَامَرُو " ، إِذْ ذَكَرَ أَنَّ ذَلِكَ الشَّيْخَ قَالَ لَهُ : أَنْتَ مُسَافِرُ الْعُرْبِ ؟ فَقَالَ مِنْ حَضَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ : وَالْعَجَمُ ، يَا سَيِّدُنَا . فَقَالَ الشَّيْخُ : وَالْعَجَمُ ، فَأَكْرَمُوهُ (2) .

وَتَحَدَّثَ عَنْ عَوْدَتِهِ إِلَى سُلْطَانِ بِمَدِينَةِ مُسَمَّاهُ " هَنُور " ، كَانَ أَقَامَ عِنْدَهُ قَبْلَ فُورْدٍ فِي حَدِيثِهِ أَنَّهُ وَجَدَ بَعْضَ مَرَاقِبِ ذَلِكَ السُّلْطَانِ بِمَوْضِعِ إِسْمِهِ " قَالِقُوط " « وَقَدْ بَعَثَ فِيهَا أَمِيرًا مِنَ الْعُرْبِ يُعْرِفُ بِالسَّيِّدِ أَبِي الْحُسَيْنِ ، وَهُوَ مِنْ خَوَاصِّ الْبُؤَابِيْنَ بُعِثَ السُّلْطَانُ بِأَمْوَالٍ يَسْتَجْلِبُ بِهَا مِنْ قَدْرِ عَلَيْهِ مِنْ

1- تحفة النظائر، مرجع سابق، ص 40

2- تحفة النظائر، مرجع سابق، ص 42.

العُربِ مِنْ أَرْضِ هَرَمَزٍ وَالْقَطِيفِ ، لِمَحَبَّتِهِ لِلْعُربِ » وَنَعَتْ الْأَمِيرَ أَبِي الْحُسَيْنِ بـ " السَّيِّدُ " أَمَرَ دُو
دَلَالَةً خَاصَّةً فِي سِيَاقِ الْكِتَابِ ثُخْفَةُ النُّظَارِ ، إِذْ يَبْدُو جَزْئًا عَلَى عَادَةِ عَجَمِيَّةٍ فِي مُعَامَلَةِ الْعُربِ
تُطْرَقُ إِلَيْهَا ابْنُ بَطُوطَةَ ، خِلَالَ حَدِيثِهِ عَنْ شَأْنِهِ فِي مَدِينَةِ دَلْهِي ، مُعَلِّقًا عَلَى مُحَاظَبَةِ بِالْعَرَبِيَّةِ
وَجَهَّهَا إِلَيْهِ أَحَدُ اثْنَيْنِ مِنْ رُجَالِ السُّلْطَانِ بُعِثَهُمَا الْأَخِيرَ لِيَعْرِضَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابَهُ تَوَلِيَّةٍ مِنْ يَصْلُحُ
مِنْهُمْ بَعْضُ مَنَاصِبِ الْوِزَارَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالْإِمَارَةِ وَالْقَضَاءِ وَالتَّدْرِيسِ وَالْمَشِيخَةِ فَأَمَّا الْمُحَاظَبَةُ فَقَوْلُ
الْمُبْعُوثِ : « مَا تَقُولُ أَنْتَ يَا سَيِّدِي ؟ » ، وَأَمَّا التَّغْلِيْقُ فَقَوْلُ ابْنِ بَطُوطَةَ : « وَأَهْلُ تِلْكَ الْبِلَادِ مَا
يَدْعُونَ الْعَرَبِيَّ إِلَّا بِالشُّوَيْدِ ، وَبِذَلِكَ يُحَاظَبُهُ السُّلْطَانُ تَعْظِيمًا لِلْعُربِ » .

وَمِنْ اللَّافِتِ لِلنُّظَرِ فِي بَقِيَّةِ هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَنَّ ابْنَ بَطُوطَةَ أَجَابَ مَبْعُوثَ السُّلْطَانِ عَلَى نَحْوِ لَا
يَخْلُو مِنَ التَّفَاخُرِ ، إِذْ ذَكَرَهُ بِفَضْلِ الْعُربِ عَلَى الْعَجَمِ قَائِلًا : « أَمَّا الْوِزَارَةُ وَالْكِتَابَةُ فَلَيْسَتْ شُغْلِي ،
وَأَمَّا الْقَضَاءُ وَالْمَشِيخَةُ فَشُغْلِي وَشُغْلُ آبَائِي ، وَأَمَّا الْإِمَارَةُ فَتَعْلَمُونَ أَنَّ الْأَعَاجِمَ مَا أَسْلَمَتْ إِلَّا
بِأَسْيَافِ الْعُربِ » . وَمَا وَصِفَ مِنْ تَعْظِيمِ أَوْلَئِكَ لَهُؤَلَاءِ سَبَبِهِ ، عَلَى الْأَرْجَحِ ، الْفَضْلُ الْمُشَارَ إِلَيْهِ
خِلَالَ هَذَا الْجَوَابِ .

عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ بَدَأَ الْمَعْنِيُّ الْأَوَّلُ بِكَلِمَةِ " الْعُربِ " فِي الْكِتَابِ ثُخْفَةُ النُّظَارِ وَهُوَ مَذْلُولُهَا
الْأَوْسَعُ هُنَاكَ ، فَإِنَّ مَذْلُولِيهَا الْآخَرِينَ لَا يَتَعَدَّيَانِ نِطَاقَهُ ، إِذْ يَتَعَلَّقُ كُلُّ مِنْهُمَا بـ " آخِرِ " مُنْتَرَجٍ
ضِمْنَهُ ، ذَلِكَ أَنَّ ابْنَ بَطُوطَةَ أَسْتَعْمَلَ تِلْكَ الْكَلِمَةَ إِمَّا مُشِيرًا إِلَى الْعَرَبِيِّ الْحَضَرِيِّ أَوْ مُتَحَدِّثًا عَنِ
الْعَرَبِيِّ الْبَدَوِيِّ . وَلَكِنَّهُ قَلَّ مَا أَرَادَ بِهَا ذَاكَ وَكَثُرَ مَا عَنَى بِهَا هَذَا ، فَإِنَّمَا نَكَادُ لَا نَجِدُ فِي كِتَابِ
رِخْلَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ سِيَاقَيْنِ وَاضِحِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْحَضَرِيِّ ، أَحَدُهُمَا حَدِيثُهُ عَنْ مَدِينَةِ حِمَّصٍ ، وَاصِفًا
أَهْلَهَا عَلَى نَحْوِ يُذَكِّرُنَا بِوَجْهِ مَشْرِقٍ مِنْ صُورَةِ عُرْبٍ " الْجَاهِلِيَّةُ " ، قَائِلًا : « وَأَهْلُ حِمَّصٍ عَرَبٌ لَهُمْ
فَضْلٌ وَكَرَمٌ » . وَالثَّانِي وَصِفَهُ مَدِينَةَ قَلْهَاتٍ ، مُبَيِّنًا أَنَّ كَلَامَ أَهْلِهَا « لَيْسَ بِالْفَصِيحِ مَعَ أَنَّهُمْ عَرَبٌ
» ، « وَمُشِيرًا إِلَى أَنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ يَتَكَلَّمُونَ بِهَا يَصِلُونَهَا بِـ " لَا " ، فَيَقُولُونَ مِثْلًا : تَأْكُلُ لَا ، تَمْشِي لَا
تَفْعَلُ كَذَا لَا » (1)

لَا غَرَوْ مِنْ صَرَفِ كَلِمَةِ " الْعُربِ " إِلَى الدَّلَالَةِ عَلَى الْبَدَوِيِّ فِي الْأَغْلَبِ الْأَعَمِّ مِنْ كِتَابِهِ ، فَإِنَّ
الْمُؤَرِّخِينَ وَالْبَاحِثِينَ الْمُعَاَصِرِينَ مِنْ أَوْرُوبِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ مَعْنَاهَا الْأَصْلِيُّ ، إِذْ كَانَ
أَوَّلُ وَجْهِ فِي اسْتِعْمَالِهَا ، وَقَدْ رَافَقَهَا خِلَالَ جَمِيعِ الْعُصُورِ التَّارِيخِيَّةِ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، وَلَمْ تَتَجَرَّدْ مِنْهُ

1- العرب وابن خلدون، دار المغرب العربي، تونس / دار الغرب الإسلامي بيروت، ط 4 - 1988، ص ص 37 - 38.

حَتَّى حِينَمَا اتَّصَلَ بِهَا مُعْنَى الْحَضَرِ فِي فِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ زَمَنِ الرَّسُولِ وَالْخِلَافَةِ الْأُمَوِيَّةِ ، بَلْ كَانَتْ تُطْلَقُ بِالْمُعْنَيْنِ آنَ ذَاكَ ، ثُمَّ غَلِبَ اسْتِعْمَالُهَا بِمُعْنَى الْبَدْوِ بَعْدَهُ .

يَقُولُ غَرِيْمَاسُ : " مِنْ الْمَفِيدِ أَنْ نَحْتَفِظَ فِي الذَّاكِرَةِ بِالْأَسَاسِ التَّوْثِيْقِي لِلتَّنْظِيْمَاتِ الْكَيْفِيَّةِ وَالتَّنْوِيْعِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُهَا ... وَهَذَا مَا نُسَمِّيهِ فِي عِلْمِ الدَّلَالَةِ الْبُنْيَوِي الْمَحْوَرِ الدَّلَالِي ، وَالْحَالُ أَنَّ هَذَا الْمَضْمُونُ لَيْسَ شَيْئًا آخَرَ غَيْرَ مَا يُنْتِجُ عَنْ تَجْسِيدِ يَنْصِبُ عَلَى الْكُتْلَةِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى وَمَعَ تَجَاهُلِ تَفَاصِيلِ الْبِنَاءِ النَّظَرِيِّ لِلشُّرُوطِ الْإِبْسْتِيْمُولُوجِيَةِ الْقَبْلِيَّةِ ، يُمَكِّنُ الْقَوْلُ بِمَا أَنَّ النَّسَقَ يَنْتَبِي عَلَى الْكُتْلَةِ الْإِنْفِعَالِيَّةِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَخِيرَ تُجَسِّدُ مَضْمُونِ الْمَقُولَةِ الْكَيْفِيَّةِ . وَمِنْ الْمُحْتَمَلِ بَعْدَ ذَلِكَ ، الْإِسْتِنَادُ إِلَى التَّنْوِيْعَاتِ التَّوْثِيْقِيَّةِ ، وَإِلَى التَّنْوِيْعِ الْمُنْسَجِمِ لِمَجْمُوعِ الْكَيْفِيَّاتِ الَّتِي تُبِيحُهُ مِنْ أَجْلِ إِقَامَةِ تَرْكِيبٍ كَيْفِيٍّ لِلتَّمْظَهَرَاتِ الْخِطَابِيَّةِ (1)

وَلَمْ يَخُلْ كِتَابُ ثُخْفَةِ النَّظَارِ مِنْ مُفْرَدَةٍ أُخْرَى تَجْرِي فِيهِ مَجْرَى تِلْكَ ، هِيَ كَلِمَةُ " الْأَعْرَابِ " . وَعَدَمُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْاِشْتِنَائَيْنِ شَائِعٌ فِي زَمَنِ ابْنِ بَطُّوطة عَلَى الْأَرْجَحِ فَهَذَا ابْنُ خَلْدُونِ ، مُعَاصِرُهُ دَابَّ هُوَ أَيْضًا عَلَى اسْتِعْمَالِ كَلِمَةِ " الْعُرْبُ " عِنْدَ الْحَدِيثِ عَنْ سَكَّانِ الْبَادِيَةِ أَيْ الْأَعْرَابِ . وَأَجَلُّ مَظْهَرٌ لِدَلَالَةِ تِلْكَ الْكَلِمَةِ عَلَى الْبَدْوِ فِي أَحَادِيثِهِ ، اقْتِرَائُهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ بِلَفْظَةِ " الْبَادِيَةِ " عَلَى الْإِضَافَةِ ، وَذَلِكَ حَيْثُ رَوَى حِكَايَةَ أَمِيرٍ مِنَ الْعُرْبِ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ ، اسْمُهُ " غَدَا بْنُ هَبَةِ اللَّهِ " ، فَقَدْ ذَكَرَ رَفُضَ ذَلِكَ الْأَمِيرِ أَنْ يَضَعَ شَبَهَ إِكْلِيلٍ مِنَ الْيَاسْمِينِ وَالتَّنَسْرِينِ عَلَى رَأْسِهِ ، وَفَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ : « وَكَانَ مِنْ عُرْبِ الْبَادِيَةِ لَا عَهْدَ لَهُ بِأُمُورِ الْمَلِكِ وَالْحَضَرِ (2) .

وَمِنْ اللَّافِتِ لِلنَّظَرِ كَوْنُهَا تَطَابُقَ تَمَامِ الْمُطَابَقَةِ كَلَامَ ابْنِ خَلْدُونِ فِي وَصْفِهِمْ ، فَقَدْ صُنِفَتْ أَهْلُ الْبَدْوِ ثَلَاثَةً أَصْنَافٍ : صُنِفَتْ مَعَاشُهُمُ الرِّعَاةَ وَالْقِيَامَ بِالْفُلْجِ ، وَصُنِفَتْ مَعَاشُهُمْ فِي السَّائِمَةِ مِثْلُ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ ، وَصُنِفَتْ مَعَاشُهُمْ فِي الْإِبِلِ

يَقُولُ غَرِيْمَاسُ : " لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَقْتَصِرَ بَرَأَسَةُ الْأَهْوَاءِ عَلَى الْعُمُومِيَّاتِ وَالنُّوْمَاتِ الدَّلَالِيَّةِ وَالتَّرْكِيبِيَّةِ الَّتِي تَشْكَلُهَا ، ذَلِكَ أَنَّ وُجُودَهَا الْخِطَابِيَّ زَهِيْنٌ بِاسْتِعْمَالِهَا الْجَمَاعِي أَوْ الْفَرْدِي ، وَيُعِدُّ اللِّسَانُ الطَّبِيعِي فِي هَذَا الْمَجَالِ شَاهِدًا عَلَى مَا إِحْتَفَظَ بِهِ تَارِيخُ ثَقَافَةٍ مَا بِإِعْتِبَارِهِ هَوَى مِنْ بَيْنِ كُلِّ تِلْكَ التَّأَلِيفَاتِ الْكَيْفِيَّةِ الْمُمَكِّنَةُ ... وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ النَّمُودَجَ التَّرْكِيبِيَّ لِكُلِّ هَوَى مُتَضَمِّنٌ

1- الجيرداس . ج. غريماس جاك فونتيني ، سيميانيات الأهواء من حالات الأهواء إلى حالات النفس ، ت. سعيد بنكراد ، دار الكتب الوطنية بنغازي ليبيا ، ط 1 ، سنة 2010 ص 92 .

2- تحفة النظائر ، مرجع سابق ، ص 310 .

بشكلٍ طبيعيٍّ في شكلٍ تُحقِّقه السَّانِي عَنِ الْمُعْجَمَةِ تُعَدُّ ظَاهِرَةً ثَانِيَةً لِلْبَنِيَّةِ الدَّلَالِيَّةِ ، إِنَّهَا تُطَبِّقُ عَلَى مُنْتَجِ الْإِسْتِعْمَالِ (1)

إِنَّ التَّطَابُقَ بَيْنَ مَا تَحُلُّ طَيِّرَاتِ نُحْفَةِ النُّظَارِ مِنْ إِشَارَاتٍ تَتَعَلَّقُ بِالْأَعْرَابِ وَمَا وُصِفَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ فِي مُقَدِّمَةِ ابْنِ خُلْدُونٍ ، لِيَحْمِلَ عَلَى الْقَطْعِ بِأَنَّ كَلَامَ هَذَا وَدَاكٍ لَا يَعْدُو كَوْنُهُ تَعْبِيرًا عَنْ صُورَةٍ مَنْطُوعَةٍ فِي الدِّهْنِيَّةِ الْحَضَرِيَّةِ ، إِبَانِ الْقُرْنِ الثَّامِنِ وَقَبْلَهُ وَبَعْدَهُ ، تَخْتَزِلُ الْآخِرُ الْأَعْرَابِيَّ فِي عُنُصَرَيْنِ رَئِيسِيَّيْنِ عَلَى الْأَقْلِ : مَعَاشُ بَدَائِيٍّ قَوَامِهِ عَلَى مَا يُشْبِهُ قَانُونُ الْغَابِ وَبَطْشُ شَدِيدٍ بِمَنْ تُطَالُهُ الْيَدُ .

وَهَذَا الَّذِي لَا يَنْضَحُ لَيْسَ إِلَّا وَجْهًا مِنْ أَوْجِهَةِ الْآخِرِ تَحْيُلُ عَلَيْهِ اللَّفْظَةُ " عَرَبٌ " ، فَلَا رَيْبَ فِي أَنَّ الْمُسَمَّى بِهَا مُتَّبَعٌ لِدِينٍ ، مُقَلَّدٌ لِمَذْهَبٍ ، مَنْتَمٍ إِلَى إِقْلِيمٍ ... لَكِنَّ كُلَّ هَذِهِ الْأَبْعَادِ يَحْجِبُهَا الْإِسْمُ وَلَا يَكْشِفُهَا الْخَبَرُ فِي أَكْثَرِ الْأَحْيَانِ ، لِأَنَّ الْغَالِبَ عَلَى نَظَرَةِ الْمُخْبِرِ (ابْنُ بَطُّوطَةَ = الْأَنَا) إِلَى الْعَرَبِ بَعْدَ وَاحِدٍ هُوَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ التَّمَدُّنِ ، كَمَا قَدْ نَظَرَ إِلَى الْآخِرِ مِنْ زَاوِيَةِ الْمَذْهَبِ أَحْيَانًا ، فَحَجَبَتْ وَجْهَهُ نَظَرَةُ الْبُعْدِ الْاجْتِمَاعِيِّ فِي الْمَنْظُورِ إِلَيْهِ وَالْبُعْدِ الْجُغْرَافِيِّ وَغَيْرُهُمَا ... وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ أَيْضًا اخْتَزَلَ الْآخِرُ فِي الْبُعْدِ الْإِقْلِيمِيِّ أَحْيَانًا أُخْرَى ، إِذْ نَظَرَ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ مَشْرِقِيٌّ . يَبْدُو أَنَّ اخْتِزَالَ الْآخِرِ فِي بَعْضِ أَبْعَادِهِ لَا يَتِمُّ دَوْمًا عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ خِلَالِ الْكِتَابِ نُحْفَةِ النُّظَارِ ، فَقَدْ يَبْزُرُ ابْنُ بَطُّوطَةَ ، مَثَلًا عَقِيدَةَ بَعْضِ الْعَرَبِ مِنْ قُطَّانِ الْمُدُنِ أَوْ مِنْ أَهَالِي الْبُوَادِي ، مِنْ ذَلِكَ كَشَفَهُ أَنَّ عَرَبَ مَدِينَةِ قَلْهَاتِ أَكْثَرُهُمْ خَوَارِجٌ (2).

1- الجيرداس. ج. غريماس جاك فونتيني، سيميانيات الأهواء من حالات الأهواء إلى خالات النفس، مرجع سابق، ص 159-160 .

2- تحفة النظائر ، مرجع سابق، ص 180 .

المطلب الثالث

صورة الآخر (المرأة) في رحلة ابن بطوطة

أن الجانب الذي لم ينتبه إليه الكاتب أو يتعرّض له باحث حتى اليوم هو موقف ابن بطوطة من المرأة خلال أسفاره الطويلة، نظرته إليها، موقفه منها، وعلاقته بها، عبر رحلاته الثلاث وخلالها عاش ابن بطوطة رحلة رابعة في عالم رعب ومثير، وهو عالم المرأة التي كانت حاضرة ابداً لديه سبق لابن بطوطة الزواج مرتين في مستهل رحلته، مرة من تونس والأخرى من مغربيّة بعد شهور على مغادرته طنجة حتى عقد بصفاقس على بنت لبغض أمّاء تونس، وعاش معها في طرابلس الغرب. ويقول إنه غادر طرابلس ومعه أهله، أي زوجته - وهذه أول إشارة ترد في رحلته إلى زوجة له، وإن هذه التجربة لم تدم طويلاً، فقد فارقتها، لمشاجرة بينه وصهره، لكنه ظلّ يميل إلى مصاحبه ووجود شريكه له يأنس إلى جانبها في سفره تخفف عنه متاعب الطريق. وكثيراً ما كان يملّ صحبتها حتى يفارقهن بالمعروف أو أن بغضهن كنّ لا يستطعن مغادرة بلادهن ومواصلة الرحلة معه إلى بلاد أخرى كونه دائم السفر والترحال .

هكذا يندو أن ابن بطوطة عاد في نهاية رحلته إلى بلاده ومسقط رأسه وحيداً، مثلما غادرها وحيداً. وعند وصوله إلى الإسكندرية فضل أن يتزوج من (بنت لبغض طلبة فاس) من المرافقين له في الرحلة . والغريب أنه لم يشز في رحلاته ابداً إلى حياته الخاصة، وما يتعلّق بأمر الزواج وعلاقته بالمرأة أو النظرة إليها طوال السنوات التي طاف فيها بلاد مصر والشام والحجاز والعراق واليمن وعمّان والبحرين والبلاد العربيّة.. وظلّ ملتزماً الصمت في ذلك حتى دخل بلاد الترك سنة 732 هـ ففي بلاد الترك تأثر بجمال المرأة التركيّة فدخلت المرأة حياته مرة ثانية ولكن من باب الجوّاري والحريم، مثل الجركس والتركمان، ويروي ابن بطوطة أنه عندما غادر بخارى كانت عنده جارية قد فازت الولادة، وكان يريد حملها إلى سمرقند لتلد بها، ولكنها ولدت بالطريق وكان أسفه شديداً على وفاتها بعد وصوله إلى الهند بشهرين.⁽¹⁾

ثم تزوج من أربع نساء في جزائر ذئبة المهل - في جنوب أسية - أثناء طريقه من الهند إلى الصين. ومما شجع ابن بطوطة على الزواج في تلك الجزر، إقامته فيها فترة ليست بالقصيرة تولى فيها القضاء وايضاً ما اتصف به نساء تلك الجزر من جمال فائق، فضلاً عن الرينة وحسن

¹ - سعيد عبد الفتاح عاشور، رحلة ابن بطوطة في عالم المرأة، مجلة العربي.. القاهرة ، يوليو. 1985. العدد 320.

الْمُعَاشِرَةِ، وَعِنْدَ رَجِيلِهِ طَلَّقَ ابْنُ بَطُوطَةَ اثْنَتَيْنِ مِنْ زَوْجَاتِهِ الْأَرْبَعِ ، وَكَانَتْ الثَّالِثَةُ حَامِلًا مِنْهُ فَجَعَلَ لَهَا اجْلاً تِسْعَةَ أَشْهُرٍ أَنْ عَادَ فِيهَا ، وَإِلَّا فَأَمَرَهَا بِبَيْدِهَا أَمَّا الزَّوْجَةُ الرَّابِعَةُ فَقَدْ أَصْرَتْ عَلَى صُحْبَتِهِ وَالسَّفَرِ مَعَهُ، رَغِمَ الثَّقَالِيدُ السَّائِدَةُ مِنْ عَدَمِ خُرُوجِ الْمَرْأَةِ مِنَ الْبِلَادِ فِي صُحْبَةِ زَوْجِهَا الْوَافِدِ وَيُشِيرُ ابْنُ بَطُوطَةَ إِلَى أَنَّ نِسَاءَ السَّلَاطِينِ وَالْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ وَزَوَاجَاتِ الْوُزَرَاءِ كُنَّ يَتَغَنَّ فِي ارْتِدَاءِ الثِّيَابِ وَتَطْرِيزِهَا وَزَخْرَفَتُهَا وَوَشِيَهَا بِالذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ وَغَيْرِهَا، فَقَدْ أَتَاكَ لَهْنٌ ثَرَاوَهُنَ الْفَاحِشِ امْتِلَاكِ تِلْكَ الْأَنْوَاعِ مِنَ الْمَلَابِسِ الْعَالِيَةِ الصُّنْعِ الْعَالِيَةِ الثَّمَنِ، الرَّائِعَةِ التَّرْصِيعِ ..⁽¹⁾

صورة المرأة عند ابن بطوطة

لَقَدْ تَبَايَنَتِ تَفَاعُلَاتُ الرَّحَالَةِ مَعَ الْمَشَاهِدِ الَّتِي شَكَتَ فِيهَا الْمَرْأَةُ مُحَوَّراً رَئِيساً ؛ وَذَلِكَ بِالْقِيَاسِ إِلَى قُرْبِهَا أَوْ بَعْدِهَا مِنْ مَرْجِعِيَّاتِهِمُ الثَّقَافِيَّةِ ، وَمِنْ حَيْثُ اتِّفَاقِهَا أَوْ عَدَمِ اتِّفَاقِهَا مَعَ خُلْفِيَّاتِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ

تُشَكِّلُ الْمَرْأَةُ عُنْصَراً مَهْماً فِي هَذَا الْخُطَابِ الْاجْتِمَاعِيِّ لِلرَّحَالَةِ؛ لِأَنَّ صُورَتَهَا تَمَثِّلُ وَاقِعَ الْأُنَا وَالْآخَرِ فِي الْجَوَانِبِ الثَّقَافِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْدِّينِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنْ مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ، عَلَى مَسْتَوِيِي الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ.

بَنَى الرَّحَالَةُ جُزْءاً كَبِيراً مِنْ حَدِيثِهِمْ عَنِ الْمَرْأَةِ عَلَى الْوُصْفِ وَالتَّصْوِيرِ وَتَحْلِيلِ شَخْصِيَّةِ الْمَرْأَةِ وَنَفْسِيَّتِهَا وَوَصَفِ رَدُودِ أَفْعَالِهِ.

- من الصُّوَرِ الَّتِي تَقُومُ عَلَى الْإِنْسِجَامِ مَعَ مَوْقِفِ (الْآخِرِ) فِي قِيَمَةِ الَّتِي تَتَّفِقُ وَقِيَمِ (الْأُنَا) ، أَوْ مَعَ تِلْكَ الَّتِي تَبْدُو ضَرُورَتِهَا أُسَاسِيَّةً وَتَفْتَقِدُهَا (الْأُنَا) مَا يَذْكُرُهُ ابْنُ بَطُوطَةَ ، عَنْ اجْتِمَاعِ نِسَاءِ شِيرَازَ لِسَمَاعِ الْوَاعِظِ فِي كُلِّ يَوْمٍ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ وَجَمْعَةً بِالْجَامِعِ الْأَعْظَمِ ، يَقُولُ : " وَأَهْلُ شِيرَازَ أَهْلُ صَلَاحٍ وَدِينٍ وَعَقَافٍ وَخُصُوصاً نِسَاءُهَا وَهُنَّ يَلْبَسْنَ الْخُفَافَ ، وَيَخْرُجْنَ مَتَلَحِّفَاتٍ مَتَبَرِّقَاتٍ فَلَا يَظْهَرُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ ، وَلِهِنَّ الصَّدَقَاتُ وَالْإِيثَارُ ، وَمِنْ غَرِيبِ خَالِهِنَّ : أَنَّهِنَّ يَجْتَمِعْنَ لِسَمَاعِ الْوَاعِظِ فِي كُلِّ يَوْمٍ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ وَجَمْعُهُ بِالْجَامِعِ الْأَعْظَمِ ، فَرُبَّمَا اجْتَمَعَ مِنْهُنَّ الْأَلْفُ وَالْأَلْفَانِ بِأَيْدِيهِنَ الْمَرَاوِحَ؛ يَرُوحْنَ بِهَا عَلَى أَنْفُسِهِنَّ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ ، وَلَمْ أَرِ اجْتِمَاعُ النِّسَاءِ فِي مِثْلِ عَدَدِهِنَّ فِي بِلَادٍ مِنْ الْبِلَادِ⁽²⁾

1 - ابن بطوطة رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ج 1 أكاديمية المملكة المغربية، الرباط

عام النشر: ١٤١٧ هـ.ص 327.

2 - نفس المرجع ص. 218.

لَقَدْ جَمَعَ ابْنُ بَطُوطَةَ فِي صُورَةِ النِّسَاءِ الشِيرَازِيَّاتِ اللُّوَاتِيَّاتِ زَاهِنٌ ، بَيْنَ عُنْصَرَيْنِ هُمَا :
المُظْهِرِ الْخَارِجِيِّ ، فَهِنَّ يَلْبَسْنَ الْخُقَافَ ، وَيَخْرُجْنَ مَتَلَحِّفَاتٍ مَتَبَرِّقَعَاتٍ ، فَلَا يَظْهَرُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ
وَيُحْمَلُ هَذَا الْمُظْهِرُ حُمُولَةً ثَقَافِيَّةً كَبِيرَةً تُشِيرُ إِلَى التَّزَامُنِ بِالْقِيَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْخَارِجِيَّةِ مِنْ جِهَةٍ
وَيُمَثِّلُ ذَلِكَ تَوَاطُنَةً لِلْعُنْصَرِ التَّالِيِ الْمَتَمَثِّلِ فِي الْمُمَارَسَاتِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي تَقُومُ بِهَا هَؤُلَاءِ النِّسَاءُ ، مِمَّا
يُؤَكِّدُ أَنَّهِنَّ أَهْلُ صَلَاحٍ وَدِينٍ وَعَقَافٍ فَضلاً عَمَّا لَهُنَّ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْإِيَّارِ .

لِإِشَارَةِ هُنَا إِلَى أَنَّ ابْنَ بَطُوطَةَ يَعْمِدُ إِلَى وَصْفِ مَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْنَاهُ مِنْ مَشَاهِدٍ خَاصَّةٍ بِالْمَرْأَةِ
وَأَنَّهُ لَمْ يَرَ فِي مَكَانٍ آخَرَ. (1)

وَمِنَ الصُّوَرِ أَيْضاً الَّتِي شَاهَدَهَا ابْنُ بَطُوطَةَ صُورَةَ نِسَاءِ رُبَيْدٍ فِي الْيَمَنِ : " وَلِنِسَائِهَا الْحَسَنُ
الْفَائِقُ الْفَائِتُ . وَلَهُنَّ مَعَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْجَمَالِ الْفَائِتِ الْأَخْلَاقُ الْحَسَنَةُ وَالْمَكَارِمُ ، وَلِلْغَرِيبِ عِنْدَهُنَّ
مَرْيَّةٌ ، وَلَا يَمْتَنِعْنَ مِنْ تَزَوُّجِهِ كَمَا يَفْعَلُهُ نِسَاءُ بِلَادِنَا ، فَإِذَا أَرَادَ السَّفَرُ خَرَجْتُ مَعَهُ وَودعته ، فَهُوَ يَقْدَمُ
صُورَةً لَمْ يَرَهَا فِي بِلَادِهِ مِنْ زَوَاجٍ نِسَاءِ رُبَيْدٍ بِالْغُرَبَاءِ الْوَافِدِينَ ، وَمَا يَتَمَيَّزْنَ بِهِ مِنَ الْقَنَاعَةِ .

كَمَا يَقْدَمُ ابْنُ بَطُوطَةَ أَيْضاً صُورَةَ لِلْمَرْأَةِ فِي مُجْتَمَعِ الْأَنْثَرَاكِ ، وَمَا كَانَ مِنَ تَعْظِيمِ النِّسَاءِ عِنْدَهُمْ
، وَهُنَّ أَعْلَى شَأْنًا مِنَ الرِّجَالِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَعِنْدَ الْعَامَّةِ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ ، وَيَقْدَمُ صُورَةً لِمَا شَاهَدَهُ مِنْ
ذَلِكَ فِي بَعْضِ مُجْتَمَعَاتِ الْعَامَّةِ ، يَقُولُ : " وَأَمَّا نِسَاءُ الْبَاعَةِ وَالسُّوْقَةِ فَرَأَيْتُهُ ، وَإِخْدَاهُنَّ تَكُونُ فِي
الْعَرَبَةِ وَالْخَيْلِ تَجْرَهُنَّ ، وَبَيْنَ يَدَيْهَا الثَّلَاثُ وَالْأَرْبَعُ مِنَ الْجَوَارِي . (2)

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ ابْنَ بَطُوطَةَ عُدَّ هَذِهِ الْمَشَاهِدَ عَجَباً ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ مِثْلَهَا فِي بِلَدَةٍ ، فَإِنَّهُ لَمْ
يَجِدْ فِيهَا مَا يَتَعَارَضُ مَعَ قِيَمَةِ الثَّقَافِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ .

وَمِنَ الصُّوَرِ الَّتِي اسْتَتَكِرَهَا ابْنُ بَطُوطَةَ فِي رِحْلَاتِهِ وَاقِعَةٌ حَقِيقِيَّةٌ حَدَّثَتْ مَعَهُ ، تَوَكَّدَ مَا ذَهَبَ
إِلَيْهِ مِنْ وَصْفِ النِّسَاءِ وَسُلُوكِهِنَّ الْغَرِيبِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ ، يَقُولُ : " دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى أَبِي مُحَمَّدٍ
يَبْدُكَانَ الْمَسُوفِي الَّذِي قَدَّمْنَا فِي صُحْبَتِهِ ، فَوَجَدْتُهُ قَاعِداً عَلَى بَسَاطٍ ، وَفِي وَسْطِ دَارِهِ سَرِيرٌ مُظَلَّلٌ
عَلَيْهِ امْرَأَةٌ مَعَهَا رَجُلٌ قَاعِدٌ ، وَهُمَا يَتَحَدَّثَانِ فَقُلْتُ لَهُ : " مَا هَذِهِ الْمَرْأَةُ ؟ فَقَالَ : " هِيَ زَوْجَتِي " .
فَقُلْتُ : " وَمَا الرَّجُلُ الَّذِي مَعَهَا ؟ فَقَالَ : " هُوَ صَاحِبُهَا " . فَقُلْتُ لَهُ : " أَتَرْضَى بِهَذَا وَأَنْتَ قَدْ
سَكَنْتَ بِلَادِنَا ، وَعَرَفْتَ أُمُورَ الشَّرْعِ ؟ " . فَقَالَ لِي " مُصَاحِبَةُ النِّسَاءِ لِلرِّجَالِ عِنْدُنَا عَلَى خَيْرٍ

1 - جورج غريب ، أدب الرحلة: تاريخه وأعلامه (المسعودي وابن بطوطة والريحاني)، دار الثقافة، بيروت، 1966، ص 62-63؛

2 - الذات والآخر، أعمال ندوة الرباط الثانية (مشرق مغرب، عرب ومسلمون- ديار الإسلام من الأندلس إلى استانبول)، 2009، (مقالة إلكترونية) موقع ارتياد الآفاق الإلكتروني- المركز العربي للأدب الجغرافي، ص 1.

وَأَحْسَنُ طَرِيقَةً، لَا تُهْمَةُ فِيهَا، وَلَسَنَ كُنِيسَاءَ بِلَادِكُمْ " . فَعَجِبْتُ مِنْ رِعُونَتِهِ ، وَانْصَرَفْتُ عَنْهُ، فَلَمْ
أَعُدَّ إِلَيْهِ بَعْدَهَا ، وَاسْتَدْعَانِي فِي مَرَّاتٍ، فَلَمْ أُجِبْهُ.⁽¹⁾
أَنَّ ابْنَ بَطُوطَةَ فِي الْمُقْطَعِ السَّابِقِ يُقَدِّمُ صُورَةَ لَامْرَأَةٍ (الْآخِر) مِنْ مَنْظُورٍ رُؤْيِيٍّ الدَّائِيَّةِ الْمُسْتَدَّةِ
إِلَى مَرَجِعِيَّتِهِ النَّقَافِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ، فَقَدْ ضَمَّنَ كَلَامَهُ شَذَرَاتٍ قَدِمَ فِيهَا صُورَةُ (الْآخِر) فِي عَادَاتِهِ
وَتَقَالِيدِهِ، مِنْ طَرَفٍ هَذَا الْآخَرُ نَفْسِهِ، وَبِاسْتِحْضَارِ صَوْتِهِ غَبَرَ الْحَوَارِ الَّذِي دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّيْخِ
وَدِفَاعِ الشَّيْخِ عَنْ قِيَمِ الْمُجْتَمَعِ وَمُوروثَاتِهِ .

¹ - ابن بطوطه، رحلة ابن بطوطه، مرجع سابق، ص 688

خاتمة الفصل الثالث :

بحث الفصل الثالث من الدراسة في تمثيلات الغيرية في رحلة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة دراسة في آليات تشكّل المعنى والدلالة وقد توصل في نهايته إلى عدة نتائج على النحو الآتي:

أولاً- تعد التمثيلات أحد الآليات التي يستخدمها الرحالة ليعبر عن رحلته بوضوح، كما أن السرد بوصفه أحد آليات التمثيل لدى الرحالة هدفاً في حد ذاته فهو طريقة نقل الثقافات التي عايشها ومر بها ابن بطوطة في رحلته. فقد اعتمد ابن بطوطة في رحلته على المشاهدة والإستقصاء.

ثانياً- كان ابن بطوطة حريصاً على وصف كل ما مرّ به من عادات أو ثقافات أو أماكن وأحداث ووصف دقيقاً. كما أهتم أدب الرحلات بصفة عامة بتحديد صورة الآخر في الرحلة من خلال الأوصاف المتواليّة للفضاءات التي يجلّ بها الرحالة أثناء رحلته، فالجانب الأهم في مثل هذه الرحلات هو تحديد الذاكرة المصورة للآخر وخصوصيتها، والتأشير على التحوّلات التدريجية التي لحقت بها وهي تنتقل عبر هذه الفضاءات.

ثالثاً- إن رحلة ابن بطوطة بوصفها نصّ أدبي، كانت ثرية بما تعبّر عن الأنا والآخر من خلال دلالات التراكيب والجمل التي صاغها ابن جزي، وهو كذلك تزيّ بالمفردات والتراكيب التي تصف حال هذا الأنا وصفاته وعاداته وتقاليده، وأخلاقه وثقافته، وكذلك الآخر. والذي نظر إليه ابن بطوطة من وجهة نظر مذهبية وكذلك من الناحية الجغرافية. كما أحسن ابن بطوطة إبراز ميكانيزمات الإنتاج السردي والحكائي والفصفي في سرده لرحلته.

وفي الختام توصلت إلى العديدة من النتائج والتوصيات من أهمها أن رحلة ابن بطوطة تعد مرجعاً ثقافياً للقرون الوسطى، فقد تجلت عنده المثلثات الثقافية في أبهى صورها، ويعود ذلك إلى دقة عبارته وجمال لفظه، ودقة الوصف الذي وظفه لنقل هذه الثقافة، فكانت مذكراته العامل الأساسي في نقل هذه التمثيلات الثقافية آنذاك، كما جاءت التمثيلات الثقافية في رحلة ابن بطوطة انعكاساً للواقع إلى حد كبير، وجاء نص رحلة (ابن بطوطة) نصاً قصصياً سردياً، يروي الأحداث ويصوّر الشخصيات، ولقد مثل السرد والوصف في رحلة (ابن بطوطة) أدب الرحلة فكانا يسيران وفق خطين متوازيين وقد يتقاطعان عند نقطة محددة ليفسح إحداها المجال للآخر لينطلق معتمداً على سياقات وتراكيب لغوية محددة.

كما أحسن ابن بطوطة إبراز ميكانيزمات الإنتاج السردى والحكاى والقصى كما أولى ابن بطوطة الإنسان أهمية كبرى فى سىاقات السرد والوصف المتنوعة التى دونها أثناء رحلته، فركز على تفاعله مع الطبيعة وظروفها، وكذلك العلاقة بئنة وبين المكان، فرسم صوراً للحياة الاجتماعية وما كانت عليه من رقى ورفاهية وكذلك الفقر والعوز فى حياة الشعوب. اتخذ الوصف فى رحلة ابن بطوطة صوراً وأشكالاً شتى، وفقاً لنظرة الرحالة الراصدة ومشاهدته المستمرة.

الْخَاتِمَةُ الْعَامَّةُ

قامت هذه الدراسة بالبحث في موضوع (تَمَثُّلَاتُ الْهُوِيَّةِ وَالْغَيْرِيَّةِ فِي تَحْفَةِ النُّظَارِ فِي غَرَائِبِ الْأَمْصَارِ وَعَجَائِبِ الْأَسْفَارِ لِابْنِ بَطُوطَةَ) مُقَارَنَةً سَرَدِيَّةً ثَقَافِيَّةً حَاوَلَتْ مِنْ خِلَالِهَا إِثْرَارُ تَمَثُّلَاتِ الْهُوِيَّةِ وَالْغَيْرِيَّةِ فِي أَدَبِ الرِّحْلَةِ عِنْدَ ابْنِ بَطُوطَةَ مِنْ خِلَالِ كِتَابِهِ تَحْفَةِ النُّظَارِ وَعَجَائِبِ الْأَسْفَارِ .
وَسَلَكْتُ فِي دَرَأَسَتِي هَذِهِ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِهَا لِتِلْكَ الْغَايَةِ طَرِيقًا أَوْضَحْتُ فِيهِ الْمَقْصُودَ بِمُصْطَلَحَاتِ الْهُوِيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ وَالتَّمَثُّلَاتِ الْغَيْرِيَّةِ مُطَبِّقًا عَلَى رِحْلَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ .

احتوت الدراسة على مبحث تمهيدي وثلاثة فصول بين المقدمة والخاتمة، حيث احتوى المبحث التمهيدي على مدخل المفاهيم المركزية في الدراسة والوعي بتحولاتها المعرفية.

أما الفصل الأول (أدبية خطاب الرحلة في رحلة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة) لمناقشة العلاقة بين الرحلة والرحالة والسرد والوصف في رحلة ابن بطوطة. أما الفصل الثاني (تمثيلات الهوية في رحلة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة) فبحث في ماهية الهوية وتمثيلاتها في رحلة ابن بطوطة من خلال إبراز الهوية والغيرية في الثقافة العربية .

أما الفصل الثالث: (تمثيلات الغيرية في رحلة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة) دراسة في آليات تشكّل المعنى والدلالة من خلال إبراز تمثيلات الغيرية في رحلة ابن بطوطة والهوية والغيرية (الأنا والآخر).

وَقَدْ تَوَصَّلْتُ فِي بَحْثِي إِلَى جُمْلَةٍ مِنَ النَّتَائِجِ أُبْرِزُهَا.

1 - تَبَوَّأَ ابْنُ بَطُوطَةَ مَكَانَةً عَالِيَةً بَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ الرِّحَالَةِ سَوَاءً مِمَّنْ سَبَقُوهُ أَوْ عَاصَرُوهُ حَيْثُ تُمَكِّنُ مِنَ التَّعَايُشِ مَعَ مُخْتَلَفِ الْأَجْنَاسِ ، وَلَمْ تَحُولْ صَدْمَتُهُ أَوْ عَقِيدَتُهُ مِنَ الْإِخْتِلَاطِ بِالْآخِرِ وَاكْتِشَافُهُ وَنَقْلُ صُورَتِهِ كَمَا عَايَنَهَا . فَقَدْ مَارَسَ الْحَيَاةَ مَعَ الْآخِرِ الْمُغَايِرِ ، وَكَذَلِكَ فَالْمِسَاحَةُ الْمَكَانِيَّةُ الَّتِي إِجْتَازَهَا ابْنُ بَطُوطَةَ مِسَاحَةٌ وَاسِعَةٌ زَارَ فِيهَا مُجْتَمَعَاتٍ عِدَّةَ لَمْ يَسْبِقْهُ رَحَالَةً إِلَيْهَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّهُ قَدَّمَ لِهَذِهِ الْمِسَاحَاتِ صُورَةً مُفَصَّلَةً لِلْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ بِهَا ، وَكَذَلِكَ الْحَيَاةِ الْمِهْنِيَّةِ وَالطَّعَامِ وَالْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ تَجَاوَزَتْ دَهْشَتَهُ وَإِعْجَابُهُ نَقَلَ صُورَةً وَاضِحَةً حَوْلَ جَمِيعِ أَوْجِهَةِ الْحَيَاةِ فِيهَا .

2 - جَاءَتْ التَّمَثُّلَاتُ الثَّقَافِيَّةُ فِي رِحْلَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ انْعِكَاسًا لِلْوَاقِعِ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ ، وَلَيْسَتْ بِنَاءً عَلَى تَصَوُّرَاتٍ سَابِقَةٍ فَحَسَبَ ، فَقَدْ كَانَ لَطُولُ زَمَنِ رِحْلَتِهِ مُعَايَشَتِهِ الْأَقْوَامِ الَّتِي مَرَّ بِهَا دَوْرٌ فِي ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ كَانَ لِشَخْصِيَّتِهِ وَوُظُفَيْتِهِ كَقَاضٍ دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي ذَلِكَ ، فَقَدْ كَانَ مُحَايِدًا إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ

فِي نَقْلِ ثَقَافَاتِ هَذِهِ الشُّعُوبِ وَعَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ . حَيْثُ اعْتَمَدَ ابْنُ بَطُوطَةَ الْمَشَاهِدَةَ وَالْمُعَايِنَةَ فِيمَا دَوَّنَهُ عَنِ الشُّعُوبِ وَالْأَمَاكِنِ الَّتِي زَارَهَا وَمَرَّ بِهَا .

3 - تُعَدُّ رِحْلَةُ ابْنِ بَطُوطَةَ مَرْجِعاً ثَقَافِيّاً لِلْفُرُوقِ الْوَسْطَى ، فَقَدْ تَجَلَّتْ عِنْدَهُ التَّمَثِيلَاتُ الثَّقَافِيَّةُ فِي أَبْهَى صُورِهَا ، وَيَعُودُ ذَلِكَ إِلَى دِقَّةِ عِبَارَتِهِ وَجَمَالِ لَفْظِهِ ، وَدِقَّةِ الْوَصْفِ الَّذِي وَظَفَهُ لِنَقْلِ هَذِهِ الثَّقَافَةِ ، فَكَانَتْ مَذَكَّرَاتُهُ الْعَامِلِ الْأَسَاسِيَّ فِي نَقْلِ هَذِهِ التَّمَثِيلَاتِ الثَّقَافِيَّةِ آنَذَاكَ .

4 - لَمْ تَكُنِ التَّمَثِيلَاتُ الثَّقَافِيَّةُ عَنِ ابْنِ بَطُوطَةَ مُجَرَّدَ صُورَةٍ لِلْآخِرِ فَقَطْ ، وَلَكِنَّهُ تَغْمِيقٌ دَاخِلٌ هَذَا الْآخِرُ ، فَأَخْرَجَ مَكْنُونَاتِ نَفْسِهِ وَعَبَّرَ عَنْهَا تَعْبِيرًا جَيِّدًا حِينَمَا قَارَنَ بَيْنَهَا وَبَيَّنَ مَا مَرَّ بِهِ فِي نَوَاجِي الْمَغْمُورَةِ .

5 - جَاءَ نَصُّ رِحْلَةِ (ابْنِ بَطُوطَةَ) نَصّاً قِصَصِيّاً سَرْدِيّاً ، يَرْوِي الْأَحْدَاثَ وَيَصُورُ الشَّخْصِيَّاتِ مَعَ التَّنَوُّعِ فِي الْأَسْلُوبِ بَيْنَ السَّرْدِ الْقِصَصِ الْمَشُوقِ ، وَالْوَصْفِ الدَّقِيقِ لِلْوَاقِعِ الَّذِي يُحَرِّكُ الْمَشَاعِرَ وَالْعَوَاطِفَ ، وَكَذَلِكَ إِسْتِمَالُهُ عَلَى تَقْنِيَةِ الْحَوَارِ ، وَخُرُوجُهُ مِنْ نِطَاقِ الْمَغْفُولِ الْمَأْلُوفِ ، إِلَى مُحِيطِ غَيْرِ الْوَاقِعِ وَالْمُمْكِنِ .

6 - أَوَّلَى ابْنِ بَطُوطَةَ الْإِنْسَانَ أَهَمِّيَّةً كُبْرَى فِي سِيَاقَاتِ السَّرْدِ وَالْوَصْفِ الْمُتَنَوِّعَةِ الَّتِي دَوَّنَهَا أَثْنَاءَ رِحْلَتِهِ ، فَرَكَّزَ عَلَى تَفَاعُلِهِ مَعَ الطَّبِيعَةِ وَظُرُوفِهَا ، وَكَذَلِكَ الْعِلَاقَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَكَانِ ، فَرَسَمَ صُورًا لِلْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ رُقْيٍ وَرَفَاهِيَّةٍ وَكَذَلِكَ الْفَقْرَ وَالْعُورَ فِي حَيَاةِ الشُّعُوبِ .

7 - اسْتَنَدَ ابْنُ بَطُوطَةَ فِي سَرْدِهِ لِأَحْدَاثِ الرِّحْلَةِ عَلَى مَبْدَأِ التَّذَكُّرِ التَّرَاجُعِيِّ ، وَاجْتِزَارِ الْأَحْدَاثِ مِنْ خِلَالِ مَا تَخْتَرْنُهُ ذَاكِرَتُهُ مِنْ مَوَاقِفَ رَاسِخَةٍ ، وَمُحَاوَلَةِ اسْتِرْجَاعِ الْأَحْدَاثِ مِنْ خِلَالِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالذِّهْنِ ، وَذَلِكَ لِزَبْطِ الْأَحْدَاثِ بَعْضُهَا الْبَعْضَ .

8 - تَجَلَّى الْوَصْفُ وَالْحَوَارَ كَتَقْنِيَّةٍ مِنْ تَقْنِيَّاتِ السَّرْدِ عِنْدَ ابْنِ بَطُوطَةَ فِي مَسِيرَتِهِ السَّرْدِيَّةِ ، وَذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضُوعٍ مِنْ رِحْلَاتِهِ .

9 - اتَّبَعَ ابْنُ بَطُوطَةَ فِي بَعْضِ الْمَوَاقِفِ السَّرْدِ الْإِزْتِجَالِي الَّذِي ظَهَرَ جَلِيّاً فِي الْقَوْلِ وَتَوَالِي فَعَلِّ السَّرْدِ بَيْنَ الْقُصَاةِ الزَّمَانِيِّ وَالْمَكَانِيِّ الَّذِي يُشَكِّلُ الْإِطَارَ الْخَارِجِيَّ لِلرِّحْلَةِ .

10 - وَقَدْ يَمُرُّ ابْنُ بَطُوطَةَ بَيْنَ جَمِيعِ هَذِهِ التَّقْنِيَّاتِ السَّرْدِيَّةِ - الْحَوَارِ وَالْوَصْفِ وَالْمَكَانِ وَالشَّخْصِيَّاتِ - فِي سَرْدِهِ لِتَمَثُّلِ ثَقَافَةِ الْأَنَا ، وَثَقَافَةِ الْآخِرِ ، فَتَوَثَّرَ فِي الْمُتَلَقِّي تَأْثِيرًا بِالْعَا .

11 - أَحْسَنَ ابْنُ بَطُوطَةَ فِي اسْتِخْدَامِ الْمُغَامَرَةِ فِي رِحْلَتِهِ كَتَقْنِيَّةٍ مِنْ تَقْنِيَّاتِ السَّرْدِ لِيَجْذِبَ الْمُتَلَقِّي إِلَى حَدِيثِهِ وَيُمَتِّعَهُ بِحِكْمِهِ ، وَيَبْرُرُ مِنْ خِلَالِهَا ثَقَافَةَ الْآخِرِ .

12 - تُشكّل مبدأ الوصف في رحلة ابن بطوطة بصورة تلقائية وذلك من خلال لغة السرد وبنية وتركيبته ، وتفنّينه القصصية التي تُعبّر عن انطباعات الرحالة ومشاهداته لمختلف الأماكن التي زارها .

13 - اتُخذ الوصف في رحلة ابن بطوطة صوراً وأشكالاً شتى ، وفقاً لنظرة الرحالة الراصدة ومشاهدته المستمرة ، فأتسم الوصف في رحلة (ابن بطوطة) في بعض الفترات بأنه مستقل ومُنقصل وكأنه استراحة في ثنایا السرد ، وذلك عندما يصف مشهداً أو مكاناً أو شخصية وكذلك عندما يعود إلى استئناف رحلة السرد مرة أخرى ، وقد يكون الوصف على شكل نصوص كاملة تستغرق جملة من الصفحات .

14 - تناول ابن بطوطة في رحلاته كل ما له علاقة بالعمران بالوصف الدقيق ، فوصف كل ماله علاقة بالمظهر العمراني بشقية المادي والإنساني ، فسجل صور تلك المظاهر مركزاً على مشاهداته البحتة ، من خلال الاعتماد على سياقات وألفاظ تتبع الطمأنينة في النفس الإنسانية .

15 - مثل السرد والوصف في رحلة (ابن بطوطة) أدب الرحلة فكأنما يسيران وفق خطين متوازيين ، وقد يتقاطعان عند نقطة محددة ليفسح إحداها المجال للآخر لينطلق مُعتمداً على سياقات وتراكيب لغوية محدّدة .

16 - تنوّع في تحفة النظائر صور حضور الآخر في الأشكال البيوغرافية والسيرية والتراجمية والمناقبية والأوتوانوغرافية بتنوّع الأشكال الرحلية المتفاعلة بين قطبي الأنا والآخر ، إضافة إلى ما يميّز النص الرحلي من خصوصية تنوّي صورة الآخر بكافة مظهراتها ، وتنعكس أسلوباً في الكتابة لما يشكّله الآخر من حضور منتظم داخل الرحلة .

17 - تتبع هوية الفرد من كل ما ينشأ عليه هذا الفرد من ثقافة وسياسية ومحيط اجتماعي ، هذا المحيط الذي يشكّل تلك الهوية وتنمو معه ، وقد تتغيّر بحسب ثبات أو تغيير هذه المكونات حسب ظروفها الفكرية والبشرية والبيئية التي تكثف مناخها ، لكن تبقى أسسها ومبادئها مكوّناً أساسياً في شخصية هذا الفرد .

18 - ظهرت ذاتية ابن بطوطة في سرده لأحداث الرحلة ، في حين مثّل في مواضع أخرى دور الوسيط الذي ينقل فقط ما يشاهده ويمرّ به من وقائع ، وهذا يرجع في الأساس إلى طبيعة الموقف الذي يفرض نفسه على الرحالة ، فقد طالت رحلته وأثّرت شخصيته في أقوام ، كما تأثّر ابن بطوطة بمن مرّ بهم .

19 - إِنَّ مُسْتَوِيَاتِ الْهُوِيَّةِ وَعَنَاصِرَهَا ، مُتَدَاخِلَةٌ وَمُتَشَابِكَةٌ ، إِذْ يَتَوَاجَدُ وَيَتَرَامَنُ أَكْثَرُ مِنْ مُسْتَوَى وَنَوْعٍ لِلْهُوِيَّةِ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَمِنْ الصَّغْبِ الْفُضْلُ بَيْنَ هَذِهِ الْمُسْتَوِيَّاتِ لِتَحْدِيدِ مُسْتَوَى هُوِيَّةِ كُلِّ فَرْدٍ عَلَى حِدَةٍ ، وَلَكِنَّ دِرَاسَةَ هَذِهِ الْمُسْتَوِيَّاتِ وَعَنَاصِرَهَا لِمَعْرِفَةِ الْمَكُونَاتِ الْأَسَاسِيَّةِ وَالْفَرَعِيَّةِ لِلْهُوِيَّةِ أَيَّا كَانَتْ فَرْدِيَّةً أَمْ جَمَاعِيَّةً أَمْ ثَقَافِيَّةً أَمْ غَيْرَ ذَلِكَ . فَالْهُوِيَّةُ كَائِنْ حَيٍّ تَتَنَازَعُهُ مَآرِبُ شَتَّى ، وَتَتَرَاكُمُ الْمَعْرِفَةُ بِدَاخِلِهِ خِلَالَ مَرَاجِلِ عُمُرِهِ الْمُخْتَلِفَةِ ؛ وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَارِفِ وَالْخَبَرَاتِ تَنْصَهَرُ بِدَاخِلِهِ لِتَنْتِجَ فِي النِّهَايَةِ هُوِيَّتَهُ تَجَاهَ الْآخِرِ ، بَلْ قَدْ تَتَشَابَكَ أَيْضاً هُوِيَّةُ الْفَرْدِ مَعَ هُوِيَّةِ الْآخِرِ حِينَ تَلْتَقِي مَعَهُ فِي بَعْضِ السِّمَاتِ وَالصِّفَاتِ وَالَّذِي يُصَنَّفُ تَحْتَ مُسَمَّى الْإِنْفِتَاحِ الثَّقَافِيِّ وَالْحَضَارِيِّ وَالَّذِي يُؤَثِّرُ بِقَدْرِ مَا فِي هُوِيَّةِ الْأَنَا وَالْآخِرِ .

20 - ظَهَرَتِ الْغَيْرِيَّةُ وَاضِحَةً فِي رُحُلَاتِ ابْنِ بَطُوطَةَ إِلَى جَانِبِ الْهُوِيَّةِ الَّتِي تَمَثَّلَتْ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ فِي رِخَالَتِهِ ، وَبِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الْأَشْيَاءُ ، فَأَبْنُ بَطُوطَةَ حِينَ يَرَسُمُ شَخْصِيَّةَ هَذَا الْآخِرِ ، وَيَبْرُزُ صِفَاتِهِ وَعَادَاتِهِ وَأَفْكَارَهُ وَإِتْجَاهَاتِهِ ، فِي مُقَابِلِ ذَلِكَ يَبْرُزُ هُوِيَّتُهُ أَيَّا كَانَ هَذَا الْآخِرُ مِنْ حَيْثُ الْإِتِّفَاقِ وَالْإِخْتِلَافِ .

21 - لَقَدْ أَبْرَرَ ابْنُ بَطُوطَةَ صَوْتَ الْآخِرِ مِنْ خِلَالِ إِبْرَارِهِ لِقِيمِ الْكَرَمِ وَأَنْوَاعِهِ ، وَقَدْ تَكَرَّرَ هَذَا كَثِيراً عِنْدَ كَشْفِهِ عَنِ الْقِيَمِ الْمُتَّصِلَةِ بِالْعَلَاَقَاتِ الَّتِي تَرْتَبِطُ بَيْنَ الْأَنَا وَالْآخِرِ وَخَاصَّةً عِلَاقَتَهُ وَتَصَوُّرَهُ لِلْمَرَاةِ فِي رِحْلَتِهِ .

22 - لَقَدْ تُمَكَّنَ ابْنُ بَطُوطَةَ مِنْ أَنْ يَرَى الْعَالَمَ الْقَدِيمَ كُلَّهُ جَوَاباً وَشَاعِراً وَقَاضِياً وَسَفِيرًا وَالتَّأَثُّرَ بِالْآخِرَاتِ بِالْآخِرِ بِالْأَنَا الْخَاصَّةَ بِابْنِ بَطُوطَةَ ، لِيَصِفُهُ وَصْفًا فَائِقًا وَرَاصِيًا وَقَفَّ فِيهِ عَلَى عَادَاتِ الشُّعُوبِ وَدِيَانَاتِهَا وَحَيَاتِهَا الْيَوْمِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ .

23 - وَتَتَعَدَّدُ صُورَةُ الْآخِرِ فِي نُحْفَةِ النُّظَارِ فَمِنْهَا : الْآخِرُ الْأَوْتُو إِثْنُو غَرَّاقِي وَمِنْهَا الْآخِرُ كَمَا هُوَ فِي الْوَقَاعِ ، وَهَذَا النَّوْعُ وَرَدَّ فِي نُحْفَةِ النُّظَارِ كَثِيراً مِمَّا يَدُلُّ عَلَى حَيَادِيَّةِ ابْنِ بَطُوطَةَ فِي عَرْضِهِ لِصُورَةِ الْآخِرِ ، حَيْثُ سَجَّلَ مَوَاقِفَ حَيَادِيَّةٍ فِي عَرْضِهِ لِعَادَاتِ وَتَقَالِيدِ الْأُمَمِ الَّتِي مَرَّ بِهَا .

24 - وَقَفَّ ابْنُ بَطُوطَةَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِلْآخِرِ فَوُصِفَ الْكُنَائِسُ وَالْمَسَاجِدُ وَالْجَوَامِعُ وَالطُّفُوسُ وَالشَّعَائِرُ ، وَكَذَلِكَ الْأَزْيَاءُ الْمَدَنِيَّةُ وَالشَّعْبِيَّةُ وَالْبَرِّيَّةُ وَالْبَحْرِيَّةُ وَالتَّطْبِيبُ الْبَدَائِي بِالْأَعْشَابِ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ مَصْدَرًا عِلْمِيًّا لِلْإِنْسَانِ الْقَدِيمِ .

25 - وَمِنْ نَاحِيَةِ صُورَةِ الْآخِرِ الْمَذْهَبِيَّةِ فَقَدْ حَاوَلَ ابْنُ بَطُوطَةَ قَدْرَ الْإِمْكَانِ أَنْ يَقِفَ مَوْقِفًا وَسَطًا فَحِينَ زَارَ دِمَشْقَ وَمَسْجِدَهَا نَقَلَ جَمِيعَ قِصَصِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ بِهَا ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَعَايُشِ مَذْهَبِي

غَايَةٍ فِي الرُّوعَةِ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ ، وَلَكِنَّا نَرَى أَنَّهُ فِي بَعْضِ الْمَوَاقِفِ يَنْحَازُ إِلَى الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ وَذَلِكَ حِينَ أُسْرِفَ فِي مَذْحِ قَضَاتِهِ وَفَقَهَايِهِ عَلَى غَيْرِ عَادَتِهِ مَعَ بَاقِي الْمَذَاهِبِ ، وَقَدْ عَزُوتَ هَذَا إِلَى إِنْتِشَارِ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ فِي هَذِهِ الْفَتْرَةِ الزَّمَنِيَّةِ .

26 - لَقَدْ هِدِمَتْ رِحْلَةُ ابْنِ بَطُوطَةَ الْأَسْوَارِ الْوَهْمِيَّةِ بَيْنَ الْأَجْنَاسِ الْمَعْرِفِيَّةِ ، وَبَيْنَ الْأَنْوَاعِ الْأَدْبِيَةِ فَهِيَ فِي الْوَقْتِ ذَاتُهُ : أَدَبُ رِحْلَةٍ ، وَسِيرَةٌ ذَاتِيَّةٌ ، وَتَارِيخٌ ، وَجُغْرَافِيَّةٌ ، فُنُ الْعِلَاقَاتِ الْعَامَّةِ وَوَسَائِلُ النَّقْلِ وَتَطَوُّرُهَا ، وَأَخِيرًا عِلْمُ الْإِنْسَانِ (الْإِنْشِرُوبُولُوجِيَا) .

27 - رَضُدُ ابْنِ بَطُوطَةَ فِي تَحْقِيقِهِ ظَوَاهِرِ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَإِنْسَانِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ لِلْمُجْتَمَعَاتِ وَالْأُمَمِ الَّتِي مَرَّ بِهَا مِنْ خِلَالِ تَرَكَيبِهِ اللُّغَوِيَّةِ ، وَاسْتِخْدَامِ تَقْنِيَّاتِ سَرْدِيَّةٍ كَمِثَالِ الْهُيَّةِ الثَّقَافِيَّةِ لَهُ ، وَلِلْآخِرِ الَّذِي عَاشَهُ وَمَرَّ بِهِ .

28 - أَحْسَنَ ابْنُ بَطُوطَةَ إِزْرَازَ مِيكَانِيْزِمَاتِ الْإِنْتَاكِ السَّرْدِيِّ وَالْحَكَائِيِّ وَالْقَصَصِيِّ فَيُظْهِرُ أَهْلَ الْمَشْرِقِ ، مِنْ خِلَالِ كِتَابِهِ ، عَلَى هَذِهِ الْمَلَامِحِ الْإِيجَابِيَّةِ فِي عِلَاقَتِهِمْ بِالْمَغَارِبَةِ .

29 - جَاءَ نَصُّ رِحْلَةِ (ابْنِ بَطُوطَةَ) نَصًّا قَصَصِيًّا سَرْدِيًّا مِنَ الدَّرَجَةِ الْأُولَى ، يَزِيهِ الْأَخْدَاثُ وَيُصَوِّرُ الشَّخْصِيَّاتِ ، مَعَ التَّنَوُّعِ فِي الْأُسْلُوبِ بَيْنَ السَّرْدِ الْقَصَصِ الْمَشُوقِ ، وَالْوَصْفِ الدَّقِيقِ لِلْوَاقِعِ الَّذِي يُحَرِّكُ الْمَشَاعِرَ وَالْعَوَاطِفَ ، وَكَذَلِكَ إِشْتِمَالُهُ عَلَى تَقْنِيَّةِ الْحَوَارِ ، وَخُرُوجُهُ مِنْ نِطَاقِ الْمَعْقُولِ الْمَأْلُوفِ ، إِلَى مُحِيطِ غَيْرِ الْوَاقِعِ وَالْمُمْكِنِ .

30 - سَارَ ابْنُ بَطُوطَةَ فِي وَصْفِهِ لَمَّا مَرَّ بِهِ مِنَ الْأَمَاكِنِ وَالزُّوَايَا وَالْمَسَاجِدِ وَالْمَبَانِي وَغَيْرِهَا ... وَصِفًا إِسْتِقْرَائِيًّا وَاسْتِنبَاطِيًّا فَهُوَ يَصِفُ الشَّيْءَ كَمَا هُوَ ثُمَّ يُقَارِنُ بَيْنَهَا وَيَبْنِي غَيْرَهَا مِنْ مِثْلَاتِهَا الَّتِي مَرَّ بِهَا فِي بُلْدَانٍ أُخْرَى .

ثَانِيًا - التَّوْصِيَّاتُ :

1 - إِنَّ رِحْلَةَ ابْنِ بَطُوطَةَ تَزَخَّرُ بِفَيْضٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالثَّقَافَةِ عَنْ شُعُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ وَعَوَالِمٍ كَثِيرَةٍ ؛ وَلِذَا فَلَا يَسْغُهَا بَحْثٌ وَاحِدٌ بِالذَّرَاسَةِ وَالتَّحْلِيلِ ، وَلَعَلَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى دِرَاسَاتٍ كَثِيرَةٍ تَتَنَاوَلُهَا مِنْ زَوَايَا مُخْتَلِفَةٍ .

2 - تُرَكِّزُتِ دَرَأَسَتِي لِرِحْلَةِ ابْنِ بَطُوطَةَ مِنْ حَيْثُ الْوَصْفُ وَالسَّرْدُ وَصُورَةُ الْأَنَا الْآخِرِ وَالتَّمَثُّلَاتِ الثَّقَافِيَّةِ ، فِي حِينَ أَنَّ رِحْلَةَ ابْنِ بَطُوطَةَ تَتَنَاوَلُتِ الشُّعُوبَ الَّتِي مَرَّ بِهَا مِنْ زَوَايَا مُخْتَلِفَةٍ كَالْعَادَاتِ ، وَالْأَخْلَاقِ ، وَالتَّقَالِيدِ ، وَالْمَلْبَسِ ، وَالْمَأْكَلِ ، وَكَذَلِكَ مَظَاهِرُ الْعُمَرَانِ وَغَيْرِهَا ... وَهَذَا

بُدوره يحتاج إلى دراسات كثيرة تتناول كل ظاهرة على حدة بالبحث والدراسة والاستقراء ، كي
تكشف عن طبيعة الأدب واللغة في فترة زمنية من تاريخ أدبنا العربي الأصيل .

3 - الموازنة بين أدب الرحلات في الأدب العربي لم يحظ بدراسات كثيرة ، ولعل هذا الفن يأخذ
طريقه بين الدارسين والباحثين فيما بعد ، فيقارون بين ابن بطوطة وغيره من الرحالة في نفس الفترة
الزمنية التي يعيشون فيها ، وبين ما دونه ابن بطوطة وغيره من الرحالة ممن كان له حظ في زيارة
نفس الشعوب التي مروا بها مما يصنع الباحث على الطريق الصحيح في تراث أدبي وصلنا بأكثر
من طريق فيوثق هذا التراث توثيقاً جيداً ، يعتد به فيما بعد مرجعاً تاريخياً وأدبياً وثقافياً موثقاً .
ولعلي حاولت في بحثي هذا قدر استطاعتي أن أقف على بعض من زوايا أدب الرحلات متمثلاً
في رحلة ابن بطوطة بالدراسة والاستقراء والتحليل ، فهو جهد المقل ، فإن كان من توفيق فمر الله
، وإن كان من خطأ أو نسيان فمن نفسي وحسبي قول الله تعالى " إنا لا نضيع أجر من أحسن
عملاً " ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

المراجع والمصادر

1- أولاً- المعاجم:

- 2- ابن منظور، لسان العرب، المجلد التاسع ط2" دار صادر، بيروت 1999م.
- 3- الرازي محمد ابن أبي بكر ابن عبد القادر: ح، دار الجبل بيروت، 1987.
- 4- ابن حزم: "الفصل بين الملل والنحل" في قسم الكلام عن التوحيد وفي التشبيه الجزء الأول، تحقيق محمد سيد كيلاني/ دار صادر بيروت 1404 هـ.
- 5- الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد) : إحياء علوم الدين، المجلد الثاني ، الطبعة الرابعة ، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت 1997م.
- 6- الفيروز آيادي (محمد بن يعقوب بن السراج) : القاموس المحيط، المكتبة المصرية ، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2003.
- 7- الزبيدي، تاج العروس (63 / 29) ت. 1205 هـ ، دار الهداية ط2 ، الفيروز آيادي (محمد بن يعقوب بن السراج) : القاموس المحيط، المكتبة المصرية ، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. 2005م.
- 8- المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده دار الكتب العلمية بيروت ط1 ، 1421 هـ .
- 9- المنجد في اللغة والإعلام_ دار المشرق_ بيروت_ ط38_ 2000م.
- 10- معجم الدراسات الثقافية، ترجمة: جمال بلقاسم، كريس باركر، الطبعة الأولى 2018م.

- 11- كتاب الأعلام (قاموس تراجم) ، خير الدين الزركلي، الجزء الأول، دار العلم للملايين ، الطبعة الخامسة عشر. 2009.

ثانياً- الكتب والمجلدات باللغة العربية:

- 12- أحمد أبو سعد، أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي، دراسة ومختارات ، الطبعة الأولى. منشورات دار الشرق، 1961.
- 13- أحمد صدقي الدجاني . رؤى مستقبلية عربية . دار المستقبل العربي . القاهرة . 1983 .

- 14- أحمد مرشد: البنية الدلالة في روايات إبراهيم نصر الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط1، 2005.
- 15- اسماعيل نوري الربيعي، التاريخ والهوية: إشكالية الوعي بالخطاب التاريخي المعاصر، م.س.ذ.
- 16- أسماء أبوبكر محمد: كتاب الرجل والرحالة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1992م.
- 17- إدريس خضراوي: المتخيل والتمثيل للآخر قراءة في كتاب تمثيلات الآخر، مجلة العلوم الإنسانية العدد 12، 2006.
- 18- إبراهيم أنيس: عبد الحليم منتصر، وآخرون، معجم الوسيط، الناشر مجمع اللغة العربية - مكتبة الشروق الدولية - القاهرة 2004.
- 19- إبراهيم عبدالحليم، منتصر أنيس، عطية الصوالحي، محمد خلف الله أحمد معجم الوسيط، الناشر مجمع اللغة العربية - مكتبة الشروق الدولية - 2004 .
- 20- إدريس خضراوي المتخيل والتمثيل للآخر قراءة في كتاب تمثيلات الآخر مجلة العلوم الإنسانية العدد 12، 2006.
- 21- أمين معلوف، الهويات القاتلة، ترجمة د. نبيل محسن، دار ورد للطباعة والنشر سورية، ط1 ، سنة 1999.
- 22- أمنة يوسف: تقنيات السرد في النظرية التطبيق، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1 1997.
- 23- أرسطو، فن الشعر، ص 62، ترجمة وتعليق وتقديم د. إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو المصرية . ط1 - القاهرة 1982م.
- 24- العرب وابن خلدون، دار المغرب العربي، تونس / دار الغرب الإسلامي، بيروت ط 4 . 1988.
- 25- العقاد: الأدب والنقد، دار الكتاب اللبناني للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى سنة 1984 .
- 26- الطاهر عزيز، المناهج الفلسفية، المركز الثقافي العربي ، بيروت ط1 ، 1990

- 27- الشريف علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، دار عالم الكتب_ بيروت_ 1998م.
- 28- ألبيرداس . ج. غريماس جاك فونتينني ، سيميائيات الأهواء من حالات الأهواء إلى حالات النفس ، ت. سعيد بنكراد ، دار الكتب الوطنية بنغازي ليبيا ط 1 سنة 2010
- 29- اغناطيوس كراتشكو فسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ط2، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1987م.
- 30- بول باركر، الذات عينها كآخر، ت، جرج زيناتي، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ط1 ، 2005
- 31- بغداددي (عبدالقاهر) : الفرق بين الفرق ، دار المعرفة ، بيروت ، ط 3 . 2001
- 32- توفيق الزايدي: مفهوم الأدبية في التراث النقدي)، مكتبة الأدب المغربي، الدار البيضاء. المغرب. 2008.
- 33- تشارلز تايلر، منابع الذات في تكوّن الهوية الحديثة، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، مراجعة هيثم غالب الناهي، المنظمة العربية للترجمة. 2004.
- 34- جان بول سارتر، الأدب، ترجمة د. محمد غنيمي هلال..، دار نهضة مصر، القاهرة. 2003.
- 35- جيرار جنيت: خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، ترجمة (محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، عمر حلي)، الطبعة الثانية، 1997 م، المجلس الأعلى للثقافة.
- 36- سيليفيان آغاساتسكي، ترجمة د. منذر عياشي، نقد المركزية (حدث الآخر)، الطبعة الأولى ، طوى للثقافة والنشر والإعلام، لندن. 2014م.
- 37- بنحادة، عبد الرحيم وشكراوي، خالد: الرحلة والغريبة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط1، 2008.
- 38- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، مادة هوية، ط دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع سنة 1994.
- 39- جوزيف كورتيس ، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية ، ترجمة د. جمال الخضري ، الدار العربية للعلوم ط1- الجزائر. 2007 م .

- 40- حبيب بوزارة، سيميائية الثقافة لدى جماعة موسكو -تارتو أغسطس 2018 ط1، مطبوعات جامعة معسكر الجزائر.
- 41- حسين محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ط2، دار بيروت، لبنان، 1983.
- 42- حمادي المسعودي، الحكايات العجيبة في رحلة ابن بطوطة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، تونس 2001.
- 43- حميد لحميداني : بنية النص من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ، المغرب . ط3، 2003م.
- 44- خليل نوري مسيهر العاني_ الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية_ ديوان الوقف السني_ العراق_ 2009م.
- 45- دلال حبور: بنية النص السردي في معارج ابن عربي، ط1، جامعة منتري قسنطينة، الجزائر 2006م .
- 46- سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، الزمن، السرد، ط3، المركز الثقافي الغربي الدار البيضاء 1997م.
- 47- سعيد جبار: خطاب الرحلة (الذاكرة وآليات إنتاج الدلالة)، الطبعة الأولى، رؤية للنشر والتوزيع القاهرة، 2017.
- 48- شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي (التجنس.. آليات الكتابة.. الخطاب المتخيل)، الطبعة الأولى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة 2006.
- 49- شوقي ضيف: الرحلات، ط4، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة 1999.
- 50- صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الأفق الجديدة بيرت، لبنان ط3، 1985
- 51- طيب عبد الجليل حسين_ الهوية والجنسية_ رسالة ماجستير غير منشورة_ جامعة الزعيم الأزهرى_ الخرطوم_ 2005م.
- 52- سميرة أنساعد، مضامين الهوية وتجليات الأنا والآخر في خطاب الرحلة الجزائرية المعاصرة، دراسة تطبيقية على رحلات احمد منور إلى أوروبا، مجلة الأثر، العدد 21 ديسمبر 2014.

- 53- سعيد بنكراد ، السيمائيات مفاهيمها وتطبيقاتها ، مكتبة الأدب المغربي ، دار حوار للنشر والتوزيع ، اللازقية ، سوريا ط3 -2012 .
- 54- سعيد يقطين، الرواية والتراث السردى، الطبعة الأولى، مكتبة الأدب المغربي المركز الثقافي العربي، بيروت، 1992 م.
- 55- صموئيل ب. هنتغتون، من نحن؟ ترجمة أحمد مختار الجمال، مراجعة وتقديم - السيد أمين شلبي، المركز القومي للترجمة (القاهرة) العدد (1325) سنة 2009.
- 56- عبدالله إبراهيم : عالم القرون الوسطى في أعين المسلمين ، الجزء الثاني،(د ط)
- 57- عبدالله ابراهيم ، السردية العربية (بحث في البنية السردية للموروث البكائي العربي) (د ط).
- 58- عبد الله عبد الدائم . العرب والعالم بين صدام الثقافات وحوار الثقافات، مجلة المستقبل العربي . ع 203، 1996
- 59- عبد الله أحمد أبو راشد . العولمة والنظام العالمي والشرق أوسطية . دار الحوار للنشر والتوزيع . 1999.
- 60- عبد الرحيم الكردي : السرد في الراية المعاصرة ، دار الثقافة للنشر الطباعة ، ط1، القاهرة سنة 1992.
- 61- عبدالرحيم كردي : البنية السردية للقصة القصيرة، دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة (د،ط) .
- 62- عبد الرحيم مودن: أدبية الرحلة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط1، 1996.
- 63- عبد المنعم زكريا القاضي: البنية السردية في الرواية، مجلة الدراسات والبحوث الإنسانية، 2009.
- 64- علي أسعد وطفة، إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة سلسلة كتب المستقبل العربي ، الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية
- 65- عز الدين المناصرة عنوانها: الهويات والتعددية اللغوية: قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن، دار الصايل للتوزيع والنشر.

- 66- رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية ط1
1997م
- 67- عمرو عبد العزيز: (أشهر الرحلات القريبة من الأسطورة إلى الفضاء)، الطبعة الأولى، دار طيبة للطباعة، الجزائر. 2010.
- 68- عماد الدين خليل: من أدب الرحلات، ط، دار بن كثير، القاهرة 2005م.
- 69- فؤاد بدوي بطرس_ الهوية وثقافة السلام _ الطبعة الإلكترونية _ 2008م.
- 70- علاء عبد الرزاق مطلق، أزمة الهوية في الفكر العربي المعاصر بين الأصالة والمعاصرة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، 2000.
- 71- عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه، دراسة ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة الطبعة الثامنة سنة 2002.
- 72- كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، ترجمة جمال بلقاسم ص132 - رؤية للنشر والتوزيع - ط 1 - 2018.
- 73- لطيف زيتون: معجم مصطلحات الرواية، مكتبة لبنان، دار النهار، لبنان، ط1
2002.
- 74- لطفي جبيش: الإنسان والمكان في الثقافة الإسلامية، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، 2011.
- 75- محمد عمارة_ مخاطر العولمة على الهوية سلسلة "التنوير الإسلامي" _ دار نهضة مصر _ 1999م.
- 76- محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية ، مركز دراسات الوحدة العربية ط3، بيروت-لبنان، 2000.
- 77- محمد عابد الجابري، مسألة الهوية (العروبة والإسلام - والغرب)، م.س.ذ.
- 78- محمد صخري، نشأة إشكالية الهوية وتزايد دورها الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية، ، أغسطس 2021 .
- 79- محمد بوعزة: تحليل النص السردي وتقنيات ومفاهيم، ط 1، الدار العربية للعلوم والنشر، الرباط، المغرب، 2010م.

- 80- محمد بوعزة، سرديات ثقافية.. من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف - منشورات ضفاف/دار الأمان للنشر والتوزيع/منشورات الاختلاف. ط1 - بيروت -سنة 2014.
- 81- مدي سليمان، ورقة عمل قدمت لمؤتمر الثقافة والهوية، ضمن فعاليات مؤتمر أدباء مصر في دورته الثامنة والثلاثين، كتاب الأبحاث . 2012.
- 82- مصلح النجار وآخرون: الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية، الأهلية، الأردن، ط1، 2008.
- 83- ريمون كاربانتييه : معرفة الغير ،ترجمة نسيم نصر، منشورات عويدان ،بيروت . 1987.
- 84- مارتن هايدجر، الفلسفة، الهوية والذات، ترجمة محمد مزيان وتقديم محمد سبيلا، منشورات ضفاف. 2009.
- 85- مقدمة الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام والحجاز عبد الغني بن إسماعيل النابلسي (توفي 1243هـ)، تقديم وإعداد د. أحمد عبد المجيد هريدي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، 1986م.
- 86- نادر كاظم: مثيلات الآخر: صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، 2004م.
- 87- وارد بدر السالم: سرديات ابن بطوطة، الخميس، صحيفة العرب، العدد 11411، بتاريخ 18 يوليو، 2019.
- 88- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.
- 89- هارلمبس وهولبورن، سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ترجمة حاتم حميد محسن، دار كيوان للطباعة والنشر.. 2011
- 90- هايدن وايت ، محتوى الشكل الخطاب السردى والتمثيل التاريخي ، ت. د. نايف الياسين ، هيئة البحرين للثقافة والآثار ،توزيع منتدى المعارف ، ط1 المنامة 2017.

ثالثاً-المراجع الأجنبية:

- An introduction of the Concept of Identity , Martin Rost , Independent of Privacy Protection (ICPP Centre2003.p200
- Mary Louise Part : Imperial Eyes, Travel Wrinting and transculturation - ,Lound ,ed Rouen, France
- Roland Barth “ Introduction to the Structural Analysis of Narratives “ Image . Music . Stephen Health (teans) New york 1977 p79
- Le petit Robert (dictionnaire de la langue francaise, redaction dirigeed par (a. rey et j. rey-debove.),le Robert -107,avenue parmentier,paris19870

Abstract

A Gift to those who contemplate the wonders of cities and the marvels of travelling: a cultural narrative approach

This study dealt with identity and otherness in Ibn Battuta's journey (Tuhfat al-Nazar in the strangeness of cities and the wonders of travel, where Ibn Battuta's journey is considered a major secret blog of the narratives of the Arab-Islamic journey. It relied on the investigations of Dr. Abdel-Hadi Al-Tami in the details of this study. The study divisions were divided into an introductory topic, three chapters and a conclusion:

The introductory topic dealt with: the entrance to the central concepts and awareness and their cognitive transformations by presenting the concept of both the concept of cultural representations and the concept of identity and its relationship to the ego and the other

The first chapter dealt with the literary discourse of the journey in Ibn Battuta's journey by highlighting the relationship between the journey that represented a great journey in which Ibn Battuta traveled approximately one thousand and one hundred and twenty kilometers and it is a multi-level text from the depths of the past and the traveler is Ibn Battuta called him the Sheikh of the traveler and he is a historian A Moroccan judge and jurist had an undeniable merit in drawing images of the other in the north, east and south, and the relationship between narration and description, as well as the cultural narrative approach in that journey, by examining the place, representations of the audience, cultural techniques and their impact on highlighting cultural identity.

The second chapter dealt with the representations of identity in Ibn Battuta's journey (a study in the mechanisms of meaning and significance) through highlighting the concept of identity and its forms and the relationship between the self and the narrative identity and the opinions of writers on that, then the heterosexual identity in Arab culture and in Ibn Battuta's journey.

The third chapter dealt with representations of altruism in the journey of Tuhfat al-Nazar in the strangeness of the cities and the wonders of travel by Ibn Battuta, A study in the mechanisms of the formation of meaning and significance, where representations are one of the mechanisms that travelers use to express their journey clearly, and

narration, as one of the representation mechanisms of travelers, is a goal in itself as it is the method of transmitting the cultures that Ibn Battuta experienced and passed through on his journey.

In conclusion, there are many conclusions and recommendations, the most important of which is that Ibn Battuta's journey is considered a cultural reference for the Middle Ages, for him cultural analogies were manifested in their best forms, due to the accuracy of his expression and the beauty of his pronunciation, and the accuracy of the description that he employed to convey this culture, so his memoirs were the main factor in The transfer of these cultural representations at that time, and the cultural representations in Ibn Battuta's journey reflect reality to a large extent, and the text of Ibn Battuta's journey came as a narrative text, narrating the events and depicting characters.

The narration and description in the journey of (Ibn Battuta) represented the literature of the journey, and they were traveling according to two parallel lines, and they might intersect at a specific point so that one of them would give a way to the other to set off depending on specific linguistic contexts and structures.

Ibn Battuta excelled in highlighting the mechanisms of narrative, narrative and narrative production, as Ibn Battuta attached great importance to man in the various contexts of narration and description that he wrote during his journey. He focused on his interaction with nature and its conditions, as well as the relationship between him and the place, so he depicted pictures of social life and its sophistication and luxury, as well as poverty and destitution in the lives of peoples. The description in Ibn Battuta's journey took various forms and shapes, according to the observer's gaze and his continuous observation.

UNIVERSITY OF BAHRAIN

College of Arts



Department of Arabic
Islamic Studies

**A Gift to those who contemplate the wonders
of cities and the marvels of travelling:
a cultural narrative approach**

A dissertation submitted to complete the requirements for obtaining a
master's degree in a In Arabic language its literature

Submitted by
Dalal Rashid Al Thawadi
University Number: 20110942

Supervised by
Dr. Dheya Abdullah Alkaabi
Associate Professor of Modern Literary Criticism and Narratology.

University of Bahrain
Kingdom of Bahrain

2022